

جامعة الأزهر

مجلة
كلية اللغة العربية
بدمنهور

أشراف

أ.د. عبد الله ربيع محمود

عميد الكلية

العدد الثالث

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة



مجلة
كلية اللغة العربية
بدمنهور

إشراف

ا.د. عبد الله ربيع محمود

لجنة المجلة

د. عبد الفتاح أبو الفتوح　　د. الشحات محمد أبو ستيت

العدد الثالث

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

اللهم أخلص أعمالنا لوجهك ونور لنا طريق رضاك .

لك الحمد ربنا حمداً يكافىء مزيدك ، ويعادل توالى نعمك ، وتتابع أفضالك ، على نبيك وحبيبك سيدنا ومولانا محمد أزكى الصلوات ، وأتم البركات ، وجزى الله آله وأصحابه وأتباعه بفضله عنا ما يستحقون من تقدير وتكريم .

وبعـــد . . .

فمن باحة العربية وحصنها بشمال مصر وغربيها يصدر بعون الله وفضله العدد الثالث من مجلتنا الحبيبة مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور فيكون كما ذكرنا فى مقدمة العدد الثانى رد فالسابقه ومكملا لرائده ومما لا شك فيه أن القارىء الذى نعتز برأيه ، ونركن إلى فكره وتوجيهه ، سيلمس فى هذا العدد الجديد نفحة تقدم وروحة رقى وتسنم ،ذلك أن طبيعة الأمور، وسنة الحياة — عندما لا تفسدها أسباب الشهوات أو مظاهر الإنحراف — لابد أن تعطى للصغير ما ينميه ، وللناشىء ما يوفيه ، ونحن فى هذا الموقع من مواقع الجهاد لا نألوا جهداً فى سبيل منع كل ما يعترض المسيرة، أو يحول بينها وبين أسباب التكمل أو الإستكمال ، وما أكثر العقبات حين نعدها ، لكن عزائم المؤمنين تقتحم كل عقبـــة وتحطم كل صخرة أمام مجرى الحياة .

أن نظرة سريعة فيما أحدثه العددان السابقان من آثار أو ردود أفعال كما يقولون تجعلنا نفرح بفضل الله وكيف لا وقد ظفرنا بكثير من كلمات التهنئة ممن يعلمون قلة عددنا وعددنا، كما تمتعنا بكثير من نفحات النقد ممن ظنوا أن وراء هذا العمل أكثر مما وراء أمثاله فى الساحات والميادين العلميه المناظره فطالبوا بالمزيد ودعوا إلى التوسع . . . وأشاروا إلى الأستكمال .

وإن هيئة المجلة تشكر الطائفة الأولى على تفضلها بالدفع والتشجيع كما تشكر الطائفه الثانية على تكرمها بالنقد والتوجيه ، وترى نفسها ازاء هذا كله مطالبة بالتوفيق فى أختيار موضوعاتها والتنويع فى تخطيط أبوابها ، والتجميل فى صدع صورها وأشكالها .

ومن هذا المنطلق فقد تم الإتفاق على أن تجعل من هذا العدد الثالث نموذجاً جديداً للمجلة العلمية اللغوية التى تعبر بلسان عصرها عن تراث الآباء والأجداد وتصور بلهجة أسلافها أفكار الأبناء والأحفاد .

فكان ثمة منهج أقتضى أن يوضع تخطيط ، ويرسم سبيل وطريق ، تظهر فيه روح التنويع ، ويبين فيه مظهر التشويق والترويح فالى جانب البحوث اللغوية رأينا أن تظهر الأخبار العلمية والروايات اللغوية ، وبخاصة ما يتصل منها بجانب أعمال اللغويين وما يصدر عن مجامعهم ومؤتمراتهم فى الشرق والغرب وكم للأخبار والرواية من آثار فى عالم الدراسات اللغوية .

ومع بحوث اللغة والأدب والتاريخ التى يكتبها أبناء الكلية ترحب بما يكتب غيرهم من أبناء أزهرها وجامعاتنا الكبرى ولا نرى بأسا فى أن تظهر بجانب تلك البحوث الشرقية أو العربية بعض ما يصنعه أبناء الغرب

من المستشرقين أو المستعربين حول لغتنا العربية بعد النقـد والتمحيص والتعليق بأقلام أهلينا وأخواننا من أبناء الأزهر وغيرهم .

وإذا كان يؤلمنا أن أكثر المجلات العلمية المناظرة يعمل كل منها فى عزلة مفروضه ، وبعدة مرفوضة فإننا نرجو لمجلتنا هذه أن تبنى جسور الود والتعاون العلمى بين أكبر عدد من أخواتها فى ساحات اللغة والأدب ، وقد نعهد إلى بعض الصفوة من أبنائها باتخاذ كل سبيل لأقامة تلك الجسور العلمية ولو بتلخيص ما هو مهم من بحوث ومقالات الأخوة والأساتذة الـكاتبين فى أخوات مجلتنا وأمهاتها ، ليظهر الخير ويعمم النفع .

وسيكون لحرصنا على أشـاعة روح التعاون العلمى بين الدارسين من أبناء الـكلية فى المرحلة الجامعية والدراسـات العليا وبين أساتذتهم أثر فى توجيه البحوث المنشورة لخدمة هذا الهدف والإعلان عما تقوم به تلك الفئة من باحثى الدراسات العليا من أعمال جادة وبحوث منتقـاة ، إننا لا نؤمن بما يتردد فى بعض الأوساط من أن الغرض من المجلة العلمية للـكلية أنما هو أتاحه سبل النشر أمام أعضاء هيئة التدريس الطالبين للترقية ونرى أن هذه الفـكرة تجعل تلك المجلات صوراً من تلك البحوث الـكثيرة التى تهمل بمجرد تحقيق هدفها الدراسى أو الوظيفى المحدود وإنما نرى أن لهذه المجلات إلى جانب ذلك الهدف الرسمى الذى فرضه علينا واقع لا بد من تغييره — أهدافا أخرى علمية ومنهجية، وفـكرية قبل كل شىء ونطالب أنفسنا وغيرنا أن نرفع من هذه المنابر المتاحة أصواتا قوية عالية توقظ النائم وتحرك الـكسول وتعيد الشباب المسلم إلى سابق عهده فى الفـكر والسمع والأبداع .

ألم يكن صوت الإسلام بقوته ودفئه وحنانه أكبر دافع لاكتشاف نظم العربية وأسرارها ومظاهر جمالها وهل كان أحد يظن — مجرد ظن أن العباهلة من أبناء الصحراء وبدوها سينجبون للعربية أمثال أبى الأسود

الدؤلى ، ونصر بن عاصم وأبى عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد وأبنه الروحى « سيبويه » وغيرهم بغير نزول القرآن وظهور الإسلام .

« أولئك أبائى فجئنى بمثلهم » .

وأننا مع أيماننـــا ومعرفتنا بقدر ما قدمه أولئك الأباء السادة فإننا لانؤمن ولانصدق بمـا يتردد فى مجالاتنا الثقافية أن الأول لم يترك للآخر شيئاً ونعلن أن الأمر على عكس ذلك تماماً فكم ترك الأول للآخر؟ونتخذ من قول أمامنا النحوى القارىء أبى عبد الله جمال الدين محمد بن مالك فى مقدمه كتابه التسهيل مبدأ وشعاراً إذ يقول رحمه الله :

« وإذا كانت العلوم منحا آلهيه ، ومواهب أختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر نيله على كثير من المتقدمين ، أعاذنا الله من حسد يسد باب الإنصاف ، ويصدعن جميل الأوصاف والهمنا شكراً يقتضى توالى الالاء ويقضى بانقضاء اللأواء »(١) .

ومن هذا المنطلق فإننا ندعو إلى التفكير العميق فى مشكلات عربيتنا العصرية فى قضاياها التى تجددت مع مر الأيام وأختلاف العصور ، ونهيب بكل غيور على إسلاميته وعربيته أن يفكر معنا فيما يعيد لتلك العربية روحها القرآنية ، وبيانها النبوى ، وطلعتها السماويه المشرقة .

أن العربية الفصحى لتبرأ مما يتردد على الأسماع اليوم من صور اللحن الفاحش فى أصواتها وأداتها وكلماتها ونحوها وأساليب صوغها

---

(١) مقدمة تسهيل الفوائد ص ٢ وقد سعدت بهذه العبارة فى مقدمة بحثى الحميد عن النبر : Accent فى العربية الفصحى بالعالم العربى المعاصر .

وما أشد هذا الفحش عند يكون مصدره الكبراء قبل الصغراء والعلماء قبل الجهلاء ؟

أن تعليم العربية لأبناء العرب ولغيرهم ما زال متكفئاً على غير هدى مشدوداً بقيود من فولاذ تمنعه من التقدم وتحول بينه وبين الإنطلاق بأساليب العصر وتقنياته الرائعة .

أن البحث اللغوى فى جامعة الأزهر وفى غيرها من نظائرها لم ينفك عن الدوران حول بعض القضايا القديمة من نحو نضج حتى احترق أو صرف لم يسبق له تصريف وما أكثر أولئك الذين يزعمون تحقيق التراث فى هذا المجال مع أن أكثر ما يصدر عنهم فى أشد الحاجة إلى التصحيح والتحقيق وقل مثل ذلك عن كثير مما يصنع فى مجالات البحث الأدبى والبلاغى والأصولى .

وما أدرى ولست أدرى هل عرف أخواننا الباحثون فى تلك المجالات ماذا يدبر للعربية وعن العربية فى هذا العصر ، وماذا يقال عنها فى عقر دارها وفى الخارج ؟ وهل عرفوا شيئاً عن مشروع العربية الأساسية ؟ أو النحو العربى الأمريكى أو الترجمة الآلية الإلكترونية ؟ إلى غير ذلك من القضايا التى شغل بها الآخرون ليس حسبة بالطبع لوجه الله .

ومنذ متى راجعتم أنفسكم وحاسبتموها بالنظرة الموضوعية فى تلك المقررات التى تقدم لطلابكم فى صورة مذكرات أو كتب هزيلة وعرفتم أثار ذلك فى تكوين هؤلاء الطلاب الذين هم أمانة فى أعناقكم ؟ .

أن بعض من يجتمعون من أجل هذا الغرض الأسمى تحكمهم شهد الله دوافع خاصة أو شخصية فإذا بهم يحاولون — السيطرة بمواد تخصصهم

وبما يعرفون على غيرهم ولو كان ذلك حساب المنهج العلمى والتكوين السليم .

لقد كانت هناك ندوات عالمية ومؤتمرات دولية لبحث طرق ووسائل تعليم العربية للناطقين بها ولغيرهم وكانت لها قرارات وتوصيات فهل ياترى بلغت هذه آذان المسئولين عن جامعاتنا ومعاهد اللغة عندنا وهل وجدت صدى فى عقولهم وقلوبهم ؟ .

وتساؤلات أخرى كثيرة وأوجاع فى العقل والقلب تثير أشد ألوان الصراخ لكن تبقى المشكلة من يسمع ؟ من يشارك ؟ من يطب ؟

هل يستطيع هذا الصوت اللغوى العربى من دمنهور أن يصل إلى القاهرة وإلى كل عواصم العرب والمسلمين فيرجع صداه حاملا : لبيك لغة القرآن ولسانه المبين .

* * *

وتحية من قبل لصوت العربية فى دمنهور وتحية لكل من شارك فى تكوينه ونقله ونسخه وطبعه ولنا فى الله أكبر الأمل فبإذنه وتفضله نلتقى إن شاء الله فى العدد الرابع .

« أن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أ . د / عبد الله ربيع محمود
المشرف على المجلة

كتاب "البديع"

وأثره فى الدراسات البلاغية

بقلم

الدكتور السيد محمد عبد الرحمن أبو شيت

المدرس بقسم البلاغة و النقد

تقـــديم :

يمثل كتاب « البديع » « لابن المعتز » بداية مرحلة جديدة فى تاريخ البيان العربى ، يمكن أن نسميها : مرحلة الدراسات المنهجية .

فقد اتبع فيه مؤلفه منهجاً محدد الخطوات،واضح المعالم ، على خلاف ما نلحظ فى جل ما سبقه من مؤلفات فى هذا الميدان .

ومن ثم كان لهذا الكتاب قيمة كبيرة فى تاريخ البلاغة العربية ، وبرز أثره جليا فى المؤلفات التى كتبت من بعده، واتكأ عليه عدد غير قليل من أعلام المؤلفين فى الدراسات البلاغية .

وهذا البحث يتناول كتاب « البديع » بالدراسة والتحليل ، ويكشف عن الروافد التى أمدته ، والرياض التى استقت منه ، ويفند ماوجه إليه من تهم ، وما أثير حوله من شبهات .

لذا فهو ينقسم قسمين :

الأول : دراسة كتاب « البديع » .

والثانى : بين التأثر والتأثير .

ونبدأ — بعون الله وتوفيقه — فى خوض غمار البحث .

أولا : دراسة كتاب « البديع » .

* * *

مؤلف الكتاب :

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله ، بن المتوكل على الله ، بن محمد المعتصم ، بن هارون الرشيد .... وينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، ولد على أرجح الآراء فى شعبان سنة ٢٤٧هـ — نوفمبر سنة ٨٦١ م، وتولى تربية أبناء الخلفاء ، وتأدب على أشهر علماء عصره ، كثعلب ، والمبرد ، وابن هبيرة ، وغيرهم .

ومال منذ صغره إلى الشعر والأدب ، وظل يحيا فى ظلهما بعيداً عن صراعات السياسة حتى نبغ فيهما نبوغا منقطع النظير .

ويصف ابن المعتز «نفسه فى بعده عن السياسة ، وجنوحه إلى الملذات» فيقول(١) :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفسا آذنت بالتنقل
فإن تطلبه تقتنصه بحانة وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خليفة ولا قائلا من يعزلون ومن يلى
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة يناظر فى تفضيل عثمان أو على

ومع هذا فقد جاءته الأقدار بما لم يكن فى الحسبان ، ففى سنة ٢٩٦ هـ اجتمع جماعة من القواد على خلع « المقتدر » وتولية « ابن المعتز » مقاليد الخلافة ، وبويع بها يوم السبت ٢٠ من ربيع الأول ، وصلى بالناس الصبح يوم الأحد ، وفجأة تبدلت الأمور ، وأفرج عن «المقتدر» ، وانفض أنصار « ابن المعتز » من حوله ، فقبض عليه ، ولقى حتفه ، ولما يهنأ بعرش الخلافة .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ٣١٨

وقد رثاه كثير من الشعراء ، وقال فيه «ابن بسام»(١) :

لله درك من ملك بمضيعة
فاهيك فى العلم والآداب والحسب

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه
وإنما أدركته حرفة الأدب

نعم أدركته حرفة الأدب ، فقتل بائسا ، لم يتمتع بأبهة الملك ، وعند التحقيق نرى أن الخلافة قد أسقطته وأردته ، بينما أعلاه الأدب ، وأحيا ذكره ، ما بقى فى الناس مطالع للآداب ، ودارس للعلوم .

وترك «ابن المعتز» مؤلفات جليلة ، تزهو بها رياض العلم ، ويعتز بها العلماء ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتاب «ابن المعتز وتراثه» مؤلفاته وهى :

١ — كتاب البديع .

٢ — الزهر والرياض .

٣ — مكاتبات الإخوان بالشعر .

٤ — الجوارح والصيد .

٥ — السرقات .

٦ — أشعار الملوك .

٧ — الآداب .

٨ — حلى الأخبار .

٩ — طبقات الشعراء .

---

(١) ابن المعتز العباسى : ٢٤٥

١٠ — الجامع فى الغناء .

١١ — أرجوزة فى ذم الصبوح .

١٢ — ديوان شعر كبير .

وكثير من هذه الكتب مفقود ، وما نشر منها يشهد ببراعة «ابن المعتز» وسعة ثقافته ، وعلمه الغزير ، فرحمه الله رحمة واسعة بما قدم للعلم والعلماء .

التعريف بالكتاب :

كتاب « البديع » لابن المعتز من أهم كتب التراث فى البيان والنقد ، وقد ألفه « ابن المعتز » سنة ٢٧٤ هـ ، وذكر ذلك فى الكتاب ، فقال : وما جمع فنون البديع ، ولا سبقنى إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين وأول من نسخه منى على بن هارون بن يحيى بن أبى المنصور(١) .

وقد نشره المستشرق الروسى «أغناطيوس كراتشكوفسكى» سنة ١٩٣٥م معتمدا على النسخة المخطوطة الوحيدة الموجودة فى مكتبة «الاسكوريال» .

ثم نشره بعد ذلك الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٩٤٥ ، وقد صحح كثيرا من أخطائه وشرح ما فيه من أبيات .

---

(١) البديع : ٥٨

سبب تأليفه :

« ذكر ابن المعتز » فى مقدمة كتابه دوافع تأليفه ، فقال : قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة ، والأعراب ، وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذى سماه المحدثون «البديع» ليعلم أن بشاراً ، ومسلماً ، وأبانواس ، ومن تقيلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه .

ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ، وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك ، وأساء فى بعض . وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف ، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل(١) .

ففى هذا النص يكشف « ابن المعتز » عن سبب تأليفه كتاب «البديع» ، ففى عصره احتدمت المعارك الأدبية بين المحافظين على عمود الشعر من اللغويين والرواة ، وبين المحدثين من الشعراء .

فالمحافظون ينافحون عن منهج الشعر القديم ، ويرون أن الشعر يجب ألا يخرج عنه ، ويتهمون بشاراً ومسلماً وغيرهما بإفساد الشعر .

والمحدثون يذهبون إلى التأنق فى الصياغة ، والغوص وراء المعانى ، وتوشية القصائد بحلى البديع ، ويرون أن هذا أقوم طريق .

---

(١) السابق : ١

وفى خضم هذه الخصومات الأدبية ، ألف « ابن المعتز » كتابه ليدلل على أن البديع موجود فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام العرب ، وأشعارهم ، وأن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنونه ، ولكنهم عنوا به ، وأكثروا منه فى أشعارهم حتى عرفوا به ، وأسرف بعضهم فى استعماله حتى أساء فى بعض شعره ، واكتنف بعض شعره الغموض .

ويزيد « ابن المعتز » الأمر وضوحاً حين يصرح بهذا السبب مرة أخرى بعد قليل من كلامه السابق ، فيقول : وإنما غرضنا تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع »(١) .

ويرى أستاذنا الدكتور أحمد موسى أن « ابن المعتز » ألف كتابه منافحة عن المحدثين ، واحتجاجاً للبديعيين ، لأنه من أعلام الصنعة البديعية ، وكان فى سلك الذين رماهم علماء اللغة بإفساد الشعر ، والخروج به عن مألوفه ومعتاده ، وإثقاله بالحلى التى تسلمه من التكلف والتعقيد(٢) .

بينما يرى الدكتور شوقى ضيف أن « ابن المعتز » ألف كتابه ليثبت أن المحدثين لم يخترعوا البديع ، الذى يلهجون به ، وكأنه يرد حقاً مسلوباً للشعراء الأقدمين الذين ادعى المحدثون أنهم قد اخترعوا البديع دونهم ، ولم يسم « ابن المعتز » من ادعى ذلك وغمط العرب حقهم ، وأنكر عليهم كل فضل ، ولكنه تصدى لمن ادعوا ذلك ، لينقض دعواهم الباطلة ، مبيناً بالبرهان الساطع أن البديع قديم فى العربية »(٣) .

وكلام أبى هلال يؤيد ماذهب إليه الدكتور شوقى ضيف إذ يقول

---

(١) البديع : ٣

(٢) الصبغ البديعى : ١٢٩

(٣) البلاغة تطور وتاريخ : ٦٧

بعد أن عدد ألوان البديع : فهذه أنواع البديع التى ادعى من لا روية ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرىء من العيوب ، كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة »(١) .

وأرى أن « كلام « ابن المعتز » يحتمل التفسيرين ، ولامانع من أن يكون قد أراد أن يدلل على أصالة البديع فى اللغة العربية . ويثبت أنه فن قديم من فنون القول فيها ، فى الوقت الذى قصد أن يبين أن المحدثين لم يخرجوا بسبب البديع عن عمود الشعر العربى ، وإنما كان ذلك بسبب إكثارهم منه ، وغرامهم به إلى درجة التكلف والتعقيد .

منهج الكتاب :

سار « ابن المعتز » فى كتاب « البديع » على منهج دقيق ، يدل على عقل فذ ، ونظر ثاقب ، وقد بدأ كتابه بمقدمة شرح فيها الدوافع التى جعلته ينهض لتأليف كتابه . وبين أنه سيتحدث عن فنون البديع كما يراها قاصداً من ذلك تعريف الناس بقدم البديع ، فليس لأحد أن يعيب عليه اقتصاره على بعض الفنون ، ففى دون ماذكره مايوفى بالغاية التى قصدها(٢) .

ويؤكد على أنه لم يقتصر على هذه الفنون لجهل أو ضيق معرفة ، فيقول : بعد أن انتهى من فنون البديع : ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة ... وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد

---

(١) الصناعتين : ٢٠٤

(٢) البديع : ٣

كتابنا للمتأدبين، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة(١).

وقسم « ابن المعتز » كتابه قسمين :

الأول : البديع ، وهو القسم الأكبر فى كتابه ، وبحث فيه خمسة أبواب هى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى .

والثانى : محاسن الكلام والشعر ، وتحدث عن ثلاثة عشر لوناً منها هى : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، والخروج من معنى إلى معنى ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم : وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى ، وحسن الابتداءات .

والتزم « ابن المعتز » فى دراسة أبواب البديع بمنهج فريد ، فتراه يعرف اللون البديعى ثم يسوق له الأمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الصحابة ، وكلام العرب ، ثم ينتقل ليضرب الأمثلة من الشعر القديم ، ويعقبه بذكر أمثلة من شعر المحدثين .

وبعد أن يذكر العدد الوفير من الأمثلة الجيدة يأخذ فى ضرب الأمثلة المعيبة ، التى لم تستوف شروط الحسن .

ولقد أكثر « ابن المعتز » من ضرب الأمثلة الجيدة فى كتابه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى الناشئين زاداً يمدهم بمقومات الصنعة الجيدة ، التى

---

(١) البديع : ٥٨

أباحها الذوق العربى ، ويعصمهم من الوقوع فى التكلف الذى يهبط بأشعارهم إلى درجة القبح[1] .

وتظهر شخصية « ابن المعتز » فى كتابه كأديب بارع ، وشاعر ذواقة ، وناقد خبير ، يتقن التمييز بين جيد الكلام ورديئه .

وسنتناول موضوعات الكتاب بالدراسة والتحليل ، لنبين طريقة « ابن المعتز » فى تناولها ، ونقف على جهوده فى إبراز معالمها ، وإيضاح مسائلها ، ونوضح أثره الكبير فى تطور البلاغة العربية .

ونبدأ بالقسم الأول وهو أبواب البديع .

١ — الاستعارة :

هى أول أبواب « البديع » التى بحثها « ابن المعتز » فى كتابه ، وكأنه بهذا يجعلها فى مقدمة ألوان البديع أهمية ، نظراً لجريانها على ألسنة العرب ، وشيوعها فى شعرهم ونثرهم ، وتأثيرها القوى فى أداء المعانى ، وروعة الأساليب .

وقد عرفها ، وضرب لها أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ، وكلام غيرهم من فصحاء العرب قدماء ومحدثين ، ثم ذكر لها أمثلة من جيد الشعر فى عصوره المختلفة : الجاهلى ، والإسلامى ، والعباسى ، ثم ختم حديثه عنها بذكر أمثلة للاستعارات القبيحة فى الشعر والنثر .

وفى خلال رحلته مع أمثلة الاستعارة أشار بلطف إلى بعض مسائلها كما يتضح فيما يلى :

---

(١) الصبغ البديعى : ١٣٠

(أ) تعريف الاستعارة :

عرف « ابن المعتز » **الاستعارة** بأنها : استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها(١)

وليس هذا أول تعريف وجد فى آثار العلماء ، فقد سبق « الجاحظ » و « ابن قتيبة » و « ثعلب » إلى تعريفها .

فهى عند الجاحظ : تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه(١)

وهى عند ابن قتيبة : وضع الكلمة مكان الكلمة ، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاورا لها ، أو مشاكلا(٢)

وهى عند ثعلب : أن يستعار للشيء اسم غيره ، أو معنى سواه(٣)

وبالنظر فى هذه التعاريف نرى أنها تتسم بالبساطة ، وتفتقر إلى الدقة المطلوبة فى التعريف ليكون جامعا مانعا ، ولكنها — على كل الأحوال — تمثل مرحلة أولية من مراحل الفكر البلاغى ، لها أهميتها فى بناء صرح علوم البلاغة .

---

(١) البديع :

(٢) البيان والتبيين : ١ / ١٥٣

(٣) تأويل مشكل القرآن : ١٣٥

(٤) قواعد الشعر : ٢١

(ب) قرينة الاستعارة :

لم يشر ابن المعتز صراحة إلى قرينة الاستعارة ، ولكننا نلمح فى تعليقه على بعض الأمثلة ما يومىء إليها ، إذ يقول : ومن الاستعارة قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

هذا كله من الاستعارة ، لأن الليل لاصلب له ولا عجز[١]

فقد أشار إلى الاستعارة فى الصلب ، والعجز ، والكلكل ، وبين أن هذه الألفاظ إنما كانت من قبيل الاستعارة ، لأن الليل لاصلب له ولاعجز ، وهذا توضيح للقرينة التى عرفت عند البلاغين بعد ذلك .

(ج) بيان أصل الاستعارة :

وبين « ابن المعتز » — فى بعض الأمثلة — المعنى الحقيقى الذى أخذت منه الاستعارة ، ففى قول النابغة الذبيانى :

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

يقول : أراح الليل عازب همه ، هذا مستعار من إراحة الراعى الإبل إلى مباءتها ، أى موضع تأوى إليه[٢]

---

(١) البديع : ٧ (٢) السابق : ٨

وفى بعض الأمثلة أشار إلى المعنى المجازى ، والمعنى الحقيقى وشرح اللفظ المستعار ففى قول الشاعر :

إذا لقحت حرب عوان مضرة
ضروس تهر الناس أنيابها عصل

يقول : تهر : أى تحملهم على أن يكرهوا ، يقال : هرفلان كذا : إذا كرهه ، وأهررته أنا : حملته عليه ، وهرير الكلب : صوت يردده إلى جوفه إذا كره الشىء ، أو الشتاء لشدة البرد أو لغيره(١)

(د) أمثلة من جيد الاستعارات :

ساق ابن المعتز أمثلة كثيرة للاستعارة ، من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ، وكلام غيرهم من فصحاء العرب قدماء ومحدثين ، ثم ذكر أمثلة من جيد الشعر فى عصوره المختلفة ، الجاهلى والإسلامى ، والأموى ، والعباسى .

فمن الاستعارات القرآنية ، قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب)(٢) . وقوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)(٣) ، وقوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا)(٤)

ولم يعلق ابن المعتز على هذه الشواهد بشىء ، ومعلوم أن الاستعارة فى الآية الأولى فى لفظ « أم » ، وفى الثانية « جناح » ، وفى الثالثة فى لفظ « اشتعل » .

---

(١) السابق : ٧
(٢) آل عمران : ٧
(٣) الإسراء : ٢٤
(٤) مريم : ٤

ومن الاستعارات النبوية قوله ﷺ : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله . كلما سمع هيعة طار إليها »(١)

والاستعارة فى الحديث فى لفظ « طار » وقد استعيرت للسرعة .

ومن الاستعارة فى كلام الصحابة ، قول على بن أبى طالب فى كتاب إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة : أرغب راغبهم ، واحلل عقد الخوف عنهم(٢)

والاستعارة فى هذا القول فى لفظ « عقد »

ومن الاستعارة فى كلام غيرهم ، ماجاء فى قول الحجاج : دلونى على رجل سمين الأمانة(٣) .

وفيما روى عن المأمون من أنه رأى بعض ولده وفى يده دفتر ، فقال ماهذا يابنى ؟ فقال : بعض مايشحذ الفطنة ، ويؤنس فى الوحدة ، فقال : المأمون : الحمد لله الذى أرانى من ذريتى من ينظر بعين عقله(٤)

والاستعارة فى قول الحجاج فى لفظ « سمين » وفى قصة المأمون فى لفظى : يشحذ : وعين .

وذكر ابن المعتز للاستعارة نماذج كثيرة من الشعر ، ومما ذكره قول زهير :(٥)

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

---

(١) البديع : ٣
(٢) السابق : ٤
(٣) السابق : ٦
(٤) السابق : ١٢
(٥) السابق : ٨

وقول لبيد .(١)

وغداة ريح قد كشفت وقرة
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وهما من أشهر أمثلة الاستعارة المكنية فى كتب البلاغيين .

ومن الأمثلة قول أبى نواس :(٢)

صهباء تفترس العقول فما ترى
منها بهن سوى السبات جراحا

والاستعارة فى لفظ « تفترس ».

وقول العباس بن الأحنف :(٣)

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا
وفرق الناس فينا قولهم فرقا

والاستعارة فى لفظ « أذيال » .

وغير ذلك من شعر مسلم بن الوليد ، وأبى العتاهية ، وأبى تمام وغيرهم ،

ولقد أفاض ابن المعتز فى التمثيل للاستعارة . وضرب لها أكثر من ثمانين مثالا من الشعر ، غير ما ذكره من القرآن الكريم ، والحديث الشريف وأقوال الصحابة ، وفصحاء العرب .

والناظر فى أمثلته يجد أكثرها من الاستعارة المكنية ، ولعل هذا يرجع

---

(١) السابق : ١١

(٢) السابق : ١٦

(٣) السابق : ١٩

إلى أن هذا اللون من الاستعارة كان موضع نقاش بين المحافظين والمجددين في هذا الوقت ، ويؤيد هذا أن نقد الآمدي لاستعارات أبي تمام كان منصبا على كثرة ما يورده من الاستعارات المكنية في شعره[١] .

(هـ) الاستعارة المعيبة :

وساق ابن المعتز أمثلة من الاستعارات المعيبة ، ختم بها حديثه عن الاستعارة ، وبين أنه سيكتفي بذكر القليل من الأمثلة ، ليعرفها المنشئون ويحترزون من الوقوع في أمثالها ، فقال : وهذا وأمثاله من الاستعارة ، مما عيب من الشعر والكلام ، وإنما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب[٢] .

وذكر أمثلة منها :

قال المهلب لرجل من الأزد : متى أنت ؟ قال : أكلت من حياة رسول الله ﷺ سنتين ، فقال : أطعمك الله لحمك[٣] .

فقول الأزدي : « أكلت » إستعارة قبيحة ، لعدم ملاءمتها للحياة ، ولخروج التعبير عن أدب الحديث عن رسول الله ﷺ .

وقال عبيد الله بن زياد لسويد بن منجوف : أقعد على است الأرض ، فقال سويد : ما أعلم للأرض استا[٤] .

فاستعارة الاست لظهر الأرض إستعارة معيبة ، ولذلك رد سويد « على » عبيد » بعبارة كلها تعجب وإستهزاء .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٧٠ وينظر الموازنة ٢٦١/١

(٢) ، (٣) ، (٤) السابق : ٢٣

وقال أبو تمام(١) :

ضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

والاستعارة فى هذا البيت فى لفظ « أخدعيه » . والأخدعان عرفان فى العنق ، والشاعر حينما جعل للشتاء أخدعين ، على سبيل الاستعارة ، جاءت فى غاية القبح ، وقد وقف الإمام عبد القاهر عند هذه الاستعارة فى بيت آخر لأبى تمام وهو :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد
أضججت هذا الأنام من خرقك

وبين قبحها ، وثقلها على النفس(٢) .

ومن قبله وقف الآمدى عند البيتين وغيرهما منبها على فساد الاستعارة وقبحها(٣) .

وحديث ابن المعتز عن الاستعارات المعيبة ،قد فتح الباب أمام البلاغيين لتفصيل هذا الموضوع ، وبيان مختلف جوانبه .

٢ — التجنيس :

وهو الباب الثانى من « البديع » عند ابن المعتز ، وقد عرفه ، وبين أقسامه ، وضرب له أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الفصحاء ، والشعر ، وختم حديثه عنه بذكر نماذج للمعيب منه .

---

(١) السابق ٢٣
(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٤٧
(٣) الموازنة ٢٦١/١

(أ) تعريفه :

قال ابن المعتز : التجنيس : أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر و كلام ، وشرح معنى المجانسة فقال : ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها ، على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها(١) . . .

فقد عرف التجنيس ، وشرح معنى المجانسة، وأشار إلى كتاب الأصمعى الذى ألفه فى ذلك ، كما استشهد بكلام الخليل بن أحمد فى هذا الموضوع(٢).

(ب) أقسامه :

وبين أن التجنيس على قسمين(٣) :

الأول : ما تكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها، ومعناها، ويشتق منها ، مثل قول أبى يعقوب الخريمى :

يوم خلجت على الخليج نفوسهم　　　عصبا وأنت بمثلها مستام

والثانى : أن تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى ، كقول مسلم ابن الوليد :

يا صاح إن أخاك الصب مهموم　　　فارفق به إن لوم العاشق اللوم

وبالتأمل فى هذين القسمين نرى أنهما بحثا عند المتأخرين فى الملحق بالجناس لا فى الجناس ، والأول منهما يقوم على اجتماع اللفظين فى الاشتقاق ، والثانى يقوم على اجتماعهما فيما يشبه الاشتقاق(٤) .

---

(١) ، (٢) ، (٣) البديع ٢٥

(٤) ينظر مفتاح العلوم ٢٠٣ ، وبغية الإيضاح ٨٥/٤

فهذا التقسيم غير دقيق ، ولا يمثل التقسيم الصحيح للتجنيس ، وهذا لا يغض من مكانة ابن المعتز ، ولا ينقص من قدره ، فهو رائد كفاه أن أوضح معالم الطريق .

(ج) مع الأمثلة :

وساق ابن المعتز أمثلة كثيرة للتجنيس منها ما يدخل تحت تقسيمه ، مثل قوله تعالى[١] : (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ، وقوله تعالى[٢] : (فأقم وجهك للدين القيم) ، وقوله ﷺ[٣] : « الظلم ظلمات يوم القيامة »[٤] .

ومنها ما يدخل تحت أقسام أخرى ذكرها البلاغيون بعد استواء المباحث البلاغية ، كالجناس التام المستوفى فى قول محمد بن كناسة[٥] :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن   إلى رد أمر الله فيه سبيل

والجناس المحرف فى قول العبس[٦] :

وذا كم أن ذل الجار حالفكم   وأن أنفكم لا يعرف الأنفا

والجناس الناقص المطرف فى قول البحترى[٧] :

لولا على بن مر لاستمر بنا   خلق من العيش فيه الصاب والصبر

---

(١) النمل : ٤٤

(٢) الروم : ٤٣

(٣) رواه مسلم

(٤) البديع : ٢٥

(٥) البديع : ٢٦

(٦) السابق : ٢٧

(٧) السابق : ٣٣

والجناس الناقص المذيل ، فى قول حيان بن ربيعة(١) :

لقد علم القبائل أن قومى   لهم حد إذا لبس الحديد

وجناس القلب ، فى قول معاوية لابن عباس(٢) : مالكم يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم كما تصابون فى بصائركم .

ووقف ابن المعتز عند بعض الأمثلة مشيرا إلى التجنيس فيها ، ففى أبيات سعيد بن حميد :

طلعت أوائل للرياض فبشرت   نور الربيع بجدة وشباب

وغدا السحاب يكاد يسحب فى الربى   أذيال أسحم حالك الجلباب

. . . . .

يقول : أردنا قوله : وغدا السحاب يكاد يسحب(٣) .

وهذا التجنيس من اللون اللون الأول الذى عرف فيما بعد بجناس الاشتقاق .

وقد يأتى فى البيت تجنيس واستعارة ، فنراه يشير إلى ذلك ، ففى قول عمارة بن عقيل :

وعلا اغاط فبات يلغط سيله   ويعج فى ابب الرغام ويصخب

يقول : جمع فى هذا البيت التجنيس والاستعارة(٤) .

---

(١) السابق : ٢٧

(٢) السابق : ٢٥

(٣) ، (٤) السابق : ٣٠

ويعجب ابن المعتز ببعض الأبيات ، فيحكم عليها بأنها من الأبيات الملاح ، ففى قول أبى تمام :

سعدت غربة النوى بسعاد فهى طوع الإتهام والإنجاد

يقول : وهذا من الأبيات الملاح(١) :

وهذا البيت مطلع قصيدة لأبى تمام ، والجناس فيه بين : سعد ، وسعاد ، وقد حكم عليه أبو هلال بحكم ابن المعتز فقال : وهذا من الإبتداءات المليحة(٢) .

ومثل ابن المعتز للتجنيس ببعض شعره ، فقال : وقلت :

يا دار أين ظباؤك اللعس قد كان لى فى إنسها أنس
أين البدور على غصون نقاً من تحتهن خلاخل خرس(٣)

وهو يقصد التجنيس بين : إنس ، أنس ، فى البيت الأول ، وهذا اللون من الجناس يعرف عند المتأخرين بالجناس المحرف ، وفيه يختلف اللفظان فى شكل الحروف .

(د) التجنيس المعيب :

ساق ابن المعتز أمثلة للتجنيس المعيب من ذلك(٤) : قول منصور بن الفرج :

---

(١) السابق ٢٩
(٢) الصناعتين ٢٧٧
(٣) البديع ٣٢
(٤) السابق ٣٤ ، ٣٥

أكابد منـــك أليم الألم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فقد أنحل الجسم بعد الجسم

وقول أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فيه الظنون أمذهب أم مذهب

وقول البهروى :

ولو رأى هرم معشار نائله ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لقيل فى هرم قد جن أو هرما

ولم يبين ابن المعتز سبب قبح هذه التجنيسات وغيرها مما ذكره ، والذى يظهر لنا من التأمل فيها ، أنها قد جاءت متكلفة مصنوعة ، وقد عنى فيها بتجانس الألفاظ دون إضافة معان جديدة ، فهى لا تزيدنا إلا سماع حروف مكررة تصك الآذان ولا تغنى العقل .

وقد أشار ابن المعتز إلى بعض التجنيسات التى جاءت غير متـكلفة ، ولا مقصودة فقال : سئل عبد الله بن إدريس عن النبيذ ، فقال: جل أمره عن المسألة : أجمع أهل الحرمين على تحريمه ، ولم يقصده فيما أظن ، ولـكن كما تهيأ له فى الـكلام(١) .

ويفهم من تعليقه على هذا المثال أنه معجب به نظراً لمجيئه من غير قصد ولا تصنع ، وهذا ما يجب أن تـكون عليه الألوان البديعية .

وقد فصل الإمام عبد القاهر هذا الموضوع وساق بيت أبي تمام وبين سبب قبح التجنيس فيه ، فقال :

أما التجنيس ، فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام فى قوله :

---

(١) البديع ٣٤

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ... فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل :

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث :

ناظراه فيما جنى ناظـراه ... أو دعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول ، وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنة يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة ، من حلى الشعر ، ومذكورا فى أقسام البديع »(١) .

فقد بين الإمام أن التجنيس لا يـكون حسنا إلا إذا أضاف فائدة ، وحقق معنى يمتع الحس ويغذى العقل ، وأنه يعاب حينما يأتى مصنوعا من أجل إيجاد تجانس لفظى ، دون نظر إلى معنى مستفاد منه .

وقد أكد ذلك أتم تأكيد فقال بعد الـكلام السابق : فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معجب مستهجن ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى ، والمعرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالـكة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر

---

(١) أسرار البلاغة ١/٩٩ ، ١٠٠ — وينظر دلائل الإعجاز ٣ ٧

اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين »(١).

٣ — المطابقة :

والباب الثالث من أبواب البديع عند ابن المعتز هو المطابقة ، وقد بدأ الحديث عنه بالإشارة إلى كلام الخليل والأصمعي فى معنى المطابقة ، فقال: قال الخليل رحمه الله، يقال : طابقت بين الشيئين ، إذا جمعتهما على حذو واحد ، و كذلك قال أبو سعيد(٢) .

ثم ذكر مثالا للمطابقة مبينا موضحا ، فقال : فالقائل لصاحبه : أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع ، فأدخلتنا فى ضيق الضمان ، قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب(٣) .

ويفهم من هذا الكلام أنه يشير إلى مفهوم المطابقة بأنها الجمع بين المعنى وضده ، وليس المقصود بها جمع أى كلامين .

ويفهم هذا من تحليله لمثال آخر حيث يقول : قال عيسى بن طلحة لعروة بن الزبير حين ابتلى فى رجله : إن ذهب أهونك علينا ، فقد بقى أعزك علينا ، فطابق كما ترى بين العز والهوان(٤) .

---

(١) أسرار البلاغة ١/١٠٠

(٢،٣،٤) البديع : ٣٦

مع أمثلة المطابقة :

ضرب ابن المعتز أمثلة للمطابقة من القرآن والحديث والنثر والشعر ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى(١) : « ولكم فى القصاص حياة »(٢) ، ومن الحديث الشريف قوله ﷺ للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »(٣) .

وواضح أن الطباق فى الآية الكريمة بين قصاص وحياة ، وفى الحديث الشريف بين تكثرون وتقلون .

ومن الأمثلة النثرية قول على رضى الله عنه : إن أعظم الذنوب ماصغر عند صاحبه(٤) ، والطباق بين أعظم ، وصغر ، وهما لفظان مختلفان فى الصياغة فالأول اسم ، والثانى فعل .

ومن الأمثلة الشعرية قول طفيل الغنوى .

بساهم الوجه لم تقطع أباجله
يصان وهو ليوم الروع مبذول(٥)

وقول البحترى :

فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيانا يباكيها(٦)

---

(١) البقرة : ١٧٩
(٢،٣) البديع : ٣٦
(٤) البديع ٣٧
(٥) البديع : ٣٩
(٦) السابق : ٤٤

والطباق فى البيت الأول بين يصان ومبذول ، وفى البيت الثانى بين يضاحكها ويباكيها .

ومن الأمثلة التى ذكرها قول عبد الله بن الزبير الأسدى :

رمى الحدثان نسوة آل حرب
بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا

والطباق فى البيت الثانى بين السود والبيض ، وقد جعل المتأخرون هذا البيت شاهدا « للعكس والتبديل » حيث وقع ذلك بين شطريه ، وهو لا يتعارض مع المطابقة ، لأن مبنى العكس والتبديل على تقديم جزء فى الكلام ، ثم تأخيره على ما قدم عليه(١) .

وبعض الأمثله التى ذكرها تدخل فى طباق السلب كقول أبى العتاهية :

لا تلمنى على التى فتنتنى وأرتنى القبيح غير قبيح(٢)

فبين قبيح وغير قبيح مطابقة عرفت عند البلاغيين باسم طباق السلب

ومن الأمثلة التى ذكرها ما يدخل تحت المقابلة التى عرفها البلاغيون من بعده ، وجعلها أبو هلال من ألوان البديع(٣) .

---

(١) ينظر بغية الإيضاح : ٢٦/٤

(٢) البديع : ٤٤

(٣) الصناعتين : ٢٦٤

وذلك كقول أبي تمام :

فيم الشماتة إعـــلانا بأسدوغى ‌ ‌ ‌ ‌ أفناهم الصبر إن بقاكم الجزع(١)

و كقول النميرى :

وسعودهن ‌ ‌ طوالع ‌ ‌ ونحوسهن ‌ ‌ أفول(٢)

ففى البيت الأول مقابلة بين أفناهم الصبر وبقاكم الجزع ، و فى البيت الثانى مقابلة بين شطرى البيت ، فالبيتان من الأمثلة التى قوبل فيها بين معنيين ومعنيين مضادان لهما .

المطابقة المعيبة :

وذكر ابن المعتز أمثلة للمطابقة المعيبة ، منها قول الأخيطل :

قلت المقام وناعب قال النوى ‌ ‌ ‌ ‌ فعصيت أمرى والمطاع غراب

وعلق عليه بقوله : وهذا من غث الكلام وبارده(٣) .

وقول بعض الشعراء فى القاسم بن عبيد الله :

من كان يُعلم كيف رقة طبعـه ‌ ‌ ‌ ‌ هو مقسم أن الهواء ثخين(٤)

ولم يذكر ابن المعتز السبب الذى جعلها معيبة ، وبالنظر فيها نرى أن الشاعر الأول طابق بين المقام والنوى ، والعصيان والطاعة ، والثانى طابق بين رقة وثخين ، والتكلف فيهما ظاهر حيث تعمد كل من الشاعرين الإتيان بالألفاظ المطابقة من غير نظر إلى قيمتها المعنوية .

ومذهب «ابن المعتز» فى جمال البديع يقوم على مجيئه عفوياً من غير قصد ولا تعمل ، ويكون له أثر فى تقوية المعنى ، وتحسين الأسلوب(٥) .

---

(١) البديع : ٤٢ ‌ ‌ (٢) السابق : ٤٣ ‌ ‌ (٣) السابق : ٤٦

(٤) السابق ٧ : ٤ ‌ ‌ (٥) ينظر البديع : ١، ٣٤

٤ — رد الأعجاز على ما تقدمها :

وهو الباب الرابع من أبواب البديع عند ابن المعتز ، ولم يشر أحد من العلماء قبله إلى هـذا اللون ، فالفضل له فى هذا الباب خالص ، فهو صاحب مصطلحه ، وتقسيمه ، وانتقاء أمثلته(١) .

وقد قسم ابن المعتز هذا الباب إلى ثلاثة أقسام(٢) :

الأول : ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة فى نصفه الأول ، كقول الشاعر :

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرما وليس إلى داعى الندى بسريع

والثانى : ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة فى نصفه الأول كقول الشاعر :

سريع إلى ابن العم يلطم خده وليس إلى نادى الندى بسريع

والثالث : ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر :

عميد بنى سليم أقصدته سهـام الموت وهى له سهام

وبعد هذا التقسيم أخذ فى ضرب أمثلة له من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وشعر القدماء والمحدثين .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى :(٣) « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »(٤) .

ومن الحديث الشريف قوله ﷺ : من مقت نفسه فقد آمنه الله من مقتـه(٥) .

---

(١) ينظر الصبغ البديعى : ١٣٤ (٢) ، (٤) ، (٥) ، (٦) البديع : ٤٧ ، ٤٨

(٣) الإسراء : ٢١

ومن الشعر قول طفيل :

محارمك امنعها من القوم إننى
أرى حقبة قد ضاع فيها المحارم(١)

وهو من القسم الثانى فى هذا الباب .

وقول بشار :

طلوب ومطلوب إليه إذا غدا
وخير خليلك المطلوب المطلب(٢)

وهو كسابقه من القسم الثانى .

المعيب منه :

وساق ابن المعتز أمثلة للمعيب من هذا الباب ، ومنها قول ذى نواس البجلى :

يتيمنى برق المباسم بالحمى ولا بارق إلا الكريم يتيمه

وعلق عليه بقوله : وهذا قد جمع على غثاثته بابين من بديع الكلام ، وهما هذا الباب ، وباب الاستعارة .

والاستعارة فى لفظ «برق» ، ورد الأعجاز بين آخر كلمة فى البيت وأول كلمة فيه ، وهو من القسم الثانى ، وقد حكم ابن المعتز على البيت بأنه معيب ، ولم يذكر سببا لذلك .

وبالتأمل فى البيت نرى أن الشاعر استعار البرق لبياض الثغور عند التبسم وهى استعارة بعيدة . كما أنه أخر الفعل «يتيمه» ليتحقق له رد العجز على الصدر ، فأحدث خللا فى نظم الكلام ، ومن هنا كان البيت غثاً بارداً .

---

(١) السابق : ٥٠ (٢) السابق : ٥٣

٥ — المذهب الكلامى :

وهو الباب الخامس من أبواب البديع وقد ذكر ابن المعتز فى مطلع حديثه عنه أنه نقله عن الجاحظ ، وحكم عليه بالتكلف ، فقال: وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ « المذهب الكلامى » ، وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علو كبيراً(١).

والناظر فى كتب الجاحظ ورسائله المعروفة لا يعثر على إشارة إلى المذهب الكلامى ، أو ذكر لاسمه(٢) .

وقد سار أبو هلال(٣) على ما ذكره ابن المعتز، وذكر قوله السابق ولم يسق له شاهداً من القرآن الكريم .

ولكن المتأخرين من البلاغيين وقفوا من هذا اللون موقفاً آخر، فقالوا فى تعريفه : هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام(٤) ، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ،وساقوا له أمثلة من القرآن الكريم كقوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»(٥) وغير ذلك .

وقد ذكر ابن المعتز لهذا الباب أمثله نثرية وشعرية ، فمن النثر قول عمر ابن الخطاب لعبد الله بن عباس :من ترى أن نوليه حمص ؟ قال: رجلا صحيحاً منك ، صحيحاً لك ، قال : كن أنت ذلك الرجل . قال : لا ينتفع مع بى سوء ظنى فى سوء ظنك بى(٦) .

ومن الشعر ، قول الفرزدق(٧) .

---

(١) البديع : ٥٣
(٢) البلاغة عند الجاحظ : ١٠٣
(٣) ينظر الصناعتين : ٣٢٦
(٤) بغية الإيضاح : ٤، ٥٠
(٥) الأنبياء :٢٢
(٦، ٧) البديع : ٥٤

لكل امرىء نفسان نفس كريمة ... وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى ... إذا قل من أحرارهن شفيعها

وقول ابن المعتز نفسه :

أسرفت فى الكتمان ... وذاك منى دهانى
كتمت حبك حتى ... كتمته كتمانى
ولم يكن لى بد ... من ذكره بلسانى(١)

والمتأمل فى الأمثلة التى ذكرها للمذهب الكلامى يفهم أنه يريد به استعمال طريقة المتكلمين فى الاحتجاج ، وإثبات الكلام بالأدلة :

المعيب منه :

ومثل « ابن المعتز » للمعيب من المذهب الكلامى بأمثلة منها قول الشاعر(٢) :

نعم منك كانت مثل لا إذ بلوتها
فما لنعم عندى على لاء من فضل

ويظهر فيه التكلف ، والتنافر المؤدى إلى الثقل ، والابتذال فى الألفاظ .

وبهذا الباب ينتهى كلام « ابن المعتز » فى أبواب البديع الخمسة ، لينتقل منها إلى الحديث عن محاسن الكلام والشعر .

وهذه المحاسن التى تحدث عنها العلماء من بعده إلى أبواب البديع ، ولم يقتصروا على الأبواب الخمسة التى ذكرها ، وهذا لا يضير « ابن المعتز »

---

(١) البديع : ٥٦ (٢) السابق : ٥٨ ، ٥٩

فى شىء ، فقد ترك الباب مفتوحا لمن جاء بعده ، فقال : فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا فله اختياره(١) .

ونسير مع « ابن المعتز » فى محاسن الكلام والشعر ، فنجده قد ذكر منها ثلاثة عشر لونا .

١ — الالتفات :

وهو عند « ابن المعتز » على نوعين(٢) :

الأول : انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما شابه ذلك .

والثانى : الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر .

فمن الأول قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » .

ومن الثانى قول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام
أتنسى يوم تصقل عارضيها بعود بسامة سقى البشام

ونلحظ أن النوع الأول هو الالتفات المعروف عند المتأخرين ، والآية التى مثل بها « ابن المعتز » فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة .

أما النوع الثانى فهو نوع من الاعتراض ، وقد حكاه الأصمعى على أنه التفات ، ومثل بقول جرير السابق(٣) .

---

(١) السابق : ٥٨
(٢) السابق : ٤٨ ، ٥٩
(٣) ينظر العمدة : ٣/٤٤

٢ — الاعتراض :

وتحدث عنه « ابن المعتز » فقال: ومن محاسن الكلام والشعر، اعتراض كلام فى كلام لم يتمم معناه، ثم يعود إليه فيتممه فى بيت واحد (١).

ومن أمثلته قول كثير :

لو أن الباخلين ـ وأنت منهم ـ   رأوك تعلموا منك المطالا

والاعتراض فى قوله « وأنت منهم » .

٣ — الرجوع :

وقد عرفه بقوله : هو أن يقول شيئا ويرجع عنه، كقول بشار (٢):

نبئت فاضح أمه يغتابنى   عند الأمير وهل عليه أمير

والرجوع هنا فى قوله : وهل عليه أمير .

٤ — حسن الخروج:

والمقصود به عند « ابن المعتز » حسن الخروج من معنى إلى معنى(٣)، ومن أمثلته قول السموءل :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة   إذا ما رأته عامر وسلول

---

(١) البديع : ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) السابق : ٦٠ .

(٣) السابق : ٦٠ ، ٦١ .

وحسن الخروج فى البيت يمثله الشطر الثانى، وقد بحثه أبو هلال تحت اسم الاستطراد وقال فى تعريفه : أن يأخذ المتكلم فى معنى فبينا يمر فيه يأخذ فى معنى آخر ، وقد جعل الأول سببا إليه (١) .

٥ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

ولم يعرفه « ابن المعتز » وإنما مثل له بقول النابغة الذبيانى (٢) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

فالاستثناء الواقع بعد الجملة الأولى فى كل من البيتين يوهم أن الشاعر مقبل على انتقاص الممدوح فى ناحية ، ولكنه يأتى بعده بصفة مدح على عكس المتوقع ، فيتأكد المدح الأول بذلك .

٦ — تجاهل العارف :

ومن أمثلته عند « ابن المعتز » قول زهير (٣) :

وماأدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

فقد أخرج الشاعر ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ، ليزداد كلامه تأكيدا .

---

(١) الصناعتين : ٣١٦ .

(٢) البديع : ٦٢ .

(٣) السابق : ٦٢ .

٧ — الهزل الذى يراد به الجد :

ومن أمثلته عنده قول أبى العتاهية (١) :

أرقيك أرقيك بسم الله أرقيكا   من بخل نفس لعل الله يشفيكا
ما سلم نفسك إلا من يتاركها   وما عدوك إلا من يرجيكا

٨ — حسن التضمين :

ومن أمثلته عنده قول الأخيطل (٢) :

ولقد سما للخرمى فلم يقل   بعد الوغى : لكن تضايق مقدمى

فالشاعر فى هذا البيت ضمنه بعضا من بيت عنترة العبس وهو قوله :

إذ يتقون بى الأسنة لم أحم   عنها ولو أنى تضايق مقدمى

٩ — التعريض والكناية :

ومن أمثلته ، قال على رضى الله عنه لعقيل ومعه كبش له : أحد الثلاثة أحمق ، فقال عقيل : أما أنا وكبشى فعاقلان (٣) .

ومنها قول بشار :

وإذا ما التقى ابن أعيا وبكر   زاد فى ذا شبر وفى ذاك شبر

وعلق عليه فقال : أراد أنهما يتبادلان (٤) .

---

(١) السابق : ٦٣ .   (٢) السابق : ٦٤ .
(٣) السابق : ٦٤ .   (٤) السابق : ٦٧ .

ونلحظ أنه جمع التعريض والكناية فى باب واحد ولم يفرق بينهما ، وقد سار على منهجه أبو هلال (١) .

١٠ — الإفراط فى الصفة :

وهو يقصد به المبالغة ، ومثل لهذا الباب بأمثلة منها قول أبى نواس :

ملك أغر إذا احتبى بنجاده غمر الجماجم والسماط قيام

وأشار إلى أن بعض الشعراء يسرف فى المبالغة حتى يخرج عن المقبول ، فقال : ثم أسرف الخثعمى حتى خرج عن حد الإنسان ، فقال :

يدلى يديه إلى القليب فيستقى فى سرجه بدل الرشاء المكرب (٢)

١١ — حسن التشبيه :

وقد مثل له بأمثلة كثيرة ، وقال فى أول حديثه عنه : نبدأ بإمام الشعراء ، قال امرؤ القيس :

ومسرودة السك موضونة تضاءل فى الطى كالمبرد
تفيض على المرء أردانها كفيض الأتى على الجدجد

وذكر نماذج أخرى من تشبيهاته ، ثم ذكر بعض تشبيهات النابغة وزهير وغيرهما من القدماء والمحدثين .

وكأنه يرى أن امرأ القيس رائد هذا الفن فى الشعر العربى القديم ، وقد أفاض « ابن المعتز » فى ذكر الأمثلة الجيدة من التشبيهات على خلاف ما عهد عنه فى الأبواب السابقة من محاسن الكلام .

---

(١) الصناعتين : ٣٩٠ . (٢) البديع : ٦٦ .

ولا يغيب عنا فى هذا الموضع أن نشير إلى أنه من الشعراء المشبهين، وأن تشبيهاته نالت حظا وافرا من استحسان النقاد، وإعجابهم، وقد ساق الإمام عبد القاهر كثيرا منها(١).

١٢ — إعنات الشاعر نفسه فى القوافى :

وهذا اللون عرف عند المتأخرين بلزوم ما لا يلزم، وقال ابن المعتز عنه: ومن إعنات الشاعر نفسه فى القوافى، وتكلفه من ذلك ما ليس له قول رافع بن هريم اليربوعى :

فإلا تحامونى تصبكم بعرة ... مفارقى أو تقبسوا من شراريا

اذا صار لونى كل لون وبدلت ... نضارة جهى مخضبا باصفراريا

فسرى كإعلانى وتلك سجيتى ... وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

فالشاعر قد ألزم نفسه فى قافية البيت بما لم يشترطه علماء العروض، وهذا يزيد من الوقع الموسيقى للقصيدة.

١٣ — حسن الابتداءات :

ومن أمثلته قول النابغة(٢) :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وبهذا اللون من محاسن الكلام ينتهى كتاب « البديع »، وقد رأينا من الجولة التى أمضيناها فى رياضه أنه قد حوى ثمانية عشر لونا من ألوان البديع، وإن كان « ابن المعتز » قد أطلق لفظ « البديع » على الألوان الخمسة الأولى، وأطلق على بقية الألوان محاسن الكلام والشعر :

---

(١) ينظر أسرار البلاغة : ١ / ١٩٨ وما بعدها

(٢) البديع : ٧٥

وهناك ألوان أخرى وردت فى كتب السابقين على «ابن المعتز»، كالسجع، والازدواج، وأسلوب الحكيم، وغيرها ولم يعرض لها «ابن المعتز» فى كتابه وهذا لا ينقص من قدر كتابه، فقد كان — كما قال — يهدف إلى تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنون البديع، وفيما ذكره من ألوان دليل على ما قصده وهدف إليه.

كما أنه لم يدع أنه أحصى كل فنون البديع ومحاسن الكلام، بل ترك الباب مفتوحا أمام الباحثين لإضافة ما يرون من ألوان.

وبعد أن انتهينا من استعراض كتاب «البديع» وتحليل موضوعاته علينا أن ننتقل إلى القسم الثانى من هذا البحث.

ثانيا : بين التأثر والتأثير

مصطلح «البديع» ليس جديدا فى كتاب «ابن المعتز» ولكنه عرف قبل ذلك ، وأطلق على الألوان المستطرفة ، والفنون الساحرة فى الأسلوب، من استعارة ، وتشبيه ، وتجنيس ، ومطابقة .

ويذكر «أبو الفرج الأصفهانى» أن مسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ه كان أول من أطلق هذا الاسم ، فيقول : وهو — يعنى مسلما — فيما زعموا، أول من قال الشعر المعروف بالبديع، هو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائى ، فإنه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه(١) .

ويرى الجاحظ أن الرواة هم أول من أطلقوه ، فيقول معلقا على بيت الأشهب بن رميلة :

هم ساعد الدهر الذى يتقى به
وما خير كف لاتنوء بساعد

قوله : هم ساعد الدهر ، إنما هو مثل ، وهو الذى تسميه الرواة البديع(٢) .

كما يرى الجاحظ أن الشعراء المحدثين قد احتذى بعضهم ببعض فيه ، فيقول :

وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن من المولدين

---

(١) الأغانى : ١٩ / ٣١
(٢) البيان والتبيين : ٤ / ٥٥

أصوب بديعا من بشار وابن هرمة[1] ، ويقول : والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع[2] .

ومن دفاعه عن العرب ولغتهم جعل البديع من خواصهم فقال : والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان[3] .

« وابن المعتز » نفسه يعترف بأن هذه التسمية ليست من ابتكاره ، وإنما هى من وضع المحدثين ، وقد كانت هذه الفنون موجودة فى الشعر العربى القديم ، ولكنها لم تعرف بهذا الاسم[4] .

ونرى مما سبق أن « ابن المعتز » لم يؤلف كتابه من فراغ ، ولكنه كان مسبوقا بإشارات إلى « البديع » وبعض ألوانه ، وهو من غير شك قد طالع ما كتبه سابقوه ، وتأثر بهم ، كما أنه قد ترك أثرا كبيرا فيمن جاء بعده ، وهذا ما سنبينه فيما يلى :

١ — تأثره بالسابقين :

من أول الذين تأثر بهم « ابن المعتز » متقدموا اللغويين ، كالخليل بن أحمد ، والأصمعى ، وقد استشهد أكثر من مرة بكلا منهما[5] .

كما تأثر كثيرا بالجاحظ ، الذى نثر فى كتابيه « البيان والتبيين » ، والحيوان» كثيرا من مسائل البلاغة .

---

(١) السابق : ١ / ٥٥
(٢) السابق : ٤ / ٥٦
(٣) السابق : ٤ / ٥٥
(٤) ينظر البديع : ١ ، ٥٨
(٥) ينظر البديع : ١٠ ، ٢٥ ، ٣٦

فلقد سبق الجاحظ إلى الحديث عن الاستعارة ، والتعريض والكناية ، والتشبيه ، وجـــودة الابتداء وهى من الأبواب التى تحدث عنها «ابن المعتز» .

وصرح «ابن المعتز» فى كتابه أنه تبع الجاحظ فى «المذهب الكلامى» وهو الباب الخامس من أبواب البديع الذى ذكرها «ابن المعتز»(١) .

ومما لا شك فيه أنه قد استفاد من كتابات «ابن قتيبة» و«المبرد»، وهما من مشاهير العلماء فى عصره .

وقد عرض «ابن قتيبة» لبعض الألوان التى ذكرها «ابن المعتز» كالاستعارة ، والكناية ، والمبالغة ، كما عرض المبرد لبعض الألوان ، وخاصة التشبيه الذى أفاض فى الحديث عنه .

بين ابن المعتز وثعلب :

كان أحمد بن يحى «ثعلب» المتوفى سنة ٢٩١ هـ أستاذ «ابن المعتز» الأول ، وكان «ابن المعتز» يعتز بتلمذته على «ثعلب» ، وظل يكن له الود ويعترف له بالفضل ، ويراسله حتى فى أشد ساعات الحرج وهو بين جدران السجون .

وتروى لنا كتب الأدب الأرجوزة التى كتبها «ابن المعتز» من سجنه إلى أستاذه «ثعلب» ، يبثه شوقه إليه ، ويفصح له عن مدى تعلقه به ، وهو يقول :

ما وجد صاد بالحبال موثق

---

(١) البديع : ٥٣

بماء مزن بارد مصفق

بالريح لم يكدر ولم يرنق

جادت به أخلاق دجن مطبق

بصخرة إن تر شمساً تبرق

ماد عليها كالزجاج الأزرق

صريح غيث خالص لم يمذق

إلا كوجدى بك لكن أتقى

يا فاتحا لكل باب مغلق

وصيرفيا ناقداً للمنطق

إن قال هذا بهرج لم ينفق

إنا على البعاد والتفرق

لنلتقى بالذكر إن لم نلتق(١)

وقد ألف «ثعلب» كتابه «قواعد الشعر» وبحث فيه عدداً من المسائل البلاغية، والنقدية، منها: التشبيه، والكناية، وسماها «لطافة المعنى»(٢)، والاستعارة(٣)، وحسن الخروج(٤)، والمطابقة وسماها «مجاورة الأضداد»(٥)، والجناس، وسماه المطابق(٦)، وغير ذلك.

ولم يشر «ثعلب» إلى تاريخ تأليف كتابه هذا، ومن هنا اختلف العلماء حول تأثر «ابن المعتز» بكتاب «قواعد الشعر» لثعلب.

---

(١) زهر الآداب: ٢١٧/١
(٢) قواعد الشعر: ٤٢
(٣) السابق: ٤٧
(٤) السابق: ٥٠
(٥) السابق: ٥٣
(٦) السابق: ٥٦

فأستاذنا الدكتور أحمد موسى يرى : أن « ابن المعتز » سابق فى تأليف كتابه ، حيث ألفه سنة : ٢٧٤ هـ ، وعلى هذا فلم يتأثر « بقواعد الشعر »(١) .

وأستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى يرى عكس ذلك فيقول : وابن المعتز من غير شك ، مدين لأستاذه « ثعلب » فى « البديع » فنحن نكاد نجزم بأن « ثعلبا » ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف « ابن المعتز » كتابه ، لأن « ثعلبا » عالم معمر ، ولو كان « ابن المعتز » سبقه بالتأليف ، لاستفاد من كتابه ، وأكثر من الحديث عن ألوان البديع (٢) .

ودليل أستاذنا الدكتور خفاجى يسهل الرد عليه ، إذ لا يتعين على اللاحق أن يستفيد من السابق ، كما أنه ليس شرطا على اللاحق أن يزيد على السابق .

ولو كان الأمر كما قال أستاذنا ، فيمكن أن نقول : إن « ثعلبا » تكلم فى كتابه عن موضوعات لم يتحدث عنها « ابن المعتز » كفنون الشعر وقواعده ، ولو ألف « ابن المعتز » كتابه بعد كتاب « ثعلب » لاستفاد منه ، وذكر هذه الفنون وغيرها .

لقد صرح « ابن المعتز » فى كتابه بأنه لم يجمع فنون البديع أحد قبله ، فلماذا نتهمه فى هذا القول ، ولم يثبت لدينا عكسه .

وإذا كان « ثعلب » أول مؤلف فى هذا الموضوع فكيف سكت على دعوى تلميذه ؟ ولم يكذبه فيها ؟

---

(١) ينظر الصبغ البديعى : ١٣٨ .

(٢) ابن المعتز وتراثه : ٦٠٦ .

ويرد الدكتور حفنى شرف على هذا بدليل غير مقطوع بصحته ، فيقول : لعل « ثعلبا » لم ير الكتاب ، أو رآه ولكنه فهم أنه يقصد أنه أول من ألف تحت هذا الاسم لا أول مخترع ، وربما ظهر المؤلفان فى زمن واحد ، فتكون الأسبقية للأستاذ (١) .

أما قول الدكتور حفنى شرف : لعله لم يره ، فمشكوك فيه ، إذ يستبعد أن يخفى « ابن المعتز » عن أستاذه مثل هذا العمل ، وقوة الصلة بينهما ، ودوام المراسلة والاتصال حتى فى أحلك الظروف تؤيد ما قلناه .

« وثعلب » عاش بعد تأليف « البديع » سبع عشرة سنة ، ألم يتيسر له الاطلاع على الكتاب فى هذه المدة الطويلة ؟ !

وهذه المدة التى عاشها « ثعلب » بعد ظهور « البديع » أليست كافية لأن يؤلف فيها « قواعد الشعر » وما هو أكبر منه ؟ .

والذى نريد أن نصل إليه : أنه لا ينبغى المغالاة فى إثبات تأثر « ابن المعتز » « بثعلب » حتى نسلبه فضله الكبير ، وأثره البعيد فى بناء صرح البيان العربى ، فى الوقت الذى لم نعثر فيه على دليل قاطع بذلك .

والذى لا شك فيه أن بين الكتابين فروقا جوهرية يجب أن نشير إليها :

(ا) أن كتاب « قواعد الشعر » « لثعلب » تغلب عليه الصبغة النقدية ، حيث ألف للحديث عن الشعر وفنونه من مدح وهجاء ، ورثاء واعتذار ، وتشبيه وتشبيب .

وكتاب « البديع » « لابن المعتز » تغلب عليه الصبغة البلاغية ، فعماده الحديث عن فنون البديع ، ومحسنات الكلام .

---

(١) ابن أبى الأصبع : ٥٦ .

(ب) يختلف كل من المؤلفين فى بعض المصطلحات ، فثعلب يقول : « مجاورة الأضداد » وقد سماها « ابن المعتز » « المطابقة » ، وثعلب يقول : « لطافة المعنى » ، وقد سماها ابن المعتز « الكناية والتعريض » ، وثعلب يريد بالمطابق المجانس ، وقد فرق « ابن المعتز » بين اللونين .

(ح) كتاب « ابن المعتز » فياض بالشواهد الأدبية ، والأمثلة الجيدة من القرآن الكريم والحديث الشريف والنثر والشعر فى القديم والحديث ، وكتاب « ثعلب » فقير فى هذه الناحية .

وعلى كل فالكتابان — مهما اختلف الباحثون حولهما — لهما قيمة كبيرة فى تاريخ النقـد والبيان ، وهما من أول الخطوات الرائدة فى هذا الدرب .

كتاب البديع والثقافة اليونانية :

الذى يطالع كتاب « البديع » يحكم عليه بأنه عربى فى شكله ومضمونه ، فقـد جمع فيه مؤلفه ألوانا من البديع ومحاسن الكلام ، كانت معروفة عند اللغويين والأدباء المتقدمين كالخليل بن أحمد ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، وغيرهم ، ولكنها كانت مبثوثة فى ثنايا الكتب لا يجمعها مؤلف واحد .

وسار فى كتابه على منهج أدبى ذوقى قوامه ضرب الشواهد ، وجمع الأمثلة ، وهو منهج يسير لا أثر فيه للفكر المنطقى ، ولا للثقافة اليونانية .

ولكن الدكتور طه حسين أثار شبهة حول كتاب « البديع » يرى فيها أن هذا الكتاب لم يسلم من أثر الغارة « الهلينية » ، ويبدو فيه أثر الثقافة اليونانيـة .

وقد ذكر ذلك فى مقدمته لكتاب « نقد النثر » فقال : ... وجد منذ

منتصف القرن الثالث بيانان : أحدهما عربي محافظ ، لا يقرب الفلسفة اليونانية إلا في كثير من التحفظ والاحتراس ، والآخر يوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو .

على أن من الخطأ البين أن نعتقد أن البيان الذي نعتناه بالمحافظة قد سلم من أثر الغارة الهلينية ، فقد يكون عجيبا على أقل تقدير أن يظهر أول كتاب في البيان العلمي في ذات الوقت الذي ظهرت فيه ترجمة « كتاب الخطابة » لأرسطو ، ومع ذلك فهذا الذي كان .

لقد ترجم حنين بن إسحاق « كتاب الخطابة » ، ومن المحتمل أن تكون هذه الترجمة قد ظهرت بعد وفاة الجاحظ ، أي في النصف الثاني من القرن الثالث ، لأن حنين بن إسحاق توفي سنة ٢٩٨ هـ ، في هذه الفترة عينها وضع أمير المؤمنين الشاعر التعس عبدالله بن المعتز كتاب « البديع » .

لم أطلع على كتاب « البديع » هذا ولكن الذين نقلوا عنه أكثروا من ذكره كثرة تمكننا من تصوره ، فهو عبارة عن تعداد لأنواع البديع مع الاستشهاد لكل نوع منها بشواهد من كلام القدماء والمعاصرين لابن المعتز ، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض ، وهم يقولون إن ابن المعتز أحصى في كتابه ثمانية عشر نوعا من أنواع البديع ، من يدرسها في كتاب معاصره قدامة بن جعفر وفي كتب الذين جاءوا بعده يلحظ فيها لا محالة أثرا بينا للفصل الثالث من كتاب « الخطابة » وبعبارة أدق ، للقسم الأول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في «العبارة» (١) .

لقد أثار الدكتور طه حسين هذه المقولة من غير أن يطلع على كتاب « البديع » وساندها كثيرون ممن تتلمذوا عليه ، واعتنقوا آراءه ، ومنهم

---

(١) مقدمة نقد النثر : ١١ ، ١٢ .

الدكتور محمد مندور الذى اطلع على كتاب «البديع» وأجهد نفسه فى إثبات تأثر ابن المعتز بأرسطو ، ففى كتابه «النقد المنهجى» يقول : من أين أتى «ابن المعتز» بتلك الاصطلاحات ؟ .

يقول ابن المعتز : إنه لم يسبقه إلى ذلك أحد ، وأنه قد ألف كتابه سنة ٢٧٤هـ ولكننا نعلم أن حنين بن إسحاق ، قد ترجم كتاب «الخطابة» لأرسطو ، مما يدل على أن هذا الكتاب قد عرفه العرب ، وليس بغريب أن يكونوا قد أحاطوا بموضوعه قبل ترجمة حنين . ومع ذلك نستطيع أن نرجع إلى نص أرسطو نفسه ، فنجده فى الجزء الثالث من كتابه يتحدث عن «العبارة» ، وفيه يذكر الاستعارة ، والطباق ، والجناس ، ورد الأعجاز على ما تقدمها ، وهذه أربعة من الخمسة التى ميز بها «ابن المعتز» مذهب المحدثين ، وأما الخامس وهو المذهب الكلامى ، فذكر ابن المعتز نفسه أنه قد أخذه عن الجاحظ وهو فى الواقع ليس من خصائص الصياغة الجديدة ، بل هو منهج عقلى(١) . . .

ويتحدث «مندور» عن الاستعارة ويقول إن تعريف ابن المعتز لها يكاد يكون تعريف أرسطو ، ويتحدث عن الطباق ويقول إن لفظة طباق ، ما هى إلا ترجمة للفظة اليونانية ، وابن المعتز — على الأرجح — كان يعرف تحليل أرسطو لهذا الوجه من البديع(٢) .

ثم يقول : وابن المعتز لم يقتصر على التعريفات والتقاسيم ، بل عداها إلى نقد المعيب من كل وجه من أوجه البديع التى ذكرها ، وهو فى هذا أيضا يشبه أرسطو الذى نجده فى نفس الفصل الثالث من «خطابته» ينتقد ما فى بعض الأمثلة من عيوب(٣) .

---

(١) النقد المنهجى : ٦١، ٦٢

(٢) السابق : ٦٣

(٣) السابق : ٦٥

الرد على هذه الشبهة :

من قراءتنا لما كتبه الدكتور طه حسين فى مقدمة « نقد النثر » نرى أنه يستند فى دعواه إلى دليلين :

الأول : ظهور ترجمة « خطابه » أرسطو فى عصر « ابن المعتز » على يد حنين بن إسحاق .

والثانى : موضوعات الكتاب ومحتواه .

وإذا نظرنا فى الدليل الأول وجدناه لا ينهض للحجة لأمور :

١ — أن ترجمة « حنين » « للخطابة » لم يعرف تاريخها الحقيقى ، وهل كانت قبل تأليف « البديع » أو بعده .

٢ — أن وفاة حنين سنة ٢٩٨ هـ أو ٢٩٦ هـ لا تدل على أنه ترجم الخطابة قبل سنة ٢٧٤ هـ تاريخ تأليف « البديع » . فمن الجائز أن تكون الترجمة بعد هذا التاريخ ، والمدة الباقية فى حياة « حنين » كافية لأكثر من هذا .

٣ — على فرض وقوع الترجمة قبل تأليف « البديع » هل كان فرضا على « ابن المعتز » أن يطلع على هذه الترجمة ؟ ؟ أليس من الجائز أن يكون « ابن المعتز » لم ير هذه الترجمة ؟ كما لم ير الدكتور طه حسين كتاب « البديع » مع أنه ظهر بتحقيق المستشرق الروسى كراتشكوفسكى سنة ١٩٣٥ .

ومن هذا نرى أن دليل الترجمة لا ينهض للاحتجاج به .

وإذا تأملنا الدليل الثانى وجدناه ساقطا لأمور :

١ — أن الدكتور طه حسين حكم على كتاب « البديع » قبل أن يطلع عليه ولا يصح الحكم على شىء إلا بعد رؤيته ودراسته بحيث يصبح الحاكم مؤهلا للحكم .

٢ — أن تصوره لكتاب «البديع» من خلال «نقد الشعر» لقدامة، وغيره تصور غير دقيق، حيث ذكر أن الكتاب عبارة عن تعداد لأنواع البديع، مع الاستشهاد لكل نوع منها ...، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض، والذى يطالع «البديع» لا يجد فيه هذه الموازنات التى تصورها القاضى.

٣ — أن حكمه على «البديع» من خلال «نقد قدامة» وغيره، حكم خاطىء لأن منهج «قدامة» يختلف تمام الاختلاف عن منهج «ابن المعتز»، فمنهج قدامة عقلى محض، ومنهج «ابن المعتز» أدبى ذوقى.

وقد فرق الدكتور مندور بين المنهجين فقال: ابن المعتز» غير قدامة .. ابن المعتز يبدأ تفكيره من الوقائع والنظر فيها، وهو عربى صميم، سليم الذوق، يعرف الشعر العربى ويتذوقه .... وأما قدامة فعقليته شكلية صرفه، وهو لا يبدأ بالنظر فى الشعر، بل يكون أولا هيكلا لدراسته، ويحدد تقاسيمه، أو إن شئت فقل: إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب، ثم يأخذ فى ملء أدراجها»(١).

وبناء على هذا يتضح أن مقولة الدكتور طه حسين لا تستند إلى أدلة صحيحة، وهى شبهة لا أساس لها ولا دليل عليها.

وحينما ننظر فى كلام الدكتور مندور نرى أنه يستدل بنفس الدليلين السابقين دليل الترجمة ودليل الموضوعات.

ولكنه يختلف عن الدكتور طه حسين فى الدليل الثانى نتيجة لقراءته كتاب «البديع»، فقد أجهد نفسه فى المقارنة بين التعريفات والموضوعات ليثبت دعواه، وكلامه منقوض، بأمور:

---

(١) النقد المنهجى: ٦٨

١ — أن ألوان البديع التى تحدث عنها « ابن المعتز » موجودة فى كلام العرب وعرفها اللغويون والأدباء من قبله ، وقد وردت على لسان الخليل والأصمعى وأبى عبيدة وغيرهم ، فهل تأثر هؤلاء بخطابة « أرسطو » ؟

٢ — أن ابن المعتز لم يدع أنه لم يسبقه إلى معرفة هذه الألوان أحد ، ولكنه ادعى أنه لم يسبق إلى جمع فنون البديع (١) . وهذا يدل على أنها كانت معروفة ولكنها غير مجموعة ولا منظمة فى كتاب .

٣ — أن المنهج الذى سار عليه « ابن المعتز » فى كتابه ، منهج بسيط لا أثر للمنطق فيه ، ولا يخضع لترتيب عقلى منقول عن اليونان .

٤ — إن القول بأن ابن المعتز نقل هذه الألوان عن « خطابة » أرسطو فيه تجريد لعلماء العربية وأدبائها من معرفتهم بخصائص لغتهم ، ومواطن الحسن والقبيح فيها .

ولقد فطن الشعراء فى الجاهلية إلى معرفة جيد الشعر من رديئه ، وحسنه من قبيحه ... أيستبعد على « ابن المعتز » وهو شاعر وأديب ، أن يهتدى إلى معرفة المعيب من الشعر فى لغته ، حتى يقلد فى ذلك « أرسطو » ؟ ؟

يقول الأستاذ على الجندى مؤكدا وجود الجناس فى العربية :

الجناس من البلاغات الفطرية التى تسرى على الألسنة بلا تعمل ولا تكلف ، وشواهده غزيرة فى الأدب القديم والقرآن الكريم . . . . ولم نعثر على شاهد واحد من الجناس اليونانى الذى تحدثوا عنه ، وأول من تحدث عنه الأصمعى ، ثم ابن المعتز ولا صلة لهما باليونانية (٢) .

---

(١) البديع : ٥٨

(٢) فن الجناس : ١٤ — ١٧

ولقد نفى الدكتور إبراهيم سلامة تأثر «ابن المعتز» بخطابة أرسطو فقال(١) : وعلى الرغم من أن كتاب «الخطابة» كان معروفا فى نهاية القرن الثالث الذى عاش فيه «ابن المعتز» فإننا لم نر على كتاب «البديع» أية مسحة من الترجمة أو أية لوثة من العقل الهليني . فالألوان التى ذكرها كلها مأخوذة مما نقل عن الشعراء، والأدباء، وهو فوق ذلك شاعر رفيق الحاسة، واسع المحفوظ، يستطيع أن يورد على النوع البديعى الواحد كثيرا من الشواهد والأمثلة .

ولقد تحدث المستشرق الروسى «كراتشكوفسكى» بهذه الحقيقة، وبين أن التأثيرات اليونانية فى البديع العربى لا يمكن الجزم بها بل من الصعب إثباتها فيقول : وما من شك أنه على صعيد الخلق الأدبى عامة، لم يكن لأرسطو أى تأثير على الجاحظ أو أى كاتب عربى آخر فى القرن التاسع(٢)...

ويقول : فأسلوب ابن المعتز نفسه، وسرعة الخاطر، والبداهة فى أعماله، تتميز بشكل واضح عما نجده فى أعمال فلاسفة اليونان(٣) .

ويقول : من الصعب إيجاد آثار للنفوذ اليونانى فى نشوء البديع العربى.» فقد ولد هذا الأخير فى بيئة تختلف عن البيئة التى نشأ فيها البديع اليونانى كل الاختلاف(٤) .

وأكد أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى أصالة كتاب «البديع»

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٨٢ وما بعدها
(٢) علم البديع والبلاغة عند العرب : ٥٩
(٣) السابق : ٥٨
(٤) السابق : ٢٣

وبين أنه من أوائل مؤلفات ابن المعتز ، وقد ألفه فى مرحلة الشباب قبل أن يلم بثقافة أخرى سوى الثقافه العربية(١) .

وهناك دليل آخر يمكن الاستدلال به فى دحض شبهة تأثر «ابن المعتز» «بخطابة» أرسطو ، وهو أن ابن المعتز قد أنكر على معاصريه تفاخرهم بالبديع ، وجمع لهم من الشعر القديم ما أثبت لهم أنهم لم يأتوا بجديد فى مجال القول البديع ، وأظهر فخره بأنه أول جامع لفنون البديع ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد .

وكان من الطبعى لو أنه تأثر بالثقافة اليونانية أن يهاجموه ، ويقولوا له وأنت أيضا لم تأت بجديد ، وإنما نقلت عن اليونان تراثهم ...

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يصل إلينا .

ومن هنا نرى أن الأدلة الكثيرة التى قدمناها تظهر بجلاء تام أن كتاب «البديع» وليد ثقافة عربية خالصة جاءت من رافدين نهل منهما «ابن المعتز» :

الأول : تربيته فى أحضان اللغويين والأدباء الذين كانوا عماد النهضة العلمية فى هذا الوقت .

والثانى : صفاء أفكاره ، وجودة قريحته ، وتمتعه بالخيال والشاعرية ، وقدرته على الابتكار والتجديد .

وننهى كلامنا فى تفنيد هذه الشبهة بكلام الدكتور شوقى ضيف فى

---

(١) ابن المعتز وتراثه : ٥٩٨

رده على ما أثاره الدكتور طه حسين : « إن كل ما في كتاب « البديع » عربي خالص، وقد ألفه « ابن المعتز » ردا على من يلتمسون قواعد البلاغة في المصنفات اليونانية ، والخارجين على قواعد العربية في الشعر »(١) .

٢ — أثر «ابن المعتز» في الدراسات البيانية :

حينما سبق « ابن المعتز » إلى وضع كتاب « البديع » كان قد غرس النواة التي نبتت منها رياض هذا العلم ، وآتت ثمرا جنيا في ميادين الأدب والبيان والنقد .

ولقد أثر كتاب « البديع » في الدراسات البيانية التي ظهرت من بعده ، وترك « ابن المعتز » بكتابه بصمات واضحة المعلم في تاريخ البيان العربي .

وفي اللمحات الوجيزة التالية نماذج من تأثر العلماء بكتاب «البديع» ، وهي من غير شك دليل قوي على أثره الكبير في بناء صرح الدراسات البيانية .

قدامة بن جعفر :

ألف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ كتابه « نقد الشعر » ولم يصرح بالأخذ عن « ابن المعتز » ، ولكن المطالع لكتابه يلحظ أنه عرف كتاب « البديع » واستخدمه واستفاد منه في كتابه(٢) .

ويبدو أثر كتاب « البديع » في « نقد الشعر » جليا واضحا ، في مواضع

---

(١) البلاغة تطور تاريخ : ٧٠

(٢) علم البديع والبلاغة عند العرب : ٩٦

متفرقة ، فقد عرض « قدامة » للالتفات(١) ، والتشبيه(٢) ، والإستعارة، وذكرها فى المعاظلة(٣) وأمثلتها مما ذكره « ابن المعتز » .

كما بحث « الاعتراض » تحت اسم « التتميم »(٤) والإفراط فى الصفة تحت اسم « المبالغة »(٥) والطباق تحت اسم « التكافؤ »(٦) ، وتحدث عن المطابق والمجانس(٧) ، وهما يدخلان فى باب التجنيس عند ابن المعتز .

ويفترق قدامة عن ابن المعتز باتباعه لمنهج عقلى صرف ، وانفراده بألوان أخرى كثيرة لم يذكرها صاحب «البديع» .

الآمدى :

وجعل الحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ كتاب ابن المعتز من مصادره ، ونقل عنه فى مواضع كثيرة من « موازنته » ،

فاستشهد بما قاله « ابن المعتز » فى مقدمة كتابه عن سبق المتقدمين إلى فنون البديع ، وإكثار المحدثين منها ، وإسراف أبى تمام فى سلوك هذا المذهب حتى أساء فى بعض شعره(٨) .

وأشاد بفضل « ابن المعتز » وعلمه بالشعر . وحسن اختياراته

---

(١) ينظر نقد الشعر : ١٥٠

(٢) السابق : ١٢٤

(٣) السابق : ١٧٥

(٤) (٥) (٦) السابق : ١٤٤ — ١٤٧

(٧) السابق : ١٦٢

(٨) ينظر الموازنة : ١٨/١

فى كتابه(١) ، واستند على أحكام « ابن المعتز » فى حكمه بالقبح على بعض تجنيسات أبى تمام(٢) .

وأعجب الآمدى بمصطلح « المطابقة » عند « ابن المعتز » ، وعاب تسمية « قدامة » لهذا اللون بالتكافؤ(٣) .

ومن هذا نرى مدى اعتداده ببديع ابن المعتز وتأثره به .

أبو هلال :

وتأثر الحسن بن عبد الله العسكرى المتوفى ٣٩٥ هـ بابن المعتز إلى حد بعيد ، ففى كتاب «الصناعتين» جعل أبو هلال الباب التاسع لفنون البديع ، وذكر فيه الألوان التى ذكرها ابن المعتز وزاد عليها كثيراً مما ذكره قدامة وغيره .

والأبواب التى أخذها أبو هلال من بديع ابن المعتز تكاد تكون صورة من أصلها ، فى التعريف ، والأقسام ، والأمثلة ، وذكر المعيب(٤) .

وباب التشبيه عند أبى هلال فيه جل الأمثلة التى ذكرها ابن المعتز من التشبيهات الجيدة ، والتشبيهات المعيبة(٥) .

---

(١) السابق : ٢٣/١

(٢) السابق : ٢٨٦/١

(٣) السابق : ٢٩٢/١

(٤) ينظر الصناعتين فى فصول : الإستعارة والمطابقة ، والتجنيس ، ورد الأعجاز ، وغير ذلك .

(٥) ينظر الصناعتين : ١٨٠ — ١٩٨

ولا تختلف طريقة أبي هلال فى تناول أبواب البديع عن طريقة ابن المعتز . فهو يعرف اللون البديعى ، ويقسمه ، ويذكر له أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر والنثر فى القديم والحديث.

وعلى الجملة فأثر « ابن المعتز » فى « أبى هلال » واضح تمام الوضوح ، ومن السهل إدراكه بمقارنة الأبواب المشتركة بينهما .

الباقلانى :

وتأثر أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ببديع « ابن المعتز » حيث ذكر فى كتابه « إعجاز القرآن » كثيراً من الأمثلة التى أوردها ابن المعتز ، ونقل صراحة فى حديثه عن المطابقة(١) والتجنيس(٢) .

ابن رشيق :

ومن المتأثرين إلى حد كبير بابن المعتز أبو على الحسن بن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، ويظهر ذلك جلياً حينما عرض فى كتابه « العمدة » للألوان التى ذكرها « ابن المعتز » فقد نقل عن ابن المعتز كثيراً من تعاريفه للألوان ، وشواهده لها(٣) .

وفى حديثه عن التصدير يذكر تقسيم ابن المعتز لهذا الباب ، ويذكر أمثلته(٤) .

---

(١) ينظر الصناعتين : ١٨٠ — ١٩٨

(٢) ينظر إعجاز القرآن على هامش الإتقان : ١/١١٧ ، ١/١٢٠

(٣) ينظر العمدة : ١/٢٣٢

(٤) ينظر العمدة : ٢/٣

وفى تناوله للالتفات يدخل فيـــه الاعتراض ، ويقول ، وقد جعل « ابن المعتز » الاعتراض بابا على حدته بعد باب الالتفات(١) .

وفى باب الاستثناء يشير إلى أن ابن المعتز سمـــاه « توكيد المدح بما يشبه الذم »(٢) .

ويسوق كلام « ابن المعتز » فى المذهب الكلامى ... ثم يقول : وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله المعتز ... واضطرنى إلى ذلك قلة الشواهد فيه(٣) .

ابن منقذ :

وتأثر أسامة بن منقذ المولود سنة ٤٤٨ هـ فى كتابه « البديع فى نقد الشعر » بابن المعتز وصرح بذلك فى مقدمة كتابه فقال : هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق فى كتب العلمـاء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم فضيلة الابتداع ، ولى فضيلة الاتباع ، والذى وقفت عليه ، كتاب « البديع » لابن المعتز ، وكتاب « الحالى » للحاتمى(٤) .

وبالمقـارنة بين الأبواب المتشـابهه فى الكتابين نرى شـــواهد « ابن المعتز » تطل زاهية فى كتاب « ابن منقذ » ، مما يدل على الاستفادة والتـأثر .

---

(١) السابق : ٢/٤٥
(٢) السابق : ٢/٤٨
(٣) السابق ٢/٤٨
(٤) البديع فى نقد الشعر : ٨

ابن أبي الإصبع :

أما زكي الدين عبد العظيم بن الواحد المعروف بابن أبي الإصبع المصري، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ.

فقد تأثر في كتابيه « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » إلى درجة كبيرة ببديع ابن المعتز وقد جعله إمام البديع ، وصرح بأن كتابه من المصادر التي اعتمد عليها(١) .

وسمى الأبواب التي وردت في كتابي «ابن المعتز» و «قدامة الأبواب الأصول(٢) .

وبدأ كتابيه بذكر أبواب «ابن المعتز»، ولما فرغ منها أخذ في ذكر الأبواب التي أضافها « قدامة »(٣) .

هذا ، وقد ظل المتأخرون من البلاغيين ، ينهلون من معين «ابن المعتز» الفياض بالشواهد الأدبية ، فيسوقون أمثلته ، ويرددون شواهده في مؤلفاتهم .

ومن كل ماقدمناه نرى أن كتاب « البديع » أثر تأثيراً كبيراً في الدراسات البيانية ، وظل مصدراً هاماً للمؤلفين في علوم البلاغة(٤) ، ومن هنا كانت قيمة هذا الكتاب جليلة ، ومكانته لا ينكرها باحث .

---

(١) ينظر بديع القرآن : ٥

(٢) السابق : ١١٤

(٣) السابق : ٦٤

(٤) ينظر علم البديع والبلاغة عند العرب : ٣١

قيمة كتاب البديع :

بعد أن رأينا أثر كتاب « البديع » واطلعنا على تأثر البيانيين به ، فإننا نستطيع بيسر أن نعرف قيمته ، ومكانته فى تاريخ البيان العربى .

فهو أول مؤلف فى البيان العربى على هذا النحو المنظم ، درس فيه « ابن المعتز » عناصر الجمال فى الأسلوب العربى ، وجمع فيه محاسن الكلام التى ازدان بها كلام الفحول ، وترجع قيمة كتاب « البديع » إلى ناحيتين(١).

الناحية البلاغية ، وذلك أنه أول كتاب ألف فى البلاغة العربية على نحو منظم مفصل ، دون تشويش أو خروج عن موضوع التأليف .

والناحية النقدية : وذلك أنه أول كتاب تناول الأدب تناولا فنياً ، وشرح بعض عناصر الحسن فيه ، وبه انتقل النقد إلى طور جديد ، هو طور العناية بالصورة وقد كان الجهد كله موجهاً إلى نقد المعانى والإشادة بقوتها وفخامتها .

وقد كشف « ابن المعتز » بهذا الكتاب عن ميزات المذهب الجديد فى الأدب وهو مذهب البديع ، وحدد خصائصه(٢) ، ودعا أصحابه إلى التزام التوسط فيه والاعتدال فى استعماله اقتداء بالقدماء الذين كانت تجرى هذه الفنون على ألسنتهم من غير تعمل ، أو تكلف .

ويحاول بعض الباحثين أن يقلل من قيمة كتاب « البديع » بدعوى أن

---

(١) قدامة والنقد الأدبى : ٣٦

(٢) ينظر النقد المنهجى : ٦٠

الفنون التى تحدث عنها قد ذكرها العلماء السابقون ، ولم يكن لابن المعتز من فضل غير تخليص الأسماء والتعريفات تخليصاً جنى على تلك الفنون ودمغها بالشكلية، ووجه هم علماء البلاغة إلى ظاهر الدراسة الأدبية، فتركوا اللب، وأعجبوا بالجزئيات ، وأغرموا بالتزيد فى الأسماء(١) .

وهذا الكلام يشتمل على قضيتين :

الأولى : أن فضل «ابن المعتز» ليس إلا فى تخليص الأسماء والتعريفات .

والثانية : أنه بجمعه لهذه الفنون قد جنى على الدراسات البلاغية ووجهها إلى الشكلية والاهتمام بالجزئيات . . .

وهذا الكلام مردود عليه بأمور :

١ — أن «ابن المعتز» لم يقف عند الفنون التى ذكرها السابقون ولكنه أضاف فنونا جديدة لم يسبق إليها ومنها : رد الأعجاز على ماتقدمها ، والاعتراض ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وغيرها .

٢ — أنه لو لم يكن له إلا تخليص الأسماء والتعريفات كما زعموا لكفاه لأنه من المعلوم أن العلوم لا تتقدم ولا تنهض إلا بعد تحديد مصطلحاتها وتعريفاتها ، ولو ظلت المصطلحات غير محدودة لما تقدم البيان العربى .

٣ — أن جمع ابن المعتز لهذه الفنون لا يؤخذ منه اهتمامه بالشكل ، ولا يحمله وزر الاهتمام بالجزئيات ، والتزيد من الأسماء ؛ لأنه فى جمعه لهذه الفنون قد اهتم بالمضمون وأكبر دليل على ذلك تحدثه عن المعيب وإشارته إلى القبيح ، إذ أن العيب فى استعمال هذه الفنون يأتى من الاهتمام بالشكل دون المضمون .

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٢٢٤ ، ومفهوم الاستعارة : ٥٢

ومنهج «ابن المعتز» فى دراسة هذه الفنون منهج ذوقى يقوم على عرض الأمثلة ، وسوق الشواهد الكثيرة مما يساعد على تربية الملكات الأدبية ، وتنمية الحاسة النقدية ، وهذا من أهم أهداف دراسة علوم البلاغة .

وبعد : فإن الحقائق تنطق بأن لكتاب «البديع» قيمة كبيرة فى تاريخ البيان العربى ، بمنهجه الذى رسمه لدراسة فنون البلاغة، وبتوجيهه الأذهان للبحث المنظم فى الدراسات البلاغية ، وهذا ما جعل أثره قوياً مشاهداً فى جل كتب البيان العربى على مر العصور .

وبهذا نصل إلى نهاية بحثنا عن كتاب البديع وأثره فى الدراسات البيانية، ضارعين إلى الله عز وجل أن يسدد خطانا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور / الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
مدرس البلاغة والنقد

جولة ورأى فى شعر العلماء

الدكتور حلمى حسن أبو العز

مدرس الأدب والنقد
فى كلية اللغة العربية بدمنهور

ليس غريبا على تراثنا العربى الحافل بضروب الفن ، وألوان المعارف والعلوم أن يتكشف لنا فيه كل يوم جديد ، وأن تتراءى للباحثين فيه صنوف من الجلال العلمى والجمال الأدبى فى شتى المجالات ، حتى إن الشىء ليبدو جديدا مع قدم نشأته وبعد زمنه .

وموضوع بحثنا هذا عن شعر العلماء ، هو أحد الموضوعات الجديدة القديمة فى وقت واحد إن صح هذا .

فطالما قرأنا وعايشنا كثيرا من العلماء داخل مؤلفاتهم أو محاريب علومهم ومعارفهم ، وكنا نعجب دائما من كثرة ما حصله هذا العالم أو ذاك من مختلف العلوم والفنون ، حتى بدت جموعهم بمعارفهم المتعددة . وعلومهم المتباينة ، أشبه الأشياء بشموس هائلة ، تصدر عن كل قرص منها أشعة مضيئة ومتعددة ، وإن خرجت من أصل ضوئى واحد .

ولقد راقنى أن أتناول أحد الجوانب الأدبية لدى نخبة من هؤلاء العلماء الأعلام . وهو الشعر بخاصة ، حتى أتبين ملامحه الفنية ، وأتذوق بحسى الأدبى المتواضع بعض ثمراته ، رغبة فى الوقوف على ماهية هذا اللون الصادر ممن تباينت فى مجالات المعرفة قدراتهم ، وغمرت بالأمجاد العلمية والمحصلات الفكرية حياتهم ، فبدا كل منهم أمة بمعارفه ، وموطنا يأوى إليه ذوو البصائر فى مختلف الميادين .

وفى الحقيقة أن هناك شيئا آخر كان له نفس الدور والأهمية فى دفعى إلى البحث فى هذا المجال ، وهو ما قرأته وسمعته من بعض النقاد المحدثين عن سمات الضعف البادية فى أشعار العلماء ، وحشد منظوماتهم بالكثير من القواعد . أو المصطلحات ، أو الأحكام ، أو النظريات ، إلى آخر ما للعلماء به صلة ، مما يحول بينهم وبين اللحاق بفرسان الحلبة ، ممن صناعتهم الشعر دون سواه .

وما كدت أجمع غير قليل من المادة التى سأتناولها ، حتى راعنى ما وجدته فى تراثنا الجليل لهؤلاء الأفذاذ من أشعار ، بل من آيات منظومة فى مختلف الفنون والأغراض ، صاغتها يد صناع ، وشفت — بجانب قدراتهم العلمية ومؤلفاتهم الفريدة فى موادها وطرق معالجتها — عن مهارات فى النظم ، وقدرة على الإبداع والابتداع أيضا لدى الكثير منهم فى تجاربهم الشعرية ، حتى فاقوا بقريضهم كثيرا من منظومات المتخصصين فى الشعر ، والمتفردين بعمله فى مختلف العصور .

وفى الواقع أننى كنت أشعر بالنشوة الغامرة فى كثير من الحالات التى كانت تقع فيها تحت بصرى إحدى التجارب الأدبية أو المنظومات الشعرية لأحد هؤلاء العلماء ، الذين تهيأت مواهبهم لاستيعاب هذا الحشد الهائل من العلوم والآداب على وجه سواء حتى أصبح من المألوف أن أجد النادرة الشعرية ، أو الطرفة الأدبية المستملحة ، لإمام فى الفقه ، أو عالم فى النحو أو حاذق فى الفلك ، أو بصير بأمور الطب ، أو رائد فى الرياضيات ، أو فى الفلسفة ، أو غير ذلك من المواد العلمية ، مما يؤكد لنا أنه لا مناقضة بين الفقه والأدب مثلا ، أو بين الشعر فى سائر الاتجاهات ومختلف الأغراض مادام الفقيه أو العالم متثبتا من المادة العلمية أو الأدبية ، إذ أنه على قدر هذا التثبت والاستيعاب للمواد ، تكون القدرة على دوام الإعطاء والإنتاج ، واختيار الملائم من الألفاظ والعبارات للتعبير عن القصد وتوضيح الغاية إن كان الموضوع علميا ، أو الترجمة عن المشاعر والاحساسيس بما يناسبها من الكلمات أو الجمل إن كان الموضوع أدبيا .

ومن الطريف أن جل منظومات هؤلاء العلماء لم تلق اهتمام مؤرخى الأدب أو النقاد كما يجب أن يكون الاهتمام ، فظل الكثير منها مغمورا بين طيات الصحف والكتب ، تتجسد من خلالها ملامحهم ، وتكاد تسمع من بين السطور استغاثتها للأخذ بيدها .

ولعل ذلك يرجع إلى تلك النظرة غير المستأنية التى درج النقاد على توجيهها إلى أشعار العلماء ورميهم بضعف الملكة الشعرية، وتخلفهم فى هذا الميدان عن مطاولة تلك المكانة المرموقة التى يحظى بها غيرهم من صناع القريض.

وعلى هذا، فحسب المنظومة ضعفا — فى نظر هؤلاء النقاد — أن تكون لعالم، أو أن يحتوى بيت فيها على هذه العبارة أو تلك مما غلب استعماله فى أقوال العلماء (شرعيين أو لغويين أو غيرهم ....).

ومن هنا نرى مجانبة الإنصاف لأشعار العلماء، إذ ليس مجرد استعمال عبارة فقهية، أو لغوية .. الخ، جديرا بإخراج أشعارهم عن تلك المدارات الفلكية التى اصطنعها النقاد لأشعار الأدباء وحدهم.

فقد تغلب مادة من العلوم بذاتها على باقى المواد لدى الفقيه أو العالم، أو يكون اشتغاله بمادة علمية معينة أكثر من سواها، فلا ضير عليه إذا ما تحركت موهبته الشعرية آنذاك تجاه خاطرة بذاتها، أو غرض بعينه، أن ينظم أو يسجل مشاعره، بأى الألفاظ أو العبارات، أو الصور والأخيلة التى يراها ملائمة لموضوعه أو أبياته، دون تحفظ من ألفاظ خاصة أو اقتصار على جمل معينة، أو حرص على عبارات دون غيرها، أو التزام بأخيلة محددة، فهو بهذا يفقد نظامة الروح، ويبقيه جسدا هزيلا يترقب يوم البعث والنشور.

فالعبرة كما نرى ليست فى إدخال عبارة أو أكثر من مادة العالم التى كان يعايشها وقت نظمه لأبيات قصيدته، ما دام غيرها لا يفى بمدلولها فى توضيح غايته، فمن الضرورة أن تترك آثارها فى شعره، وإنما العبرة بقدرة العالم أو الشاعر على الترجمة الصادقة لما يعتمل فى نفسه تجاه هذا

الحديث أو ذاك ، بما يراه ملائماً للذوق الأدبى الرفيع من الأساليب وطرائق التعبير ، بأى الألفاظ أو العبارات شاء .

وبناء على هذا ، فأعتقد أنه لا يعد من التعييب الفنى ، ولا من المآخذ السيئة على هؤلاء العلماء وجود عبارة أو أكثر فى منظوماتهم تلفت النظر إلى معرفتهم بهذا العلم أو ذاك ، بل إن من حق العالم الشاعر أن يبدى فى بعض أبياته ما يشير إلى ملامحه العلمية ، وينبه الغافلين إلى سعة إدراكه ، وتعدد مواهبه وثقافته ، وإن كنت لا أتصور حرص هؤلاء العلماء على مثل هذا الحق ، إذ تنساب تلك الإشارات البرقية ، أو العبارات العلمية عفواً فى منظوماتهم ، دون قصد منهم ، لغلبة هذه المادة أو تلك عليهم ، وذلك أن لم يكن ميزة لهم فليس مأخذاً عليهم .

ومن هذا ، فلا يمكن أن نعيب مثلا قول الفقيه الشافعى : حمد بن محمد بن ابراهيم البستى :(١)

تسامح ولا تستوف حقك كله
وأبق فلم يستقص قط كريم
ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد
كلا طرفى قصد الأمور ذميم

إذ ليس بالغريب على فقيه عالم بأحكام الشريعة أن يقتبس هذا المعنى من قول الله الكريم : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا(٢) » .

---

(١) يتيمة الدهر — للثعالبى ج٤ص٣٣٦

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٩

كما لا نعيب على أبى القاسم الزمخشرى قوله فى عتبه على الزمن وتقديم من هو دونه عليه :

وأخرنى دهرى وقدم معشرى على أنهم لا يعلمون وأعلم

ومذ أفلح الجهال أيقنت أننى أنا «الميم» . والأيام «أفلح أعلم»

فإذا ما عرفنا أن « الأفلح » هو مشقوق الشفة السفلى ، وأن الأعلم ، هو مشقوق الشفة العليا(١) ، فإن من كان كذلك لا يستطيع أن ينطق بحرف « الميم » التى رمز بها « الزمخشرى » إلى نفسه ، حيث يريد أن يقول : إنه لم يعد حفيا بهذا الدهر الذى علت فيه الأسافل مع جهلهم ، وهوت فيه منزلة الأعالى مع علمهم ، فأصبح بهذا الوضع « المقلوب » نسيا منسيا ، وكأنه حرف الميم بين الشفتين المشقوقتين للدهر الجهول .

أقول : إننا مادمنا نعرف « الزمخشرى » العالم بأصول اللغة ومخارج حروفها ، والعلامة فى النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والتفسير ، فوق حذقه للشعر ، فإننا لا يمكن أن نعد هذه الألفاظ اللغوية مأخذا عليه ، أو قدحا فى شعره كما يقول النقاد . بل من الإنصاف للرجل أن يقال : إن تعبيره هذا وما احتواه من الخيال ، يعد من التشبيهات النادرة التى قد يعز على سواه من فحول الشعر صوغها بهذا الأسلوب .

وفى إطار هذا المعنى أيضا ، تطالعنا أبيات أخرى جيدة التعبير والتصوير لعالم الطب ، والرياضيات ، والفلك ، والهندسة ، والفلسفة أبى يعقوب الكندى يقول فيها(٢) :

أناف الذنابى على الأرؤس فغمض جفونك أو نكس

---

(١) انظر مادة « فلح » و « علم » فى كتب اللغة .

(٢) الحكم والأمثال — لابن سعيد العسكرى — ص ١٠٥

وعند مليكك فابغ العلو　　　وبالوحدة اليوم فاستأنس

فإن الغنى فى قلوب الرجال　　　وإن التعزز بالأنفس

وإن تطعم النفس ما تشتهى　　　تقمك جميع الذى تحتسى

فخير للعلماء وأفاضل الناس الاعتكاف والوحدة، حتى لاتقع أبصارهم على ما فى الحياة من المهازل وقلب الأوضاع الصحيحة، إذ علت الأذناب على الرؤوس. وتبوأ الأراذل أسمى المنازل فى مجتمعنا الإنسانى، ولم يعد للصفوة من العلماء غير الاستئناس بالوحدة، وابتغاء مكانتهم ممن لا تخفى عليه منزلتهم ومكانتهم سبحانه وتعالى.

ولو أننا نظرنا فى بيته الأخير لوجدنا تمرسه لعلم الطب، واشتغاله به قد غلب عليه وقت إنشاده، «فشخص الداء» و «أعطى الدواء» خلال هذا التشبيه الضمنى الجميل، الذى يدعو إلى الإعجاب بصوغه وحسن تأتيه للألفاظ. وروعة ملاءمته للمعنى.

ومن هنا أيضا، نرى أن من عدم الإنصاف رمى أشعاره بالضعف، لإتيانه بمثل كلمات: «تطعم» و «تحتسى» و «تقمك» إذ ترشد إلى عمله بالطب كما يشف تخيرها وحسن صوغها عن قدرات قل نظيرها عند من تفردوا وبفسح أردية القريض.

وعلى هذا، فينبغى ألا نعيب كلمات: «الغربة» و «البر» و «البحر» و «القفر» و «الناس» و «الأرض» خلال ما يلى من أبيات مادام منشدها أحد العلماء الجغرافيين وهو: محمد بن عبد الله الإدريسى الأندلسى وذلك فى قوله[1]:

ليت شعرى أين قبرى　　　ضاع فى «الغربة» عمرى

---

(١) أدب الفقهاء — لعبد الله كنون — ص ٨٣

لم أدع للعين ما تشـ ـتاق فى « بر » و « بحر »
وخبرت النـــاس « والأر ض » لدى خير وشر
لم أجـد « جارا » ولا « دا را » كما فى طى صدرى
فكأنى لم أسر إلا « بميت » أو « بقفر »

إذ لا تغفلنا تلك الكلمات فى ظاهرها عن جلال معناها ، وجمال صوغها ومدى ملاءمتها دون غيرها فى الوفاء بمقصود الشاعر ، حيث يشهد مصرع الوفاء بين الناس ، وتحول دون غايته غايات الآخرين .

وهكذا نجد أن هؤلاء العلماء قد عبروا عن أحاسيسهم بصدق وأدوا ما جال بخواطرهم فى كلمات منظومة ، وأبيات جيدة الصوغ محكمة النسج ، جذبتنا نحوهم ، وجعلتنا نعايش أحاسيسهم ومشاعرهم إلى حين ، دون أن يكون لإحدى الكلمات أو العبارات العلمية ، أو اللغوية أثر فى الحيلولة دون بلوغ قصدهم إلى مشاعر غيرهم . وحسبنا من العلماء ذلك ، وإلا فبماذا يمكن أن نحكم على من صناعتهم الشعر من بعض الفحول المتقدمين ، حين تبدو فى منظوماتهم أمثال هذه التعبيرات الفقهية ، أو ما هو أكثر من تلك العبارات اقترابا من أقوال الفقهاء أو العلماء ؟

فلنقرأ — على سبيل المثال — قول الشاعر العباسى الشهير : محمد ابن عبد الله المهلبى ، حين يهجو إنسانا دفع إلى مصادقته فترة ثم تبين له لؤمه ، وضعة نفسه ، فأعرض عنه وقال مخاطبا إياه(١) :

ما كنت إلا كلحم ميت دعا إلى أكله اضطرار

إذ نجد الشاعر قد استغل تلك القاعدة الفقهية التى لا تبيح للإنسان أكل الميتة أو الجيفة إلا فى حالة الاضطرار من أجل الحياة .

---

(١) التبيان لأبى البقاء العكبرى — ج ٢ ص ٢٨١

أقول : إن المهلبى قد استغل تلك القاعدة فى هذا التشبيه الذى جسد الحاجة إلى مصادقته مع كراهيته له و بغضه فيه .

ثم لنقرأ قول حكيم الشعراء أبى الطيب المتنبى ، فى إحدى مدائحه فى عمر بن سليمان الشرابى[١] :

وزارك بى دون الملوك تحرجى
إذا عن بحر لم يجز لى التيمم

فهو يتجنب الحرج وفعل مايلام عليه، حين يخص سيف الدولة وحده بالزيارة ويعدل عن زورة من عداه ، لأنه البحر ، وغيره من الملوك قتام وتراب ، وهل يباح فى وجود البحر تيمم ؟

إن المتنبى أيضا يستغل تلك القاعدة الفقهية التى تبطل التيمم فى حضرة الماء ليصوغها تلك الصياغة الرائعة فى هذا التشبيه الضمنى البليغ .

ثم لنقرأ بيتى الشاعر الهجاء : دعبل بن على الخزاعى (الذى لم يسلم من لسانه أحد) حين يقول[٢] :

ياليت شعرى كيف نومكما	ياصاحبى إذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحـــداً	قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

فحين أرداه سهم الصبابة لم يرد أن يظلم غيره فى سفك دمه ، أو يشهد شاهد إلا على قلبه وعينه ، إذ ارتكبا وحدهما ذلك الجرم ، وجراه إلى ذلك المصير ، « وشاهداك قاتلاك » كما نعلم .

فهل يمكن أن نتهم أحداً من هؤلاء الفحول فى شعره ، أو نقول

---

(١) ديوان المتنبى (شرح البرقوقى) جـ٤ ص ٢١٣

(٢) الأغانى — للأصفهانى — جـ٢٢ ص ٧٧٨٢ (دار الشعب) .

إن أعمارهم تعد من أشعار الفقهاء لصياغتهم بعض الأحكام الشرعية فى بعض الأبيات ؟

أعتقد أنك توافقنى على الإجابة بالنفى ، وإلا فأى حكم أيضا يمكن أن نطلقه على أشعار أبى الطيب المتنبى ، حين يأخذ معنى بيت لفقيه الشافعية: منصور بن اسماعيل ، ثم يصيغه فى أحد أبياته ؟

فلنقرأ معاً قول الفقيه الشافعى(١) :

أقول إن سألونى عن سماحته ولست ممن يطيل القول إن مدحا
لو أن مافيه من جود تقسمه أولاد آدم عادوا كلهم سمحاً

ثم لنقرأ قول حكيم الشعراء (٢) :

لو فرق الكرم المفرق ماله
فى الناس ، لم يك فى الزمان شحيح

إذ لا يخفى مابين ثانى أبيات الفقيه وبين بيت المتنبى من وشائج القربى بل والانصهار فى بوتقة واحدة .

فهل يزرى بشعر المتنبى هذا التضمين ، أو لأنه أخذ معنى بيته من الشاعر العالم دون أن يرميه بالضعف أو يعيبه لمجرد أنه شعر فقيه ؟ أرى أنك توافقنى على الإجابة بالنفى هنا أيضاً .

وأعتقد أن هذا القدر من الأضواء كاف لتوضيح الرؤية تجاه ما تخيرناه من نماذج شعرية لبعض العلماء ، والأدباء ، وكيف طعمت بعض منظوماتهم بمصطلحات علمية ، أو أحكام شرعية ، أو قواعد نحوية ،

---

(١) التبيان جـ ١ ص ٢٥٠

(٢) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٣٧٤

أو دلالات لغوية ، وغير ذلك مما له بالعلوم صلة حيث تدعو الحاجة إلى هذا عند الأديب . أو تغلب المهنة بذلك لدى العالم ، إذ لاضير ولا حرج على أيهما فى هذا ، مادامت الألفاظ والمعانى ليستا ملكا لفئة دون غيرها أو أن للعلماء ماليس للأدباء من وسائل التعبير والتصوير ؛ فالعبرة كامنة فيما لدى الشاعر — عالما أو أديبا — من القدرة على تخـــير الألفاظ وانتقاء العبارات ، وجودة الصياغة ، وملاءمة التصوير ، وذلك لايتأتى بغير تمـكن الناظم وتثبته من المادة ، فعلى قدر ثقافته وعمق معرفته ورسوخ قدمه فيها وإلمامه بها ، تـكون قدرته على الإبداع فى النظم ، والسمو فى الغايه ، ومواصلة الإعطاء .

وبناء على هذا ، فليس من حق الناقد أن يقذف المنظومة الشعرية بالضحالة أو بالضعف لأن ناظمها من العلماء ، أو لمجرد احتوائها على بعض الـكلمات أو المصطلحات العلمية ، بنفس القدر الذى لايبيح له الحـكم بالجودة أو بالقوة على منظومة أخرى ، لأن صاحبها ليس من العلماء وإن تخللت أبياتها بعض العبارات أو المصطلحات مما سبق الحديث عنها ، وذلك لأن المهمة الحقيقية والمثالية للناقد هى أن يمعن النظر فى النص (للعالم أو الأديب) فيعيبه إذا ما بدت الـكلمة أو العبارة المقتبسة نابية عن الذوق الأدبى السليم ، أو تهاوت من الضعف بـــين جارتيها فى البيت الشعرى فأحدثت به هزة فى المعنى ، أو اضطرابا فى الفـكرة ، أو خللا فى الصياغة والتركيب ، وإلا حـكم لصاحب النص بالجودة والشاعرية .

كل هذا دون تحيز لفئة ، أو لشخص ، أو سير وراء الهوى ؛ فذلك ادعى للحكم على الناقد ، أو له أيضا . من الآخرين .

ومادمنا فى رياض الأدب — وما أجملها وأسعد القلوب بها — فلنخط

بضع خطوات فى رحباتها الزاهرة النضرة ، ولنتأمل بخاصة فيما أنشأته وتعهدته أيدى علمائنا الشعراء ، حيث فنتخير لهم بعض الجنى ، ونقطف من غراسهم المتباينة خير الثمار .

ولعل من أكثر الأغراض طرافة فى منظومات العلماء هو : « الاعتداد بالنفس » أو مايسمى بغرض « الفخر » لدى غيرهم من الشعراء .

إذ تجد للعلماء فى هذا المقام أو الغرض الفنى ما يباين أقوال سواهم وأفكارهم ومعانيهم ، وأخيلتهم فى نفس الغرض .

فعدنا بالشعراء أن يفتخروا ، أو يفاخروا بالنسب ، والجاه والغنى والشجاعة .. إلخ

ولكن مانجده لعلمائنا الشعراء ، يسمو فوق هذه الغايات إذ ينأون بأقوالهم عما يقلل من هيبتهم ، أو يخدش وقارهم ، ولا يصدر عنهم ما يخل بورعهم ومكانتهم بين سواهم ، فهم يفاخرون بفقرهم ، ويباهون بعلمهم ويكثرون من القول فى الترفع بذواتهم ، وتحقير كل ما يعد غاية لغيرهم من ألوان المتع والنعيم والجاه فى الحياة ،

فهاهو ذا سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، يكتب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى — وكان سليمان من المحبين له ، والمقدرين لفضله وعلمه يستزيره إلى السند ، حيث كان سليمان واليا عليها ، فيرفض الخليل تلبية دعوته ، ويكتب إلى حامل الدعوة من سليمان هذين البيتين :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة
وفى غنى غير أنى لست ذا مال

الرزق عن قدر ، لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال

وعندما بلغ قوله هذا سليمان ، أرسل إليه بهدية ومال كثير ، ولكن الخليل يردها إليه ، وينشد قوله :ـ(١)

وخصلة يكثر الشيطان إن ذكرت
منها التعجب ، جاءت من سليمانا

لاتعجبن لخير زل من يده
فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

إذ نرى الخليل بن أحمد فى كلماتة قانعا برزقه المقدر له ، وأنه ليس بحاجة إلى عطاء مخلوق ، لأنه بعلمه فى سعة وغنى عن ذوى الجاه حتى وإن افتقد المال ، أو عصب الحياة كما نقول .

وهاهو ذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (أحد الفقهاء السبعة فى المدينة) يغضب من الخليفة العالم الزاهد : عمر بن عبد العزيز ، وذلك حين يذهب إليه عبيد الله مستأذنا فى الدخول عليه ، فيقفه الحاجب محيلا بينه وبين الدخول ، محتجا بأن الخليفة ينفرد بعبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان لأمر من الأمور ، فيعود عبيد الله إلى بيته ، ويكتب إلى عمر بن عبد العزيز أبياتا يقول فيها :(٢)

وإنى امرؤ من يصفنى الود يلفنى
وإن نزحت داربه دائم الوصل

---

(١) الأوراق ـ للصولى ـ قسم أشعار أولاد الخلفاء ص ١٥ وفيه نسب هذان البيتان لاسماعيل بن سماعة فى ذم والى الرقة : سليمان بن المنصور وفيه كلمة « وزلة » بدلا من كلمة « وخصلة » .

(٢) الأغانى حـ ٩ ص ٣٢٦٤

عزيز إخائى ، لا ينال مودتى
من الناس إلا مسلم كامل العقل

ولولا اتقائى الله قلت قصيدة
تسير بها الركبان ، أبردها يغلى

بها تنقضى الأحلاس(١) فى كل منزل
وينفى الكرى عنه بها صاحب الرحل

كفانى يسير إذ أراك بحاجتى
كليل اللسان ، ما تمر وما تحلى

تلاوذ(٢) بالأبواب منى مخافة الـ
ـملامة ، والإخلاف شر من البخل

أبن لى ، فكن مثلى ، أو ابتغ صاحبا
كمثلك ، إنى تابع صاحبا مثلى

يقول الرواة : إن عمر لما أخبر بأبيات عبيد الله الفقيه ، تأثر تأثرا شديداً ، ثم بعث إليه عراك بن مالك ، وابن أبى خيثمة ، يعذرانه عنده ، ويقولان له بلسان عمر : إن عمر يقسم بالله ما علم بمجيئك ولا برد الحاجب إياك ، فأقبل عذره ، فعذره » .

فأى تقدير من خليفة يطاول هذا التقدير لرجل مكفوف البصر ؟ إنه العلم وفضله ، وصدق الحق القائل : «يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » .

ثم لنعد إلى الأبيات ، ولنتأمل قليلا فيما قاله عبيد الله الفقيه للخليفة

---

(١) الأحلاس (جمع حلس) وهو ما يلى ظهر البعير أو الدابه
(٢) تلاوذ : تراوغ وتتهرب

فيها . ألست ترى معى كيف استطاع هـــذا العالم ، أن يسلك بقصيدته مسالك المطبوعين من الشعراء ، فيتدرج بألفاظه ، ومعانيه ، وأخيلته ، فى ترجمة مشاعره ، وتجسيد أثر فجيعته فى نفسه ، إذ أمىء تقديره من حاجب الخليفة ، ظانا علم الخليفة بذلك ، و« إن بعض الظن إثم » .

فنراه فى بيتيه الأولين يرسم بعض خلاله وصفاته التى جهلها عنه الخليفة ، إذ لم يكن جديرا بأخوته ومودته غير المسلم الكامل العقل .

وهكذا ، وبهـــذا القدر من الغلظة والقسوة يجازى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، مقابل رفض حاجبه السماح له بلقاء عبيد الله الفقيه .

ثم يبدى نفسه فى ثالث الأبيات ورابعها وهو يحاول كظم غيظه ، وكأنه لم يرق بالجزاء إلى ما يليق بفعل الخليفة ، حيث تحول خشية الفقيه من الله دون هجاء عمر ، بما ينفى الكرى ويقض المضاجع من الكلمات .

ثم تنساب الألفاظ القاسية ، والعبارات القارضة الموجعة فى خامس الأبيات وسادسها ، موجهة إلى جسد الخليفه ، إذ يبديه كليل اللسان ، قليل الحيلة أمام الحاجة اليسيرة ، وأن لقاء عمر به مع بخله كان أهون على نفس عبيد الله من تهربه منه وخشيته مواجهته .

وفى النهاية يختم أبياته بتلك النصيحة القاصمة التى لا يتحملها غير عمر بن عبد العزيز ، وظنى أنها لا تصدر آنذاك أيضاً إلا من عبيد الله الفقيه .

فلله در الخليفة عمر عبد العزيز ، حين سمع هذه الأبيات من الرجل ، فلم يأمر بعقابه ، وإنما يطلب منه الصفح وقبول العذر .

ولله در العالم الفقيه والشاعر المطبوع ، إذ لم يخش إلا الله فأعلن غضبته فى هذه الأبيات ، التى حفظت للعلم ، وللعلماء فى عصره مكانتهم .

وها هو ذا أيضاً : أبو القاسم الشاطبي (الفقيه الزاهد) يرسل إليه أحد أحد أمراء عصره رسولا يستدعيه عنده ، ليستفتيه في أمر ضاق به من حوله، وكان الأمير قد علم مكانة أبي القاسم وفضل منزلته في العلم والقضاء، فيرد «الشاطبي» رسول الأمير بورقة صغيرة ، طالبا إعطاءها لأميره ، بعد أن نظم فيها هذين البيتين :

قل للأمير مقالة   من عالم نطق نبيه
إن الفقيه إذا أتى   أبوا بكم لا خير فيه

فأي إعتداد بالنفس وإعتزاز بالعلم يسمو فوق هذه الكلمات الموجزة والمنظومة في بيتي الشاطبي الفقيه ؟

ثم لنستمع إلى صوت الإمام الشافعي رضي الله عنه في هذه الأبيات التي تمجد همته العاليه ونفسه الحرة الأبية ، وتجسد قناعته ورضاه بالقليل من القوت والمال ، وكيف أن ذلك لا يلجئه لغير الله ، ولا يشعره بالحاجة إلى أي مخلوق ، فيقول(١) :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا

همتي همـــة الملوك ، ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا ما قنعت بالقوت عمري
فلمـاذا أزور زيدا وعمرا

وللشافعي وأمثاله من العلماء في هذا المقام منظومات غير قليلة تؤكد لنا

---

(١) ديوان الشافعي ص ٥٨ تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجي

أنهم يتجهون بمثل هذه الألوان الفنية من الفخر أو الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالعلم اتجاها تهذيبيا ، ويشحون به منحى جليلا من الرفعة والسمو بالنفس البشرية لا يعرفه غير ذوي البصيرة والنابهين في الحياة .

ولنقرأ للشافعي أيضاً هذه الأبيات لنرى هذا اللون الغريب من الفخر حين يقول(١) :

على ثياب لو يباع جميعها
بفلس ، لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو يقاس ببعضها
نفوس الورى ، كانت أجل وأكبرا

وما ضر نصل السيف أخلاق غمده
إذا كان عضبا حيث وجهته فرا

فليست غاية الإمام وأمثاله المباهاة بما يزدان به غيره من فاخر الثياب وإنما مطلبه الكمال ، وغايته معالي الأمور ، وما عليه بعد ذلك أن يستره من الثياب مالا يقدر بفلس واحد ، فمتى كان الغمد الخلق أو الجفن البالي مفقدا قيمة السيف القاطع ؟

إنه فخر العلماء بالعلم، وزهوهم بالخلق الكريم، خلال كلمات منظومة، وأبيات من سحر البيان .

ثم لنختم هذا اللون الفني من نظم العلماء ، بما أنشده القاضي الشاعر : أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني (صاحب الوساطة) حيث يقول(٢):

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٧ ص ٣٢٠

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٣

يقولون لى فيك انقباض وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
ولـكن نفس الحر تحتمل الظما

ولم أقض حق العلم إن كان كلما
بدا مطمع صيرته لى سلما

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة
إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولـكن أهانوه فهانوا ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

إنها كلمات مدادها التواضع فى رفعة ، أو الرفعة فى تواضع ، وهذا شأن العلماء لا المتعالمين ، وسعادة الزهاد لا المتزهدين ، حيث لا يعدل ابتهاج نفوسهم بالعلم وتفرغهم إليه أى جاه أو سلطان .

وبهذا نرى القاضى الشاعر قد جمع فى أبياته القليلة غايات كثيرة ، يتوجها شرف المعنى ورقة الأسلوب . وروعة التصوير ، وحسن تأت للفكرة بما يشهد له بالجودة وسلامة الطبع الشعرى .

وهكذا يتراءى لنا اعتداد العلماء بأنفسهم وبعلمهم غرضا مستقلا ،

احتوته منظوماتهم وباينت فيه أفكارهم ومعانيهم وأخيلتهم غرض الفخر المعهود لدى غيرهم من الشعراء .

ومع ذلك فقد وجدنا لغير قليل منهم أيضا منظومات فى الفخر ، يجارون بها سواهم وتتميز بسمة التطاول على أقـــدار الناس . والترفع بذواتهم عن غيرهم .

ولا شك فى أن للنفس البشرية دورها فى هذا الأمر ، ولهم ليسوا بمنأى عن الزلل والوقوع فى بعض الهنات والأخطاء كغيرهم من الناس فى دروب الحياة .

ومن منظومات هذا اللون الفخرى لدى العلماء . قول أبى المظفر : محمد ابن أحمد الأبيوردى الخرسانى ، وهو أموى النسب ، وكان عالما فقيها ، وشاعراً أديبا(١) :

الناس من خولى والدهر من خدمى
وقمة المجـــد عندى موطىء القدم

والنسر يتبع سيفى حين يلحظه
والدهر ينشد ما يهمى به قلمى

لو صيغت الأرض لى دون الورى ذهبا
لم ترضها — لمرجى نائلى — همى

وهو كما ترى ضرب من المغالاة فى الفخر بنفسه ، بل والإغراق فيه حسب ما كان سائداً فى عصر بنى أمية . حيث كانت تتأجج نيران العصبية وبخاصة لمن كانوا ينتمون إلى بنى أمية كفقيهنا الشاعر .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٣ ص ١٩٦ وما بعدها .

فهو بقوله هذا يدور فى فلك قومه ممن بيدهم أمر الدولة كما نرى ، وإلا فأنى لعالم فقيه أن يتحدث عن نفسه بهذه الصورة ، حيث تلاحق النسور غزواته ويردد الزمن أحاديثه ، وتزل تحت قدمه أسمى الغايات ، وتخضع أمامه الحياة والأحياء ويستهين بذهب الأرض عطاء لمن يطلب منه النوال ؟

إنها نفس الإنسان ، وملكة الشعر ، و « إن النفس لأمارة بالسوء » صدق الله العظيم .

وها هوذا إمامنا الشافعى رضى الله عنه يفتخر ببعض أبيات يقول فيها وإن بدا متحفظا شديد الحذر(١) :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى — لكنت اليوم أشعر من لبيد

وأشجع فى الورى من كل ليث — وآل مهلب وبنى يزيد

ولولا خشية الرحمن ربى — حسبت الناس كلهم عبيدى

فانظر إلى ما أحدثه صدر البيت الأخير من إعتدال ووقوف على جادة الطريق المستقيم . فى الوقت الذى تسللت فكرته وما يرمى إليه من رغبة وهوى بشرى إلى غيره من الناس .

إن التمكن من العلم والشعر معاً وحسبه أمام الله والناس هذا .

وإذا ما إنتقلنا إلى فن آخر كالمدح مثلا ، وجدنا للعلماء فيه أيضا ما ليس لغيرهم ، فهم لا يمتدحون — كباقى الشعراء — لطلب دنيا . أو لتحقيق غاية . أو تزلفا إلى ذى جاه وسلطان وإنما الجديد فى هذا الفن أن العلماء يرقون بمدائحهم فوق تلك الغايات ، حتى لا يطلبون بها النوال أو

---

(١) ديوان الشافعى ص ٥٥

العطاء ممن يسعى غيرهم إليه ويريقون أمامه بمدائحهم ماء الوجه والكرامة فى غالب الأحيان ، وإنما كان العلماء يرجون بها رضا الله سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فقصرت مدائحهم وتوسلاتهم النابعة من قلوبهم الخاشعة . على ذات الله ورسوله وأحبائهما من آل البيت النبوى الطاهر .

وبذا سمت مدائحهم ، وارتقت غايتهم ، وكان لهم فى هذا اللون ما لا يطاول بمدحات غيرهم من المتكسبين .

ومن هنا فلم يكن العالم الشاذ عن الجماعة ، والذى دعته الضرورة ، أو غلب عليه الهوى وقتا فامتدح غيره من أولى الأمر فى الدنيا ، بمنأى عن النيل منه أو التعريض به من سواه ، ومقصورة أبى زيد المكودى (العالم النحوى) فى العتب على ابن دريد لمدحته ، أو مقصورته فى ابنى ميكال الشهيرة ، وكذلك فى العتب أيضا على حازم القرطاجنى ، لمدحته أو مقصورته أيضا فى المستنصر الحفصى ، تعد شاهداً على إتخاذ العلماء سبيلا موحداً فى مدحاتهم ، وأنهم لا يتركون من خرج عن الجادة دون توجيه أو تعديل للمسار ، فبدت إتجاهات العلماء فى مدائحهم وهى تعرج دائماً على مدارج الكمال ، حيث تنصهر ذواتهم فى تلك المدائح للذات العلية ويتغنى فيها بالحب الإلهى الطاهـــر ، فترتدى أقوالهم فيها حللا خاصة من السمو الروحى ورفعة الغاية والمراد .

وان شئت فاقرأ معى قول أبى القاسم السهيلى (صاحب الروض الأنف) وهو يمتدح من بيده الأمر ويسأل من يملك الإعطاء(١) :

سأسأله ما شئت ، إن يمينه — تسح دفاعا بالمنى والرغائب

---

(١) أدب الفقهاء ص ١٦١

فحسبى ربى فى الهـــزائز ملجأ
وحرزا إذا خيفت سهام النوائب

إنها دون شك نفحات قدسية وكلمات منظومة بليغة صعدت أنفاس نقية من قلب مؤمن زاخر بصدق العبودية لمن رفعت دونه الحجب حيث لا خشية أمام فيوضات رحمته من نوازل الأيام وحدثان الدهر .

ومنظومات هذا اللون من المدائح النقية وقصائد العشق والتفانى فى الذات الباقيـــة تنفد دونها الكلمات ، وحسبنا ما رمزنا به فى هذا المقام ، فلصاحب السيرة العطرة أيضا عليه الصلاة والسلام مدحاته التى فاقت كل فنون الشعر عند هؤلاء العلماء ، حيث لا تملق من مدحه ، ولا رياء فى سرد جلائل أعماله ، وكيف لا يرقون بأشعارهم الغاية فى هذا المقام ، وهم الذين يخشون الله من عباده ، ويمتدحون من لا تدانى بأسمى صفات العالمين صفاته صلوات الله وسلامه عليه .

ومن هنا أيضا فحسبنا بعض أبيات نجتزئها من إحدى المطولات فى مدح الرسول ﷺ حيث يتردد البصر فى حيرة ، ويقف المرء مشدوها أمام عشرات القصائد والمطولات ، دون قدرة على اختيار إحداها أو جزء من أبيات بعضها .

ولعل فيما أنشده العالم الأديب ابن أبى الخصال الذى كان يعمل كاتبا لعلى بن يوسف بن تاشفين بمراكش فى القرن السادس الهجرى ما يروى بعض الظمأ الروحى ويخفف من غلواء الصبابة والحب لساكن المدينة الحبيب عليه الصلاة والسلام وذلك بذكر أبيات من مدحته النبوية التى يستهلها بقوله(١) :

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٦

إليــك فهمتى والفؤاد بيثرب
وإن عاقنى عن مطلع الوحى مغربى

أعلــل بالآمال نفساً أغرها
بتقديم غاياتى وتأخــير مذهبى

ودينى على الأيام زورة أحمد
فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبى

وهل أردن فضل الرسول بطيبة
فيابرد أحشائى ويا طيب مشربى

وهل فضلت من مركب العمر فضلة
تبلغنى أم لا بلاغ لمركبى

ألا ليت زادى شربة من مياهها
وهل مثلها ريا لغــلة مذنب

ويا ليتنى فيها إلى الله صابر
وقلبى عن الإيمان غير مقلب

ثم يطول نفس العالم المحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيات يتحسر فيها على مافات من عمره دون أن يشترى الجنان بعزمة فى سبيل الله ، وكيف أن التوفيق أخطأه وفاز غيره بما كان يرجو التقرب به ، ثم يعود إلى ما كان يمنى به نفسه من زورة الرسول الحبيب عليه السلام فيقول :

أمانى قد أفنى الشباب إنتظارها
وكيف بما أعيا الشباب لأشيب

وقد كنت أسرى فى الظلام بأدهم
فها أنا أغدو فى الصباح بأشهب

فمن لى وأنى لى بريح تحطنى إلى ذروة البيت الرفيع المطنب

إلى الهاشمى الأبطحى ، محمد
إلى خاتم الرسل المكين المقرب
إلى صفوة الله الأمين لوحيه
أبى القاسم الهادى إلى خير مشعب
إلى ابن الذبيحين الذى صيغ مجده
ولما تصغ شمس ولا بدر غيهب

ومن كلمات النور المدحى أيضا تطالعنا هذه الأبيات التى يرويها الصفدى فى كتابه : « نكت الهميان (١) » مع غيرها للعالم الفقه المحدث الأديب الربانى : جمال الدين أبى زكريا يحيى بن يوسف الصرصرى ، الذى يقول عنه ابن تغرى بردى : (٢) إن مدائحه فى النبى ﷺ تقارب عشرين مجلدا ، وهى استعراض نظمى رائع للسيرة العطرة ، بما فيها من المعجزات ، والغزوات ، والإشادة بالخلفاء الراشدين ، وحسبنا هذه الأبيات من « خائيته » الطويلة فى مدحه عليه السلام حيث يقول فيها :

ياخاتم الرسل الكرام وفاتح الـ	ـخيرات ، يامتواضعا شماخا
يامن رست وسمت قواعد دينه	وبه هوى أس الضلال وساخا
ياخير من شد الرحال لقصده	حادى المطى وفى هواه أناخا
عطفا على عبد تعلق حبكم	طفلا وفى صدق المحبة شاخا

والحق أن باب مدائح العلماء فى هذا المقام رحب فسيح ، وللفقهاء فيه صولات وجولات تقعد دون اللحاق بالكثير منها غرر القصائد لدى غير

---

(١) نكت الهميان — للصفدى — ٣٠٨
(٢) النجوم الزاهرة — لابن تغرى بردى جـ ٨ ص ٦٦

القليل من فحول الشعراء ، بل لعله خير الأبواب التى وجدوا فيها منطلقهم الروحى الحقيقى حيث صاغوا — دون غيرهم من الشعراء — مدائحهم بروحانية وصدق إيمانى إلى من يستحقها .

ومن هنا ، فلا غرابة أن تجد الخليفة العباسى الثانى : أبا جعفر المنصور ينظر فيمن حوله يوما فلا يجد إلا مطريا له أو متزلفا إليه من الأمراء أو الوزراء أو القواد أو الشعراء ، ولكن شخصا واحدا يجالسه الخليفة ويرى فيه مالم يره فى غيره ، وهو العالم الزاهد : عمرو بن عبيد ، فيطيل النظر إليه ، ثم يقول لمن حوله جميعا :

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد (١)

وحسب هذا العالم أن يمدح بلسان من يتهافت فحول الشعراء على مدحه أو التقرب إليه .

ولا عجب أن يكون لمثل هؤلاء العلماء الأتقياء ضروب من شعر الزهد ترقى بهم إلى منزلة سامية فى هذا اللون الفنى أيضا ، حيث تشعر فى منظوماتهم تمام اليقين بالله سبحانه ، فوق معرفتهم المؤكدة لما فى الدنيا من زائل المتاع .

ومن نماذجهم الزهدية ، ما نراه فى قول الفقيه الزاهد : ابن العسال الطليطلى (٢)

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئا يدوم
فاغد منها فى أمان إن يساعدك النعيم

---

(١) أدب الفقهاء ص ١٤٣

(٢) نفح الطيب — المقرى — جـ ٤ ص ١٩٥ ، ٢١٣

وإذا أبصرتها منك على كره تهيم
فاسل عنها وأطرحها وارتحل حيث تقيم

ثم لنستمع إلى هذه الخاطرة السريعة التى نظمها العالم الفقيه المحدث : أبو الوليد الباجى سليمان بن خلف (صاحب كتاب أحكام الفصول فى أحكام الأصول ، وكتاب التعديل والتجريح) يقول :(١)

إذا كنت أعلم علما يقينا بأن جميـــع حياتى ساعة
فلم لا أكون ضنينا بها وأجعلها فى صلاح وطاعه

ولقد عمد كثير من العلماء إلى أسلوب المناجاة الصوفى الخالص ، سالكا سبيل أهل الطريق تأملا وتشوقا وسكرا وفناء وكشفا وحنينا وأنينا وارتياحا كما نجد ذلك فى قول الفقيه العالم أبى عمـــر أحمد بن عيسى الألبيرى : (٢) .

شربت بكأس الحب من جوهر الحب
رحيقا بكف العقل فى روضة الحب
وخامر مـــاء الروح فاهتزت القوى
قوى النفس شوقا وارتياحا إلى الرب
ونادى حنينا بالأنـــين حنينها
إلهى إلهى ، من لعبدك بالقرب
فخاطبـــه وحيا إليه مليـــكه
سأكشف ياعبدى لعينك عن حجبى

---

(١) وفيات الأعيان — لابن خلكان — جـ ٢ ص ١٤٢
(٢) الذخيرة — لابن بسام — قسم أول مجلد ثان ص٣٤٢

فأعلن بالتسبيح : مثلك لم أجد
تعاليت عن كفء يكافيك أو صحب
أجول ببعضي فوق بعضي كأنني
ببعضي لبعضي كالنجائب والركب

نخذ بزمام الشوق مني تعطفا إليك ولا تسلم زمامي إلى لبي
لعلي أسقى ثم أسقاه دائما رحيقا بكف العقل من جوهر الحب

وأشعار العلماء الزهدية والصوفية كثيرة وجليلة ، وتحمل كغيرها من أشعارهم سمات الجودة ، وتباهي منظومات الشعراء المتخصصين بالمهارة والإبداع .

وحين نلفت أنظارنا إلى أحد الألوان الأدبية الأخرى التي تناولها الشعراء من قديم كفن الغزل ، وكيف تطور : (الإباحي) وما فيه من تهتك وفحش في التعبير إلى الغزل بالمذكر في العصر العباسي . (العفيف) وكيف وصل بنقاء لفظه وسمو غايته ومعناه إلى مرحلة المناجاة والتصوف .

أقول : إن علماءنا كان لهم في فن الغزل أيضا مقام ومنظومات ، وإن لم تتجاوز اللون العفيف إلى غيره إلا قليلا إذ بدوا في أشعارهم الغزلية على جانب غير قليل من التحفظ واتخاذ بعضهم الرمز وسيلة للافصاح بها عما تكنه صدورهم تجاه الحبيب ، فارتقوا بهذا اللون في غزلهم ونسيبهم ، دون تخبط أو إسفاف أو فحش فيما تناولوه من أقوال .

ولعل من أرق الأبيات في هذا المقام ما أنشده عروة بن أذنية (الفقيه المحدث) في بيتين له يقول له الرواة بشأنهما : « إن سكينة بنت الحسين مرت بعووة وهو بغناء واره ، فقالت له أأنت ابن أذنية ؟ قال : نعم ، قالت : أأنت الذي يقول الناس إنك امرؤ صالح وأنت الذي تقول : (١)

---

(١) الأغاني جـ٢٠ ص ٧١٦٦

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى
عمدت نحــو سقاء القوم أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد

قال لها : نعم .

ومن الأبيات السائرة والمنسوبة إليه قوله : (١)

قالت وأبثثتها وجدى فبحت به
قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى فقلت لهـا
غطى هـواك وما ألقى على بصرى

وقوله فى هذا المقام أيضا .(٢)

إن التى زعمت فؤادك ملهـا جعلت هواك كما جعلت هوى لها
فبك التى زعمت بها وكلاكما يبـدى لصاحبه الصبابة كلهـا
ويبيت بين جوانحى حب لها لو كان تحت فراشهـا لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها يوما وقد ضحيت إذا لأظلهـا
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلبـاقة فأدقهـا وأجلهـــا
لما عرضت مسلما لى حاجة أرجو معونتها وأخشى ذلهـا

(١) الشعر والشعراء — لابن قتيبة — ح ٢ ص ٥٧٩
(٢) شرح الحماسة (للتبريزى) ح ٣ هامش ص ٢١١

منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

فدنا فقال : لعلها معذورة من أجل رقبتها فقلت : لعلها

وأبيات ابن أذنية كما تجسد حرقات وجده ولوعات صبابته وهواه وتبرز فى يسر وبساطة تعبير ما أضمرته الجوانح وأخفته الأفئدة .

ولعبيد الله بن عبد الله بن عتبة (أحد الفقهاء السبعة فى المدينة) قوله فى التودد والحنين إلى زوجته :(١)

أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو ان إنسانا يطير

غنى النفس أن أزداد حبا ولكنى إلى صلة فقير

وأنفذ جارحاك سواد قلبى فأنت على ماعشنا أمير

ومن رقيق غزل القاضى : على بن عبد العزيز الجرجانى قوله : (٢)

أفدى الذى قال وفى كفه مثل الذى أشرب من فيه

الورد قد أينع فى وجنتى قلت : فمى باللثم يجنيه

فالفكرة والأسلوب والتصوير فى بيتيه ينساب كل منها دون تعثر أو غرابة بما قد يعز على كثير من المتفرغين لعمل الشعر .

من أبيات التودد والحنين أيضا تلك الأبيات الرقيقة التى نظمها أبو الأسود الدؤلى (التابعى الفقيه المحدث النحوى الشاعر) قوله :(٣)

ليت شعرى عن أميرى ما الذى غاله فى الود حتى ودعه

---

(١) الأغانى حـ ٩ ص ٣٢٧١

(٢) يتيمة الدهر حـ ٤ ص ٩

(٣) الشعر والشعراء حـ ٢ ص ٧٢٩ وما بعدها .

لا تهنى بعد إذ أكرمتنى فشديد عادة منتزعه
لا يكن برقك برقا خلبا إن خير البرق ما البرق معه

ومن أبيات الصبابة والحنين إلى الماضى وما فيه من ذكريات . قول أبى بكر الشبلى الصوفى :(١)

رب ورقاء هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا وعيشا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى
أتراها بالبكاء مولعة أم سقاها البين ما جرعنى

وأنى لشارح أن يعنى بمدلول هذه الأبيات أكثر مما وفى به صاحبها أو يتأتى له مثل ماأوتيه ناظمها من رقة اللفظ ودقة المعنى وجودة الصياغة وروعة التصوير ؟

وحتى لايطول بنا المقام فى هذا اللون الفنى عن سابقيه ، فسوف نكتفى بما ذكرناه من الغزل (العفيف) وهو الكثرة الغالبة فى غزل العلماء حتى يتسنى لنا إلقاء الضوء أيضا على الجانب الآخر من الغزل (غير العفيف) لدى بعض العلماء ، لأنه مع (قلته أو ندرته وشذوذه فى أشعارهم) لون أدبى له سماته وملامحه وقدرات قائليه . وحتى لا ترى باع الفقهاء وقد قصرت عن الكتابة فى هذا اللون أيضا .

ومن هنا فسوف نكتفى بهذه الأبيات التى أنشدها قاضى أشبيلية أبو حفص بن عمر والتى يقول فيها :

---

(١) أدب الفقهاء ص ٩٢

مشت كالغصن يثنيه النسيم ويعـــدوه النسيم فيستقيم
لها ردف تعلق فى لطيف وذاك الردف لى ولها ظلوم
يعذبنى إذا فكرت فيــــه ويتعبها إذا رامت تـــقوم
وما حبى لها إلا عـــذاب عليه من نضارتها نعيم

وهى أبيات لا نراها تقل عما نظمه العلماء فى هذا الغرض وسابقه من الأغراض ، كما تنطق بها سمات القدرة على الصياغة والسلامة فى الطبع الشعرى بما لا يقل عن نظيره لدى حاملى لواء القريض من الأدباء

ولسوف نطوف مسرعين فى باقى الرياض الأدبية لعلمائنا بعد أن اتضحت مهاراتهم فى ضروب الشعر ، وتحدت جوانب الإبداع الفنى فى منظوماتهم خلال ماتناولناه من سابق الفنون والأغراض حتى تكتمل دائرة الضوء من حولهم فيرى غير المنصفين لهم ماخفى من جوانب عظمتهم ودلائل قدراتهم وتمكنهم من الإجادة فى العلوم والآداب على حد سواء .

فالهجاء مثلا يعد من الأغراض التى قد يتراءى للكثيرين بعد العلماء عنه وعدم التعرض له ، خاصة وأن غير القليل ممن صناعتهم الشعر كانوا يتحرزون منه ، أو تحول أخلاقهم دون الكتابة أو النظم فيه ومع هذا نجد لبعض الفقهاء فى هذا المقام بعض المنظومات ، وإن بدت أقل الأغراض كتابة لديهم ، فهى خارجة دون شك عن مألوفهم وحقيقة طباعهم ، ولذا فإن مانراه من هجاء الفقهاء ينأى عن الإسفاف وسوء التناول أو المبالغة الممجوجة ، كما نراه عند غيرهم من المتخصصين فى صناعة الشعر .

فهاهو ذا الشيخ الفقيه : محمد بن سعيد المكى يهجو بعض أهل عصره فيقول :(١)

---

(٣٥) سلافة العصر — لابن معصوم — ص ٢٢٥

اترك العجب فما أنت سوى رجل إما لضحك أو لغم
كغراب السوء يمشى مرحا معجبا وهو أخو الشؤم الأذم
يغسل الثوب وفى أكنافه وسخ العرض وآلات التهم

ففى باطن التقريع والهجاء يكمن النصح والإرشاد، وهذا دائما شأن الراغبين فى الخير من العباد.

كما نجد فى منظومات الفقهاء الهجائية أيضا ألوانا من الطرافة والملح المستعذبة ومن ذلك ما يروى : أن الحافظ بن حجر العسقلانى، وبدر الدين العينى (العالمين الجليلين) لم يكونا على وفاق فى الرأى، فشبت بينهما علاقة غير حسنة، وحدث أن مالت منارة المدرسة المؤيدية بمصر، على برج باب زويلة، وكان للشعراء فى ذلك منظومات غير قليلة، فانتهز ابن حجر العسقلانى هذه الفرصة وأنشد هذين البيتين معرضا فيهما «بالعينى» فقال(١) :

لجامع مولانا المؤيد رونق
منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت على البرج أمهلوا
فليس على جسمى أضر من «العين»

ويبلغ ذلك «العينى» فيرد على «ابن حجر» بهذين البيتين ويقول فيهما:

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا : اصيب «بعين» قلت ذا غلط
ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

والتعريض فى قول كل من العالمين بصاحبه لا يحتاج إلى بيان، مع ملاحظة قوة البديهة وحسن الصياغة وسلامة العرض وجودة النظم.

---

(١) عمدة القارى — للعينى — ح ١ ص ٦ / ٧

وفى مقام قدرات العلماء على النظم أيضا فى مجالات الفنون المختلفة بالإضافة إلى مهاراتهم العلمية وثقافاتهم المتباينة ، نجد أن كثيرا من الفلاسفة قد نظموا أفكارهم العميقة ونظراتهم الدقيقة فى الكون والحياة ، وقد كثر ذلك فى العصر العباسى بخاصة حتى بد اظاهرة من ظواهره .

ولعل من أشهر القصائد أو المنظومات فى هذا المقام وأسيرها ، تلك «الرائية» التى نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وهى فى الحقيقة لابن الشبل البغدادى « الحسين بن عبد الله بن يوسف » الذى تميز بالحكمة والفلسفة ، كما كان خبيرا بصناعة الطب فوق أنه كان أديبا وشاعرا ، وهو يستهلها بقوله[1] :

بربك أيها الفلك المدار	أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا فى أى شيء	ففى أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى القضاء وهل قضاء	سوى هذا القضاء به تدار
وعندك ترفع الأرواح أم هل	مع الأجساد يدركها البوار

فابن الشبل يبدو فى حيرة وقلق أمام تلك الحركة اللانهائية للفلك المدار وهل هو كما يتصور بعض الفلاسفة يسير دوراته المنظمة للكون عن قصد منه أم أن دوراته بيد الله ولا حيلة للفلك فى ذلك ، ثم يتساءل ابن الشبل إن كان هناك فضاء آخر لهذا الفلك ؟ وهل للأرواح حياة تخلده بها فى العالم العلوى حيث ترفع إليه ، أم يلحقها الفناء مع أجساد المخلوقات فى العالم السفلى ؟ ثم يستمر فى استعراض حيرته وألغازه فيقول :

ودهــــر ينثر الأعمار نـــثرا

كما للـــــورد فى الروض انتشار

---

(١) دمية القصر — للباخرزى — جـ١ ص ٣٥٢ وما بعدها

ودنيا كلما وضعت جنينا غذته من نوائبها ظؤار
هى العشواء ما خطبت هشيم هى العجباء ما جرحت جبار
فمن يوم بلا أمس ويوم بغير غد إليه بنا يسار

فالأعمار ورود تستطها يد الدهر ، والدنيا أم غشوم تلد ولا ترضع، وما تغتاله بحرابها لا يصلح للبقاء ، وما الحياة غير يوم مشئوم لا أمس له ولا غد .

وهذه الألوان من الشعر الفلسفى موجودة بكثرة لدى العلماء ، ولعل من أشهرها وأكثرها سيرورة، ما أنشده أبو النفيس ، أحد الفلاسفة الشعراء فى القرن الرابع الهجرى إذ يقول(١):

فى النفس والجسم إن فكرت معتبر
بل دون ذلك ضل الرأى والفكر

وحار كل لبيب فى اتحادهما
وتلك عين وهذا حكمه الأثر

ياليت شعرى إذا الأبدان أضمرها
يد البلى وحواها الترب والمدر

هل للنفوس التفات نحو عالمها
كما تلفت نحو المركز الحجر

ليحصل الفوز فى دار الخلود لها
وتنتفى دونها الآفات والغير

---

(١) صوان الحكمة — لأبى سليمان المنطقى السجستانى — ص ٣٥٩ (تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى)

أم تضمحل كما قد بان هيكلها
ولا يحس لها ورد ولا صدر

هذا الذي صدئت منه خواطرنا
وليس يجلو صداها العلم والخبر

فلا علم بمصير النفس بعد فناء الجسد إلا الله وحده ، أما كونها تفنى مع الجسد أو ترقى بعد انتهاء دورته فى الحياة إلى الملكوت الأعلى ، فذلك هو الأمر المحير والمشكلة المعقدة لدى جماعة الفلاسفة كما نرى .

وعلى كل فتلك صياغات محكمة لأفكار عميقة ومعان دقيقة ، تدل على تمكن من النظم لا يقل عن تمكن هؤلاء الفلاسفة فى علومهم ، إن لم يميزهم بتلك المنظومات عن غيرهم من المتخصصين فى الشعر ، إذ لا وجود لمثل هذه الألوان الفنية فى منظوماتهم .

وحين ينتقل بنا المقام إلى الحديث عن الشعر التعليمى ، فسنجد أن العلماء قد تبوءوا بجدارة صدارة هذا الفن ، إن لم يكونوا قد ضيقوا المكان على غيرهم فيه حتى لم يكد يرى فى كل أزمنته ومنظوماته سواهم ، مما يدل على طول باعهم فيه ، وتمكنهم من صناعته الشعرية فى مختلف المواد والعلوم وان تفاوتت القصائد والمنظومات فى عدد الأبيات قلة أو كثرة .

ولعل من أشهرها تلك الألفيات من الأبيات التى تذكر منها : فى النحو والصرف : ألفية بن مالك وألفية السيوطى وألفية ابن معطى ، وفى الأصول : ألفية البرماوى ، وفى علوم البيان : ألفية السيوطى وألفية القباقبى ، وفى المنطق نجد ألفية أبى الوفاء المصرى ، وفى مصطلح الحديث نجد ألفية السيوطى وأيضا ألفية العراقى ، كما نجد فى الطب ألفيته داود الأنطاكى ، وفى تعبير الرؤيا ينظم فيها ابن الوردى أيضا ألفيته .

وتعد منظومة الدمشقى (بدر الدين) : من أطرف وأحكم ما كتب عن العلاقة بين الرجل والمرأة وما فى حياتهما من الآداب والأحكام حيث تجاوزت اثنى عشر ألف بيت .

وكلها دون شك ترقى بأصحابها إلى سماوات العمل الأدبى والفنى حيث القدرة على سرد الحقائق العلمية، أو الأحكام الشرعية، أو القواعد اللغوية، أو غير ذلك بتعبير فنى رقيق، وإحكام فى الصياغة والنظم دقيق، مع الإيجاز، وقرب المأتى، ورفعة الغاية التى لا يطلبون لها الأجر إلا من الله وحده، إذ لاهم لهم سوى إفادة المتلقى وطالب المعرفة، بأيسر لفظ وأفصح كلمة، فى سلاسة وعذوبة، تنبث من خلالها الحكمة أو الموعظة الحسنة، كلما استطاع الناظم ذلك .

وحسبنا أن نذكر من حشدهم النظمى الزاخر بالمعرفة فى هذا المقام، بعض المطالع النظمية التعليمية لمجرد الاستئناس، وعدم الغفلة عن كثير من مزاياهم الشعرية .

ومن ألوانهم المتعددة فى مجالات العلوم، ما أنشده ابن دريد فى المقصور والممدود، إذ نراه يبدؤها بما يفتح أوله فيقصر ويمد، والمعنى مختلف، وهكذا، فيقول(١) :

لا تركنن إلى الهوى ... واحذر مفارقة الهواء
يوما تصير إلى الثرى ... ويصير غيرك بالثراء

فانظر كيف يسدى النصح داخل هذا النسج العلمى التعليمى الدقيق، والذى ينساب فى منظومته برقة إلى آخرها .

---

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة) ص ٢٩

ثم لننظر أيضا إلى منظومة العلامة « ابن شقرون » فى الطب، ولنتأمل فى أبياته التى يقول منها :

وبعد ، فالقصد بهذى الجمل ذكر مزاج قوتنا المستعمل
طبع الحبوب ومركب الغذا وماله نفـــع وماله أذى

ويقول فيها أيضا :

وربما نذكر من مياه أمرا كثير الناس عنه ساهى
نتبعــــه أدوية نفيسـة تذهب أمراضا بدت خسيسه
كما نجيد القول فى اللباس وفى المساكن ومأوى الناس
ونبسط التعبير فى المقال كيما يرى مطابق السؤال

وهكذا تنساب أبيات ابن شقرون ، على سجيته وبطبعه البعيد عن التكلف أو الصنعة مع احتواء نظمه هذا على تلك الأمور النافعة والمتعددة، والتى ذكرنا جانبا منها فى إجمال يتبعه بتفصيل وقدرة على النظم وجمال فى التعبير والتصوير .

أما فى مقام الرثاء فقد بد الكثير من العلماء آيات منظومة تقطر كلماتها أسى ولوعه لشعورهم بجلال الفقد وأثر الفجيعة عندهم .

ولا غرابة فى ذلك ، إذ كانت تصدر منظوماتهم فى الرثاء عادة من المحبـــين وذوى العاطفة الصادقة تجاه من يرثونهم من آلهم أو إخوانهم أو رفاقهم فى الحياة ، أو ممن تربطه بالراثى رابطة العلم المتينة كأن يكون شيخه أو تلميذه وهكذا .

ومن هذا اللون ما أنشده شهاب الدين محمود القرشى فى رثاء شيخه نجم الدين الطبرى قاضى مكة حيث يقول فى مطلعها(١) .

---

(١) العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين حـ ٣ ص ٢٢ .

ما للجفون بها التسهيد قد نزلا
وما لطيب الكرى عن مقلتى رحلا
ما بال قلبى بتذكار الهموم له
شغل ودمعى إن كففته هملا
نجم أضاء علينا صبح طرته
حتى إذا ما انجلت أيامه أفلا
مفتاح كنز علوم الدين كم فتحت
به بصائر قوم للورى ذللا

فانظر إلى هذا الاستهلاك المؤثر وكيف يهيء نفس المتلق لمشاركته آلامه ويشد انتباه السامع إلى عظم خطبه وفادح أثر الفقد على عين الشاعر وقلبه (ترجمانى المشاعر والأحاسيس عند الناس أجمعين) .

ثم لنقرأ ما أنشده العالم الصوفى : أبو الحسن محمد بن عمر الأنبارى فى رثاء صديقه الوزير ابن بقية بهذه القصيدة الشهيرة والتى يبدؤها بقوله(١) :

علو فى الحياة وفى الممات   لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا   وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا   وكلهم قيام . للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء   كمدهما إليهم بالهبات

فأى تعبير وتصوير يبلغ من القلب ما بلغه الشاعر فى هذه الآيات ؟ إنها دون شك من كلمات القلوب .

---

(١) وفيات الأعيان حـ ٥ ص ١٢٠ .

وعندما تسقط مدينة « بربشتر » الأندلسية أمام النورمانديين (فى عهد الخليفة المقتدر بن سليمان) تتفاعل فى نفس العالم الزاهد الفقيه المحدث: ابن العسال مشاعر الإيمان والغيرة على بلاد المسلمين وأبنائها ، فيرثيها بهذه الأبيات التى يدفع بها القلوب إلى الذود عن حياض البلاد ، معرضا بما ارتكبه الغازون فيها من فضائح وأهوال يندى لها الجبين ، فيقول[١] .

ولقد رمانا المشركون بأسهم
لم تخط ، لكن شأنها الإصماء

هتكوا بخيلهم قصور حريمها
لم يبق لا جبل ولا بطحاء

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها
فى كل يوم غارة شعواء

باتت قلوب المسلمين برعبهم
فحماتنا فى حربهم جبناء

كم موضع غنموه لم يرحم به
طفل ولا شيخ ولا عذراء

ولكم رضيع فرقوه من امه
فله إليها ضجة وبغاء

ولرب مولود أبوه مجدل
فوق التراب وفرشه البيداء

ومصونة فى خدرها محجوبة
قد أبرزوها مالها استخفاء

---

(١) الروض المعطار — للحميرى — ص ٤٠ وما بعدها (طبعة لجنة التأليف والنشر) ١٩٣٧ .

ثم نختم جولتنا هذه بمنظومة الفيلسوف والطبيب والفلكى والأديب : « ابن الشبل البغدادى » فى رثاء أخيه ، مجتزئين منها هذه الأبيات التى يقول فيها (١) .

يا أخى عاد بعدك الماء سما	وسموما ذاك النسيم الرخاء
كيف أرجو شفاء مابى ومابى	دون سكناى فى ثراك شفاء
شطر نفسى دفنت ، والشطر باق	يتمنى ، ومن مناه الفناء
إن تكن قدمته أيدى المنايا	فإلى السابقين تمضى البطاء
إنما الناس قادم إثر ماض	بدء قوم للآخرين انتهاء

وجنوح العالم الشاعر إلى الفلسفة يبدو بوضوح فى : عمق الفكرة ودقة المعنى وتمكنه من اللغة يتراءى فى: قدراته على تخير الألفاظ وملاءمتها التامة لتوضيح فكرته ، وسعة ثقافته وتعدد معارفه يتجسد فى : روعة تصويره ، وتحليق خياله ، ومشاركتها فى الوفاء بمراده ، وأصالة موهبته وطبعه الشعرى يتجلى فى : تدرجه المقصود بالمعنى إلى الغاية خلال الأبيات فى يسر وبساطة ، ثم فى ختمها بالحكمة التى يتراءى بها فصل الخطاب .

وهكذا تبدو الكلمات والعبارات والأخيلة ، وقد انتظمت بوعى وإدراك فى سلك الأبيات ، بما يشهد له ، كما يشهد لكثير سواه من العلماء بالقدرة والتمكن من النظم ، بنفس القدرة والتمكن من المواد العلمية التى عرفوا بها وأفنوا أعمارهم فى سبر أغوارها .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

وبعد :

فقد كانت هذه جولة سريعة فى رياض الأدب لعلمائنا الشعراء، أمتعت الأبصار فيها بالتطلع إلى غراسهم النضرة المتباينة وخشعت القلوب الواعية إلى همس كلماتهم، وسحر بيانهم، وذلك خلال ما تناولناه من أغراض وفنون شعرية . نسجت أيديهم لها مختلف الأردية وتميزت برفعة الغاية وسمو الهدف ، كما رأينا فى مدائحهم ، وغزلهم ، وهجائهم ، وفخرهم فوق مالم نره فى أشعار غيرهم ولا يطاول بنظم سواهم من فحول الشعراء كما رأينا فى الشعر التعليمى ، والشعر الفلسفى ، والاعتداد بالنفس .. الخ .

وبهذا يمكن القول : إن ما قدمه العلماء فى منظوماتهم من مهارات وإبداع وابتداع ، فوق ماهم من قدرات علمية ، ومعارف وثقافات متعددة، يجسد لهم بافتخار ملامح الجلال والعظمة من خلال إنتاجهم الشعرى الذى يعد من أخصب المواد الأدبية للدراسة والتحليل، وأجدرها بالبحث والتنقيب فى تراثنا الجليل، لاستخراج مالاشك فى نفعه ولا جدال فى طرافته وعظيم أثره :

دكتور / حلمى أبو العز

مراجع البحث

١ — ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان ، د محمد عبد المنعم خفاجى — الحلبى .

٢ — ابن المعتز العباسى — ذ أحمد كمال زكى — أعلام العرب .

٣ — أثر القرآن فى تطور النقد العربى — د محمد زغلول سلام — ط — دار المعارف .

٤ — أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجانى — تحقيق د خفاجى .

٥ — إعجاز القرآن — الباقلانى — بهامش الإتقان .

٦ — بديع القرآن — ابن أبى الإصبع — ط — نهضة مصر .

٧ — البديع — ابن المعتز . ت — كراتشكوفسكى . العراق .

٨ — البديع فى نقد الشعر — أسامة بن منقذ ط — مصطفى الحلبى .

٩ — بغية الإيضاح — الخطيب القزوينى — شرح عبد المتعال الصعيدى .

١٠ — بلاغة أرسطو بين العرب واليونان — د . ابراهيم سلامة .

١١ — البلاغة تطور وتاريخ — د . شوقى ضيف — دار المعارف .

١٢ — البلاغة عند الجاحظ — د . أحمد مطلوب — الدار الوطنية بالعراق .

١٣ — البيان والتبيين — الجاحظ ت — عبد السلام هارون .

١٤ — تأويل مشكل القرآن — ابن قتيبة ت — السيد صقر .

١٥ — تاريخ الأدب العربى — الزيات — دار الثقافة بيروت .

١٦ — دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجانى — ت محمود شاكر .

١٧ — زهر الآداب — الحصرى .

١٨ — الصبغ البديعى فى اللغة العربية — د . أحمد موسى .

١٩ — الصناعتين — أبو هلال العسكري — الآستانة .

٢٠ — علم البديع والبلاغة عند العرب — كراتشكوفسكى — ترجمة الحجيري .

٢١ — العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقدة — ابن رشيق — ت — محمد محي الدين .

٢٢ — قدامة والنقد الأدبي — د.بدوى طبانه .

٢٣ — قواعد الشعر — ثعلب ت : د . خفاجى .

٢٤ — مفتاح العلوم — السكاكى — ط — مصطفى الحلبي .

٢٥ - مفهوم الاستعارة فى بحوث اللغويين . . . د . أحمد عبد السيد الصاوي .

٢٦ — الموازنة بين أبي تمام والبحترى — الآمدى — ت السيد صقر .

٢٧ — نقد الشعر — قدامة بن جعفر — ت — خفاجى.

٢٨ — نقد النثر — ت . العبادى .

٢٩ — النقد المنهجي عند العرب — د. محمد مندور — ط — نهضة مصر .

حتمية التراث

لتأصيل المواهب الشعرية الجادة

د. محمد كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله ، المبعوث رحمة للعالمين .

أما بعـــد

فلقد ترك لنا شعراؤنا العرب من لدن العصر الجاهلى وحتى العصر العباسى تراثا شعريا يعد وثيقة حياتية دقيقة لأجيال هذه الأعصر ، ومعلما تاريخيا لطبيعة النفس البشرية الواعية فى مواجهتها للتيارات الفكرية والصراع الحضارى رغبة فى الأفضل وطمعا فى البقاء .

ومما يسترعى الانتباه حقا أن هذا التراث الشعرى قائم على أصول فنية وطاقات تعبيرية ، يقف أمامها المتلقى المتذوقه ، والقارىء الحصيف عاجزاً عن تطويقها أو حتى عن استيعابها ذلك الاستيعاب الذى يفض بكارتها ويجعلها لقمة سائغة لكل من تسول له نفسه اقتناصها دون التزود بما يؤهله ليكون جديراً بها .

ولا أحسبنى مبالغا إذا ما قلت: إن هذه الأصول الفنية وتلك الطاقات التعبـــيرية تمثل رافدا من روافد الفصاحة التى من الله بها على العرب وجعلها سمتا خاصا لهم دون غيرهم ، وإلا لما نسب الشاعر العربى القديم إبداعه إلى الشياطين — وقد كانوا ينسبون كل شىء خارق إلى الشياطين لأنهم كانوا يعتقدون حسب زعمهم أن ما يعجز عنه الإنسان لا يمكن حدوثه إلا عن طريق الشيطان — وذلك على نحو قول أحدهم :

إنى وإن كنت صغير السن وكان فى العين نبو عنى

فإن شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن

ووصل بهم زعمهم إلى أن جعلوا الشياطين قبائل ، فشيطان حسان بن ثابت من بنى الشيصبان ، وذلك على حد قوله :

إذا ما ترعرع فينا الغلام — فما إن يقال له من هوه ؟
إذا لم يشد قبل شق الإزار — فذلك فينا الذى لاهوه
ولى صاحب من بنى الشيصبان — فطورا أقول وطورا هوه (١)

وقد ظل الشعر العربى على امتداد هذه الأعصر متمتعا بهذه الأصول وتلك الطاقات تباها بها ، بحسبها لها ، وذلك بفضل شعرائه الذين وضعوا نصب أعينهم أشعار من سبقهم مستلهمين لأصولها . . . . مسترفدين لطاقاتها ، واعين لأبنيتها وتراكيبها ، مقدرين ما فيها من جهد فى سبيل تطويع ألفاظ اللغة إلى ما يريده الشاعر ، وحرصه على استثمار خصائص الكلمة ، واعتصار أكبر كمية من الايحاءات الحادقة .

وكان من نتاج ذلك أن شهدت ساحة الناطقين بلغة الضاد على امتدادها المتزامن مع الفتوحات الإسلامية طوال هذه الأعصر شعراء عمالقة ساهموا بإبداعاتهم فى جعل الأدب العربى قمة شامخة ومنارة هادية بين آداب الأمم الراقيه من حولنا .

والباحثون فى تاريخ أدبنا العربى قدامى كانوا أو محدثين ، عربا كانوا أو مستشرقين لم يصلوا إلى طفولة محققة للشعر العربى وإنما كشف لهم بحثهم وتقصيهم الدائب والمستمر عن شعر . . . . زاخر بأسرار الفصاحة متمتع بروفق البلاغـة اشعراء فحول . . . استمدوا فحولتهم من تراث لم تعرف أصوله بعد .

وهاهم أولاء شعراء العربية الأول ، والذين يعدون أقدم ما وصلت

---

(١) الحيوان ج٦ ص ٢٣١

إليه جهود الباحثين يصرحون فى أشعارهم بأنهم لم يتبوءوا . . تلك المكانة السامقة فى ميدان الشعر وقرضه إلا بفضل تتبعهم لآثار السابقين عليهم . وهاهو ذا امرؤ القيس يقول(١) :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

وهاهو ذا زهير يقول(٢) :

ما نرانا نقول إلا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

وعنترة بن شداد يقول(٣) :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وقد أدرك الشعراء بعامة ، والتواقون إلى الشهرة والتفوق .. بخاصة — وذلك فى كل عصر شهد فيه الشعر تقدما وازدهارا — قيمة تتبع إبداعات السابقين ، بل والمجيدين من المعاصرين لهم ، فانكبوا عليه متذوقين مستلهمين .

ولا نذهب بعيدا إذا ما قلنا : إنه وجد من بين عمالقة الشعر فى عصوره الذهبية الأولى من ثاروا على بعض الأطر والتقاليد للقصيدة العربية كل فى حينه ، وذلك على شاكلة بشار وأبى نواس فى القرن الثانى الهجرى ، إذ دعا كل منهما إلى الخروج بالقصيدة العربية — من إطار الكلاسيكية الجديدة التى شهدتها القصيدة الأموية إلى إطار جديد تكون فيه قادرة على التعبير عن المجتمع الجديد(٤) .

---

(١) ديون امرىء القيس ١١٤ تقديم حسن السندوبى
(٢) ديوان زهير ٩٥ تقديم أكرم البستانى
(٣) ديوان عنترة ٧٣ تقديم فوزى عطوى
(٤) تاريخ الشعر فى العصر العباسى ٧ د/ يوسف خليف

والناظر لشعريهما يجد فيه ما يوحى باعتداد الشاعرين بما ذهبا إليه فى ميدان الشعر ، وهاهو ذا بشار يقول ماذجا واقعه الخلقى المشاهد — بكسر الخاء — باعتداده بذكائه — حسب زعمه — بعامة وما ذهب إليه فى ميدان الشعر بخاصة(١) :

عميت جنينا والذكاء من العمى   فجئت عجيب الظن للعلم معقلا

وغاض ضياء العين للقلب فاغتذى   بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

وشعر كنور الأرض لاءمت بينه   بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

وهاهو ذا أبو نواس يسخر بعنف من تلك المطالع الطللية للقصيدة العربية وذلك فى قوله(٢) :

عاج الشقى على دار يسائلها   وعجت أسأل عن خمارة البلد

لا يرقأ الله عينى من بكى حجرا   ولا شفى وجد من يصبو إلى وتد

دع ذا عدمتك واشربها معتقة   صفراء تعتق بين الماء والزبد

وفى القرن الثالث الهجرى .. تصطدم صيحات الداعين إلى الزخرف اللفظى والعمق العقلى بصيحات الداعين إلى الحفاظ على عمود الشعر وسمته ... المسطح الواضح ، وكان على رأس التيارين أبو تمام والبحترى .

ثم يطالعنا القرن الرابع الهجرى بشاعره — المتنبى — الذى شغل الوسط الأدبى وما زال — ليدعو إلى عودة القصيدة العربية لروحها البدوى فى غير انفصال عن روح العصر الجديد بما يحمله من ثقافات عقلية فحقق بهذا مزاوجة عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطريتها وبين ؟ ثقافة عصره العقلية بقضاياها المعقدة(٣) .

---

(١) الأغانى ١٣٦/٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) ديوان أبى نواس ١٨١ تقديم أحمد عبد المجيد

(٣) تاريخ الشعر فى العصر العباسى ٨ د/ يوسف خليف

ومما تجدر الإشارة إليه أن ما نادى به مثل هؤلاء الشعراء ، ودعوا إليه ، قد لاقى قبولا وتقديرا من النقاد المعاصرين لهم والذين وقفوا على نتاجهم من بعدهم ، يتضح ذلك من تلك الألقاب التى أطلقوها عليهم .

فبشار أبو المحدثين ، وأبو تمام زعيم المجددين ، والبحترى زعيم المحافظين ، والمتنبى شاعر العربية الأكبر أو جبار الشعراء .

والواقع ، أن الفضل الأكبر لهذه الزعامات يرجع إلى وقوف هؤلاء الشعراء طويلا أمام تراث سابقيهم مستوعبين هاضمين ، ولولا ذلك لما تمكنوا من أن ينسب إليهم مجد ، أو يضيفوا إلى تراثهم من المضامين الفكرية والقيم الجمالية ما يتفق مع أزمنتهم وتطورها .

وهاهو ذا أبو نواس — يتزود باللغة على يد خلف الأحمر ثم يمضى إلى البادية فيقيم بها حولا كاملا ينهل اللغة من ينابيعها ثم يقبل على دواوين الجاهليين والإسلاميين فيحفظها ، ويقول الجاحظ عنه : ما رأيت أحدا كان أعلم باللغة من أبى نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه . ويقول عنه أبو عمرو الشيبانى : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره لأنه محكم القول(١) .

وهاهو ذا أبو تمام يتجاوز مرحلة التزود والحفظ إلى اختيار أشعار لعدد من الشعراء الجاهليين والإسلاميين وتدوينها فى كتب خاصة إعجابا بها وجعلها منارة يسير على هديها الطامحون فى تأصيل ملكاتهم إلا بداعية . فكان منها — الاختيار القبائلى الأكبر — وقد اختار فيه قطعا من محاسن أشعار القبائل ... ومنها الاختيار الذى تلقط فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام وأخذ من كل قصيدة شيئا حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة .

---

(١) الشعر العباسى تطوره وقيمه الفنية ٣٢ د / محمد أبو الأنوار

وهو اختيار مشهور معروف بـ « اختيار شعراء الفحول » ومنها اختيار تلقط فيه أشياء من الشعراء « المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين وبوبه أبوابا وصدره بما قيل فى الشجاعة وهو أشهر اختياراته وأكثرها فى أيدى الناس ويلقب بـ «الحماسة» ومنها « اختيار المقطعات » وهو مرتب على ترتيب الحماسة إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين وصدره بذكر الغزل ، ومنها اختيار مجرد فى أشعار المحدثين(١) وعلى منوال أبى تمام نسج البحترى فجمع مختاراته المعروفة بـ « حماسة البحترى . معجبا ومرشدا .

لذا لا نعجب من أن تحرم ساحة الشعر العربى لقرون طوال عقب انهيار الخلافة العباسية من شعراء نابهين لأسباب شتى تكاتفت جميعها لقطع صلة الشعراء بينابيع الشعر الأصيلة انقطاعا أفسد أذواقهم وأخمد قرائحهم فعمت فى أشعارهم التعبيرات الركيكة المبتذلة والمعانى السقيمة والأساليب الملتوية ، وتحول الإبداع الشعرى إلى نوع من المهارات اللفظية المصطنعة والألغاز واللعب بالكلمات ، حتى وصل إلى مرحلة من الإنحدار جعلت الكثيرين من المهتمين بالأدب العربى والغيورين عليه يعتقدون أن العودة بالشعر إلى عصوره الأولى والتى عرف فيها بقوة نسجه ومتانة تراكيبه ضرب من الوهم والخبال ، فما كان من « البارودى » إلا أن فاجأهم بما لم يكن فى الحسبان — إذ وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحه والمتانة وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد كأنه القمة الشاهقة تنبت فى متون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه طريق الوصول إلا أن تستدير لها من القمم التى تليها وتقرب منها ، فإذا أوسلت بصرك نحو خمسمائة سنة وراء عصر

---

(١) السرقات الأدبية ٤٥ در بدوى طبانة .

البارودى لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه ، وكنت كمن يقف على رأس الطور المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والكثبان والوهاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد(١) .

وشيء طبعى أن تشهد الساحة الأدبية آنذاك الكثيرين من المعجبين بصنيع البارودى وبخاصة هؤلاء الذين سيطر عليهم القلق والفزع على الأدب ولغته ، فها هو ذا شكيب أرسلان أحد الأدباء اللبنانيين يعبر عن إعجابه بصنيع البارودى حينما قرأ شعره بقوله :

فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ورقصنا على سبقه وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين وأن يسامى بنفسه أنفاسهم(٢) .

ويعلق د/ سامى الدهان على شدة إعجاب شكيب بشعر البارودى وخلفه لشتى الحيل والوسائل التى تمكنه من الاتصال به فيقول :

واعترف بأنه كان يتلو شعر البارودى كل يوم بعد تلاوة كتاب الله ويترنم به فى نجواه ويجعله نقل أسماره وغبوق ليله وصبوح نهاره فما لبث أن أهتدى إلى وسيـــلة يبلغ بها مراسلته وهو أن يستشهد بشعره فى مقالاته التى كان ينشرها فى الأهرام بذكر اسمه وبغير ذكره مرة أخرى ونعته بلقب أمير الشعراء(٣).

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٣١ وما بعدها عباس محمود العقاد
(٢) شوقى أو أصداقه أربعين عاما ١٠١ شكيب أرسلان
(٣) الأمير شكيب ١٤٥ د/ سامى الدهان

ومما قاله الأديب — خليل مطران — ولا ننسى له أى للبارودى فضلا جديرا بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثه الحديثة بمعنى أنه أول من رد الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين ، وما أبز فريضة لقريض جيله ، فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعدا إلى أرقى أزمنة العرب فهى كالجبال الشامخة وحولها القصائد الأخرى كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختيار ولا نسق ولا هندام(١).

على أن البارودى لم يتبوأ هذه المكانة فى دنيا الشعر إلا لإصابته فى اختيار طريق الشهرة والتفوق المتمثل فى دواوين الشعراء من لدن العصر الجاهلى حتى العصر العباسى ، حيث تتبع مراحل تطورها ومارافقها من أزياء وتقاليد فى الأسلوب والمعانى والأغراض والموسيقى والصور والنظم على غرارها حتى تمكن من توطيد الصلة بيننا وبين شعراء هذه الأعصر وجعلنا نعيش وكأنما حياتهم لم تنقطع عنا .

وقد أشار البارودى إلى هذه الحقيقة كثيرا فى شعره مع حرصه على أن يبين أنه لم يكن بوقا لهؤلاء الشعراء فى تلك العصور فحسب وإنما كانت له شخصيته الشاعرة والكاشفة عن رؤيته الخاصة للحياة والأحياء وذلك فى مثل قوله(٢) :

مضى «حسن» فى حلبـــة الشعر سابقا
وأدرك لم يسبق ولم يأل «مسلم»

وباراهما «الطائى» فاعترفت له
شهود المعانى بالتى هى أحــكم

---

(١) المجلة المصرية العدد الرابع ٤٣٥
(٢) ديوان البارودى جـ٣ ٤٢٩ وما بعدها

وأبدع فى القول «الوليد» فشعره
على ما تراه العـــين وشى منمنم

وأدرك فى الأمثال «أحمد» غاية
تبز الخطى ما بعدها متقـــدم

وسرت على آثارهم ولربما سبقت إلى أشياء والله أعلم

وحق له أن يفخر بعمله هذا وينبه على شعراء عصور مضت ضلوا طريق الأصالة والإبداع الجيد فوأدوا مواهبهم البكر وقدموا حياتهم قربانا لزوايا الإهمال ومرارة النسيان وذلك على نحو قوله(١) :

أحييت أنفاس القريض بمنطقى
وصرعت فرسان العجاج بلهذمى

وقوله(٢) :

قومته بعد اعوجاج قناته . والرمح ليس يروق غير مقوم

ولم يقف البارودى عند حد تتبعه لتراثنا الشعرى فى عصوره الزاهية والوقوف على أسراره مستلهما مستفيدا وإنما أراد أن يفيد غيره — فاختار ثلاثين ديوانا لثلاثين من الشعراء العباسيين يبدءون ببشار بن برد وينتهون بشرف الدين أبى العباس بن عنين، وانتخب من هذه الدواوين مارق لفظه ودق معناه وخلا من الحشو والتعقيد مرتبا ذلك على سبعة أبواب : الأدب — المديح — الرثاء — الصفات — النسيب — الهجاء — الزهد(٣) .

وقد أراد البارودى من وراء ذلك — أن يتحف الأدباء من أهل عصره

(١ ، ٢) ديوان البارودى جـ٣ ص ٤٨٧ وما بعدها
(٣) مقدمة مختارات البارودى ٣

بمجموعة مختارة من شعر فحول الشعراء المولدين لتكون عونا للناشئين على طبع ملكة البلاغة(١).

أضف إلى هذا تشجيعه لإقبال الشعراء عليه فى بيته حتى بعد عودته من منفاه وقد ضعف جسمه ووهن نشاطه وذهب نور عينيه أو كاد، يقول د/ عبد الحميد الجندى :

وكان حافظ إبراهيم يذهب إلى أستاذه — يعنى البارودى = فى داره الفسيحة بخيط العدة بالقرب من باب الخلق بعد أن آب من منفاه وهناك كان يلتقى بلفيف من شباب شعراء ذلك العهد فيتحلقون حول أستاذهم العظيم ويعرضون عليه ما أفتجته قرائحهم، وكان الأستاذ لا يضن عليهم بتوجيهاته الغالية(٢) وذلك رغبة منه فى تبصير المواهب الشابة نحو الطريق السوى لتأصيل الملكات الإبداعية وقدرتها على استلهام الماضى فى التعبير عن إيقاع عصرها .

ومن هذا المنطلق فإنه يمكن القول : إن البارودى فتح لمعاصريه من الشعراء النابهين أهم روافد التألق والنجومية وبدلا من أن يقفوا عند حد تراثهم اتجه الكثيرون منهم إلى الجمع بينه وبين آداب الأمم الأخرى فأضافوا إلى الشعر العربى ما جعلهم فى سجل الخالدين .. وها هو ذا شوقى على سبيل المثال يمزج بين استيعاب للتراث العربى وآداب الأمم الأخرى وبخاصة الأدب الفرنسى، فيضيف إلى شعرنا مالم يكن يعهده من قبل، وقد تمثل ذلك فى مسرحه الشعرى هذا فضلا عن تجديده فى جوانب كثيرة من الشعر من حيث بناء القصيدة وتكوين الصور الشعرية، ومما قاله د/ طه حسين فى هذا الصدد : كان شوقى يحسن التركية وكان متقنا للفرنسية قد برع فيها نطقا وفهما، وكان أول أمره كثير

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ٢٢ خليل مطران

(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل ٩٢ د/ عبد الحميد الجندى

القراءة حريصا على الفهم فقرأ كثيرا ، وتمثلت نفسه ما قرأ وما فهم . وانضم إلى هذه العناصر التى كانت تركب طبيعته عنصر جديد هو العنصر الفرنسى الذى عمل فى عقله وخياله ومزاجه كله ونمت العناصر الأخرى بالقراءة والحياة ، عاشر شوقى العرب فى شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية ، وعاشر الترك فى حياته اليومية واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركى فيــه ، ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقى قدماء اليونان كما عاشر قدماء العرب ولو قد فعل لأهدى إلى مصر شاعرها الأكبر »(١) .

وقد حدث أن وجد أدباء جمعوا بين الشعر والنقد فكانت لهم إبداعاتهم الشعرية ونظرياتهم النقدية وغالباً ما كانت نظرياتهم هذه تتسم بطابع التمرد على بنية القصيدة التراثية وما جاء على غرارها من أشعار المعاصرين لهم ، إلا أن هؤلاء الأدباء لم يغفلوا عن إلمامهم بالتراث شأنه فى ذلك شأن اهتمامهم بآداب الأمم الأخرى والتى كانت تعد محركا أساسياً فى تكوين نظرياتهم النقدية .

وهاهم أولاء عبد الرحمن شكرى ، وعبد القادر المازنى ، وعباس محمود العقاد يحاولون التجديد فى الشعر العربى ليكون مسايراً لما درسوا من آداب الأمم الأخرى وبخاصة الأدب الانجليزى وجعلوا من اتجاهم هذا مدرسة نقدية إبداعية أطلق عليها مدرسة الديوان ، ومع ذلك احتل تراثنا الشعرى جزءاً كبيراً من مكونات مواهبهم النقدية وملكاتهم الإبداعية .

فالمازنى — على سبيل المثال — نرى فى شعره نظرته السوداء إلى الحياة وتذبذبه بين الإقبال عليها والنفور منها ، كما نرى فيه استخفافه بالحياة والأحياء وتهكمه من كل شيء وسخريته بكل شيء وذلك لا يمكن أن يجعلنا نغض الطرف عما يحتويه من تقليد ومحاكاة ، فنحن نرى أن المازنى على

---

(١) حافظ وشوقى ٢٠٠ د / طه حسين .

الرغم من تجديده ، وعلى الرغم من تطويعه الشعر لوجدانه يقلد شعراء بعينهم ، فنجده يحاكى « ابن الرومى » بل نجده يعارضه فى قصيدتين من مطولاته هما الهمزية ، والنونية مع أن المازنى قد صرح فى أكثر من موضع أن التشطير والمعارضة لا علاقة لها بالشعر الأصيل ، ولكنها تدريب على النظم فحسب ، ونجده كذلك يحاكى مقطوعات مشهورة للشريف الرضى ، والحق أنه تأثر بهذا الشاعر وكان يعود إلى شعره بين الفترة والفترة(١).

ويفسر — العقاد — سر اتكاء المبدعين الواعين على نتاج سابقيهم والمجيدين من معاصريهم تفسير المبدع الحصيف والذواقة الماهر فى استثمار نتاج غيره والوصول به إلى أرقى مستوى من العمق والنضج وذلك حينما سئل ، لماذا يهوى القراءة ؟ فأجاب :

أهوى القراءة لأن عندى حياة واحدة فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى ولا تحرك كل ما فى ضميرى من بواعث الحركة، والقراءة دون غيرها هى التى تعطينى أكثر من حياة واحدة فى مدى عمر الإنسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب، فكرتك أنت فكرة واحدة ، شعورك أنت شعور واحد ، خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك ، ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر ، أو لاقيت بخيالك خيـال غيرك ، فليس .. قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين أو أن الخيال يصبح خيالين، كلا وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر فى القوة والعمق والامتداد، وأن الفكرة الواحدة جدول منفصل أما الأفكار المتلاقية فهى المحيط الذى تتجمع فيه الجداول جميعاً(٢).

لذا لم يكن بدعاً أن يفتتن العقاد بصنيع البارودى فى اتجاهه إلى

(١) مجلة الهلال عدد سبتمبر ١٩٧١

(٢) ساعات من حياتى : ٢٠١ طاهر الطناحى

التنقيب عن تراثنا الشعرى وإحيائه وأن يتجه هو الآخر إلى السير على نمط شعراء العربية النابهين فى كثير من نظمه فله على سبيل المثال قصيدة نونية نظمها على نمط قصيدة لابن الرومى وله قصيدة خمرية نظمها على نمط ابن الفارض .

ومما تجدر الإشارة إليه أن شعراءنا العرب الذين هاجروا بعيدا عن ساحة الأدب العربى وكونوا الرابطة القلمية ثم العصبة الأندلسية وتميزوا بطابع خاص فى أشعارهم لم تلههم ثقافات الأمم التى نزحوا إليها من الوقوف على أسرار التراث الشعرى العربى والاستفادة منه ، يدلنا على ذلك نتاجهم الشعرى واحتفاؤهم بالعباقرة من الشعراء العرب التراثيين .

فها هو ذا — إلياس فرحات — لم يخل شعره من خطرات الحكمة والمثل يرسلها فى خلال القصيدة وتكثر هذه الظاهرة فى شعر فرحات كثرة تذكرنا بالحكم والأمثال فى شعر المتنبى (١) .

وذلك فى مثل قوله داعيا إلى الإصلاح الإجتماعى بعد أن لعب شيطان الإستعمار دوره الآثم فى نشر الفساد بين أبناء البلد الواحد (٢) .

من ربى لبنان يعلو صوت أحرار البلاد
إن مر الموت يحلو فى سبيل الإتحاد

لا تطيق الشام ضيما من عتاة معتدين
فرقوا الإخوان كيما يستمروا حاكمين

ليس لبنان المغدى غير صدر للشآم
لا يقيم الدين حدا بين إخوان كرام

---

(١) أشعار وشعراء من المهجر ٩٢ محمد عبد الغنى حسن .

(٢) تاريخ الشعر العربى الحديث ٣٢٢ ، ٣٠٥ أحمد قبش .

وها هو ذا — إيليا أبو ماضى — يذكرنا بأبى العلاء المعرى ووقوفه متأملا فى أصل الوجود وذلك فى قصيدته «لست أدرى»، ومما قاله فيها (١) :

كلما أيقنت أنى قد أمطت الستر عنى
وبلغت السر سرى ضحكت نفسى .. منى
قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدنى
فهل الجهل نعيم أم جحيم : لست أدرى
إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أنا لغز وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل ! ذو الحجا من قال إنى : لست أدرى

وها هى ذى العصبة الأندلسية تقيم فى عام ١٩٣٥ م مهرجانا تذكاريا لمرور ألف سنة على وفاة المتنبى(٢) وقد قامت هذه العصبة آملة — فى تجديد طبيعة الشعر العربى ولكن فى هدوء وفى غير ما عنف أو ثورة كما أنها لم تجعل من أهدافها قطع الصلة تماما بين الشعر الحديث والشعر العربى القديم بل كانت على العكس من ذلك راغبة فى بقاء شىء من القديم يصل الماضى بالحاضر ولا يقطع العرب عن التراث الفكرى لآبائهم الأقدمين (٣) .

ولعل فيما قدمت ما يؤكد أهمية التراث الشعرى ومواكبته لكل تيار تجديدى فى ميدان الشعر حتى تتحقق للشاعر أصالته ونجو مبتهدونما أى أكتراث بتلك الدعاوى الهادفة — بقصد أو بغير قصد — إلى تحطيم

---

(١) تاريخ الشعر العربى الحديث ٣٢٢ ، ٣٠٥ أحمد قبش .
(٢) التجديد فى شعر المهجر ٥٢ د / محمد مصطفى هدارة .
(٣) المجلة — عدد أكتوبر ١٩٦٣ .

تراثنا ومقومات لغتنا والتى اشتدت حدتها منذ أواخر العقد الخامس من القرن العشرين وذلك على شاكلة ما نشره — لويس عوض عام ١٩٤٧ م تحت عنوان « حطموا عمود الشعر ، حيث أكد — حسب زعمه — أن الشعر العربى قد مات وأن من يشك فى هذه الحقيقة فليقرأ جبران،وناجى وأمثالهما ، أما شعائر الدفن فقد قام بها أبو القاسم الشابى ، وإيليا أبوماضى ، وطـــه المهندس ، ومحمود حسن اسماعيل ، وعبد الرحمن الخميس ، وعلى با كثير (١) .

والواقع أن مثل هذا الادعاء قد لاقى قبولا من بعض الذين خرجوا على نظام القافية فى الشعر ، وخيل إليهم أن طـــريق الشهرة إنما هو فى استدبار الماضى لأنهم يعيشون حساسية جديدة فى الشعر لا يمكن أن تنمو وتؤتى أكلها إلا بنبذ التراث والإقبال على المترجم من آداب الأمم الأخرى ، فضلوا وأضلوا وأتوا بألغاز وأحاج وشعوذة لفظية وتعقيدات معنوية أصابت التيار الشعرى العام بالضمور والقصور ، وأصبح الشعر مهنة من لا مهنة له .

ولو فطن هؤلاء إلى صنيع رواد حركتهم الشعرية مع التراث لتبين لهم ، أنهم كانوا ولا يزالون على صلة وثيقة به ، فنازك الملائكة — التى تعد الرائدة الأولى لحركة الشعر الحر عند الكثيرين من النقاد والمؤرخين — لم تغفل تراثها الشعرى ولم تتخل عن الشطرين .

وهاهى ذى تقول من إجابة على سؤال وجه إليها : إن هناك فرقا بينى وبين شعراء الشعر الحر ، هو أنهم تركوا شعر الشطرين تركا تاما ، وكأن أوزانه تهينهم ، وهذا يخالف موقفى ، فأنا لم أترك شعر الشطرين الخليلى فى أية فترة من حياتى الشعرية ، وإنما مضيت أستعمل الشكلين معا حسب

---

(١) آفاق عربية عدد يوليو ١٩٧٥ — « مجلة » .

الحاجة الفنية للقصيدة وذلك واضح حتى فى « شظايا ورماد » — اسم ديوان لها — الذى بدأت به الدعوة الحارة إلى الشعر الحر عام١٩٤٩م(١).

وهاهو ذا صلاح عبد الصبور يعكف عامين كاملين على التراث الشعرى العربى يقرؤه ويتمثله ويعجب بأصوات منه ويرفض أصواتا أخرى ،وهاهو ذا أدونيس فى سوريا يعكف طويلا على الشعر العربى فى مختلف عصوره وينتخب لنا منه مختارات ينشرها فى ثلاثة مجلدات ضخمة تحت .. عنوان ديوان الشعر العربى . وغيرهما كثر قاموا بالصنيع نفسه أو قريب منه (٢)

هذه ناحية ، وناحية أخرى أن هؤلاء الذين ضلوا وأضلوا لو تأملوا التراث الشعرى من لدن العصر الجاهلى وحتى العصر العباسى وما جاء بعده من شعر اعتمدت أصوله وطاقاته ومتطلبات حينه على التراث استلهاما واستر فادا لعلموا أنهم ليسوا بدعا فى امتلاكهم لحساسية شعرية جديدة ، وإنما وجدت حساسيات شعرية — حسب اطلاقهم — منذ العصر الجاهلى، وذلك بدءا من زهير بن أبى سلمى ومدرسته ومروراعلى بشار وأبى نواس ثم أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء ثم البارودى وشوقى وروادمدرسة الديوان ، وجماعة أبولو ، وغيرهم . إلا أن هـذه الحساسيات أضافت إلى الشعر من القيم الجمالية والمضامين الفكريه مايؤكد صلتها بالماضى ، ويوثق مسايرتها للحاضر .

وبون شاسع بين استراتيجية هذه الحساسيات وتلك الحساسية .. التى يعيشها كثير من متشاعرى اليوم والأمس القريب .

والمتتبع لتصريحات رواد هذه الحركة الشعرية يشعر بنوع من الإحباط

---

(١) آفاق عربية عدد يوليو ١٩٧٥ — « مجلة »

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية ٣٢ د/ جلال العشرى

واليأس قد سيطر عليهم نتيجة ما أصاب حركتهم من إسفاف وابتذال فى مبناها ومحتواها على أيدى من خدعوا فى تحلل هذه الحركة من إطلالة القافية، وما علموا أنه مازالت ضوابط ونظم - لا يكون الفن فنا إلا بها - فى داخل النتاج الشعرى نفسه لا يستطيع تحقيقها إلا من ملك أدوات الشعر وعمله .

ومما قالته — نازك الملائكة — ردا على سؤال يدور حول أسباب الابتذال فى الشعر الحر وما فيه من غموض وتعمية .

أما أسباب الأبتذال فى الشعر الحر فتكمن فى جهل كثير من الشعراء للغرض منه ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الشعراء لا يعرفون شيئا عن أوزان الشعر العربى ، فهم يخرجون على الوزن فى شعرهم الحر دون أن ينتبهوا أو يلاحظوا ، فضلا عن أنهم يقحمون فى شعرهم تشكيلات وزنية غير منسجمة مثل الخلط بين «متفاعلن فعلن» و «متفاعلن متفاعلاتن» وبينهما بون شاسع يجعل شعرهم قبيح الوقع فى السمع العربى المدرب ، وأبرز عيوب شعرهم الحر أن فيه تقليدا كبيرا يقلد الواحد منهم الآخر فى الصور والأفكار والبناء ظانا أنه يأتى بشعر رائع مع أن شعره مهلهل ضعيف ، ومن الابتذال عندى أن يظن هؤلاء الشعراء أن شعر الشطرين قد مات إلى غير رجعة وأن المستقبل كله لشعرهم الحر ، فالواقع أن الشعر الخليلى لن يموت مطلقا، وأن له مستقبلا عظيما يكتمل حين ينضج الشعر فى عصرنا .

ثم تقول : ليس الغموض إلا ظاهرة من ظواهر التقليد ، يقلد الشاعر الحديث ما يقرأ من شعر غربى ، وأنا أحب الشعر الانكليزى والفرنسى وأجد لذة عميقة فى قراءتهما غير أنى أمقت أن يقلد شعراؤنا هذا الشعر (١)

ومما قاله الشاعر البياتى : إننى أتساءل ما الذى حققه هؤلاء على صعيد

---

(١) آفاق عربية عدد يوليو ١٩٧٧ «مجلة»

الأشكال الشعرية خاصة الشعراء الذين جاءوا بعد جيل الرواد ، لقد غرق معظمهم فى الرمال المتحركة للترجمات الشعرية من آداب الأمم الأخرى ، واستعاروا لغتها وأزياءها وبيانها وبديعها، بل يبدو لى أحيانا أن الغموض الناتج عن قصور فى الرؤية وعجز فى الأدوات الفنيـة أصبح ينعت بأنه محاولة ... إيجاد أشكال جديدة .

كما أتساءل من جديد : من هو الذى يستطيع إيجاد أشكال شعرية جديدة ؟ هل هو الشاعر المبتدىء الذى لا يحسن حتى استخدام لغته التى يكتب بها ؟ قلت منذ البداية : إن إيجاد أشكال شعرية جديدة هو نتيجة من نتائج ثورة المضمون . ولا يمكن أن تتأتى مثل هذه الحالات إلا لشاعر مبدع أصيل وليس لكل من هب ودب (١)

لذا فإنا نناشد هؤلاء الذين أقحموا أنفسهم فى دنيا الشعر أو تجنوا على مواهبهم بانحرافهم عن طريق الجادة والصواب قائلين لهم :

أقبلوا على أدبكم العربى بعامة وتراثكم الشعرى بخاصة ،متتبعين لقيمة .. الجمالية وأصوله الفنيه وطاقاته التعبيرية وقدرته على مواكبة ما يطرأ على مسرح الحياة من تطور فكرى نتيجة تفاوت الأزمنة وتباين الأمزجة .. انتهيا لكم القدرة على الإبداع الجيد، وإن كان لابد من آداب الأمم الأخرى فليس هناك ما يحول دون الإقبال عليها سوى إغفال خصائص الأجناس ، والمواءمة بينها وبين قيمنا وأذواقنا ، ولكم فيمن سبقكم من عمالقة الشعر الذين جمعوا بين التزود من أدبنا العربى وآداب الامم الاخرى القدوة والمثل، وبذلك نقدر تراثنا تقدير آداب الامم الاخرى لتراثها ونصل إلى ما نريده من أصالة وإبداع ... خلاق

---

(١) قضايا الشعر الحديث ٢١١ جهاد فاضل

ولقد وقع من نفسى ماقاله « جوستاف لانسون » من مقال عن منهج دراسة الأدب موقع القبول والرضا إلى حد كبير إذ يقول : نحن نسعى إلى تحديد أصالة الافراد أى الظواهر الفردية التى لاشبيه لها ولا تحديد ولكن مهما يكن الأفراد من العظمة والجمال ، فإن دراستنا لا يمكن أن تقتصر عليهم ، وذلك أولا لأننا لن نعرفهم إذا لم نرد أن نعرف غيرهم فأمعن الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته فلكى نجده لابد وأن تفصل عنه كميات كبيرة من العناصر الغريبة ، يجب أن نعرف ذلك الماضى الممتد فيه وذلك الحاضر الذى تسرب إليه . (١) ولا تختلف الشاعر عن الكاتب فيما ذهب إليه — جوستاف لانسون — من تحديد لماهية الاصالة .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ٤٠٠ د/ محمد مندور

الوادى الجديد

دراسة تاريخية حتى بداية العصر الحديث

دكتور أحمد الحفناوى

تشتمل هذه المحافظة على عدد من واحات الصحراء الممتدة غربى وادى النيل بمصر ، وكان بعض هذه الواحات يتبع من الناحية الإدارية محافظة الصحراء الغربية التى تكونت سنة ١٩٤٦ م ، وكانت قاعدتها مرسى مطروح ، وفى سنة ١٩٦ م ، فصلت الواحتان : البحرية والفرافرة عن محافظة الصحراء الغربية التى تغير اسمها وأصبحت تعرف باسم محافظة مطروح وضمت إلى الواحتين : الداخلة والخارجة وأصبحت تكون محافظة الوادى الجديد ...

وكان للباحثين العرب من قبل — كاليعقوبى والمسعودى وأبى الفدا والمقريزى وغيرهم - شرف الأولوية فى ارتياد الصحارى والسياحة بمجاهلها مستهدفين لأخطارها فى وقت لم يعرف عنها غيرهم إلا النزر اليسير ...

وكانت هذه الصحارى - ولا تزال - حجابا — مقفلا ، وسرا مجهولا منها قال عنها العارفون ، فللصحراء هدوؤها وللرمال المنبسطة سكونها ، ولتلك الجبال الشامخة عظمتها ، ولهذه الصخور الجرانيتية تعدد ألوانها من حمراء قانية إلى زرقاء صافية ومن صفاء سمائها ولمعة نجومها وضيائها خلال لياليها الساحرة ، ثم من جفاف هوائها ، وطلاقته ومن اتساع أراضيها وفراغها ، ومن سكينة القفار وهدوئها ،كل هذه العوامل تلفت نظر الباحث ، وتخلب لب الرواد ، وتجذبهم نحو ارتيادها . ..

وكلمة صحارى تطلق على تلك القفار الممتدة ذات المساحات الواسعة ، وكثبان الرمال الخالية من الماء والنبات ، كالصحارى الكبرى وصحراء جوبى ، لكن صحراواتنا فى مجموعها أبعد — إلى حد ما — من ذلك ، فالآبار فى بعض مناطقها متقاربة ، والواحات فى بعض أجزائها متعددة يانعة تجبب إلى الإنسان ارتيادها والتمتع بمناظرها بشوق مهما كلفه الشوق من مشقة وعناء ، أما ساكنوها من البدو وما فطروا عليه من

البساطة فى المعيشة والسهولة فى التعبير ، يعطينا فكرة حقيقية عن حالة هؤلاء القوم ويصور لنا سر عظمتهم، وبساطة حكمهم ، كما يفسر لنا ذكاءهم وبعد تظرهم فى معرفة النجوم واتجاهاتها وهبوب الرياح وعلاماتها وأوقاتها ، مما يجعلهم سادة هذه الصحارى وأدلتها .

ومن المدهش حقا ، أن يرى المسافر ذلك التباين العجيب بين تلك المروج النضرة التى تحيط بوادى النيل وبين هذه الصحارى المقفرة التى تحده من الجانبين .

أن قارات العالم (كآسيا وأستراليا وغرب أمريكا) ، بها الصحارى الشاسعة المجهولة والأرضى المقفرة ، ولكنك لن تجد فى مختلف بقاع العالم مايماثل بعض مناطق صحرائنا الغربيه فى صمتها ووحشيتها وحالة الجدب التى تطفى عليها ، وليس من الضرورى أن ترتادها لمسافات طويله لتدرك هذه الحقيقة ، فإن خطوات قليلة بين رمالها اللينة يمكن أن تنقل الإنسان من المروج النضرة ، والأرض الخضراء اليانعة الغنية بمياه النيل السعيد إلى هضبات متسعة مقفرة تكتنفها الرمال والصخور على مدى البصر .

ويمكن تقسيم صحرائنا هذه إلى مناطق ثلاث :

١ — المناطق الساحلية :

وهى الشريط الأخضر الذى يطرق ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويشمل الأرضى المتماوجة التى تتخللها الخضرة والقواقع ،وهو أكثر الأقسام عمرانا وازدحاما بالسكان .

٢ — المنطقة الوسطى :

وتشمل هضبة ليبيا والجرف الكبير ، ومنخفض القطارة ، وأراضيه وهضبات وأراضي منخفضة ذات تربة خشنة وعرة تتخللها أحياناً الجروف والأخاديد البارزة المدببة ذات الأحجار الجرانيتية والبالورية .

٣ — المنطقة الجنوبية:

وقد من الله عليها وعوضها خيراً عن الأمطار بعدد من الواحات المنتشرة فيها ذات التربة الخصبة والمياه الغزيرة .

ولقد عرف المصريون القدماء من الواحات سبعاً كانوا يطلقون عليها في كل عصر اسماً يتناسب مع ما كانت تستخدم فيه في ذلك العصر، ولم تكن التسميات ترمى إلا إلى تمييز هذه المنخفضات الحية عما يحيط بها من أرض قاحلة موات .

أما تلك الواحات فهى :

١ — كيغيم أو واحة راس : أى الواحات الجنوبية وهى المعروفة بالواحة الخارجة .

٢ — تسفيس : وهى المعروفة بالواحة الداخلة .

٣ — ويت أى الواحة ولا يعرف لها إسم ولا موضع .

٤ — سكة آمو أو حقل النخيل : وهى المعروفة بواحة سيوة .

٥ — ويتمحث أو واحة الشمال : وهى المعروفة بالواحة البحرية .

٦ — سكة همام أو حقل البلح : وهى المعروفة بوادى النطرون .

وفى الفترة التى زارفيها المؤرخ اليونانى هيرو ديت مصر كان المصريون

القدماء يطلقون على الواحات اسم « جزر الرحمة » لأنها الملاذ الرحيم الذى يقدم الراحة والطمأنينة هبة لكل مرتحل فى درب الصحراء القاحلة الوعرة . بعد تلك الرحلات الطويلة الشاقة ، فيشعره بجمال الحياة فى جداوله الرقراقة وظلاله الوارفة ، فهى الأمل الباسم والرجال المرتقب الذى تيممه القافلة بين ذلك البلقع العريض الموحش .

لذا كان الرومان يسمونها « ويسز » أى نهاية الرحل أو محطة الاستراحة . كذلك عرفها بعضهم « زورزماس » بأنها جزيرة بعيدة وسط الصحراء كل من رسا عليها لا يمكنه الإقلاع عنها ، إذ لا يستطيع أن يتخذ سبيله إلى الهرب فى طرق صحراوية قاحلة جرداء وليس لأقدم البشر بهـــا من أثر يمكن الاهتداء به إلى سواء السبيل .

ولعله عبر عنها بالجزيرة ، لأنها مقصد الضارب فى الصحراء . كما هو الحال فى جزر البحار ، إذ هى مقصد كل ممتط للبم مرتحل فوق العباب الطمأنينة والهدوء والصحراء والبحر نهايتهما قريبنا الشبه فى الخطورة عندما ففيهما يضل السارى أو تعصف به الأنواء .

ولسنا ندرى على وجه التحقيق متى عرف المصريون الواحات، ولكن الذى نستطيع أن نثبته بعد التحقق منه هو أن أول من تعامل مع الواحات من ملوك مصر الملك « سيزستريس الأول » ، إذ أرسل أحد أمنائه المدعو « أكوديدى » لعقد معاهدة تجارية مع الواحات الخارجـــة فاغتنم أكوديدى هذه الفرصة وأقام لنفسه حجراً مقدساً بمعبد « أوزوريس » بالعرابة المقدسة ، وهذا هو اقدم أثر يشير إلى حدوث مثل هذه الزيارة وكان ذلك سنة ١٩٣٥ ق.م .

ولقد لعبت الواحات بموقعها الجغرافى وظروفها الطبيعية أدواراً شتى فى حياة الشعب المصرى، فالمصريون القدماء اتخذوا منها مستعمرات لنفى الأشقياء والمجرمين ومقبرة لجثثهم عندما يموتون حتى لا تلوث بأدرانهم أرض مصر

المقدسة ، ولهذا الإجراء قصة دينية تفسره ، ذلك أن « سيت » إله الشر والجريمة عندما قتل «أوزوريس» إله الآخرة المتولى محاكمة الموتى ومحاسبتهم ، قام الإله حوريس رب الأرباب بمطاردته إلى أن تمكن من القبض عليه وقتله فى مدينة قفط ومن ثم عهد إلى أعوانه فى نقله إلى مكان ناء سحيق تائه وسط الصحراء يقال له «أوتو» وهو اليوم : الواحة الخــارجة كبرى الواحات المصرية وقتذاك عقابا له على ما ارتكب من جرم ! !

وبمرور الزمن أصبحت الواحات ملجأ لجماعة المضطهدين والمطرودين ، كما صارت مواطن صالحة للرهبنة والتقشف والصوفية والزهادة الدينية .

ويقال أن كلمة «واحة» مصرية قديمة معناها مكان للراحة والواحة مفرد جمعها واحات ، وهى عبارة عن قطع متفرقة من الأراضى الزراعية وسط الصحراء تروى أراضيها من ماء يخرج طافياً من عيون تنفجر من باطن الأرض .

ولما جاء العرب إلى مصر وجدوها مسماة بهذا الإسم ، فلم يحاولوا تغييره وأدخلوا هذه التسمية فى العربية كما هى مثلما أدخلوا كلمة بستان وينزهير الفارسيتين دون تبديل .

ولقد كانت منطقة الواحات بصفة عامة وثيقة الصلة والروابط بحوض وادى النيل ، نظراً لأهمية المنطقة بموقعها على مسالك التجارة عن طريق القوافل التى كانت تخرج من حوض وادى النيل وتعبر المنطقة إلى الأقاليم الإفريقية فى الشمال والغرب والجنوب الغربى .

وعلى الرغم من أن تاريخ المنطقة وتطورها قد أسدلت عليه الفترات المظلمة ستاراً كثيفاً ، فإننا نجد توضيحاً لذلك فى تطور الوضع المناخى الذى حول الأقاليم الخصبة إلى مناطق جرداء انحصرت أراضيها الخصبة تدريجياً فى مناطق صغيرة هى التى عرفت بالواحات ، وقد أخذت هذه فى التآكل المدمر الذى دفع السكان إلى الهرب إلى مناطق أكثر رخاء ، واستوحشت

الحيوانات التى كانت تعيش فى الواحات ، وانقرض العدد الأكبر منها ، كذلك فان طرق القوافل قـــد أغلقت بسبب سافيات الرمال التى كانت تغطيها ، وكان من هذه الطرق ، الطريق إلى الشمال والغرب والطريق من الواحة الداخلة والكفرة ، وقد أقفلا فى عهد أحمد بن طولون . وقد أكد خطورة هذه السافيات الرمليه من قدرتها على دفن الحملة العسكرية الضخمة التى أرسلها قمبيز لتدمير واحة سيوة أو الواحـــة الداخله على خلاف فى الروايات ، وهذه العواصف الرملية تمثل أهم مظاهر الطبيعة فى الواحات حيث تأتى على هيئة رمال سيالة تتحرك بطيئا نحو الجنوب تتخذ شكلا هلاليا .. ولذا فهى ذات خطر عظيم على المزارع والمبانى ، وكم من بلدة زالت ونخيل طمس وطريق ردم تحت رمال هذه الغرود التى تعد أخطر أسلحة ضد الإنسان فى هذه المناطق وتتجمع هذه الغرود الرملية فى شكل مجاميع كالبحر المتماوج وتختلف فى الارتفاع ، وقد تصل أحيانا إلى ٥٠ مترا وفى الاتساع نحو ١٠ كيلو مترات ، وقد ردمت هذه الغرود كثيرا من العيون والآبار بجهة باريس بالواحة الخارجة واكتسحت النخيل بناحية عين القضاء بالواحة الداخلة وهى الآن تهدد بلدة جناح بالواحة الخارجة أيضا .

لقد أطلقت على المنطقة الشرقية للصحراء الليبية مسميات عديدة ، اختلفت باختلاف للفترات التاريخية التى مرت بها . ولا شك فى أن ذلك كان يرجع إلى الصراع الذى كان دائم الوقوع بين السكان الضعاف والنازحين من الأقوياء . وعرفت المنطقة التى تضم الواحات الثلاث : الخارجة والداخلة والفرافرة باسم « موريتانيا » وكانت تحكم من قبل أسرة بيدها التجارة .

ويرجع لفظ « موريتانيا » إلى جماعات من الميديين « الذين جاءوا من الشام إلى الساحل الليبى ، وامتد نشاطهم إلى منطقة الواحات للتجارة والسيطرة على طرقها ومواردها .

وقد وقع تصحيف على اللفظ « ميدى » فتغيرت الدال إلى راء ، وظهر اللفظ « ميرى » ثم حـــدث أيضا تغيير فى الصورة والصوت وظهر اللفظ موری » .

ومن الأمور الطبيعية أن تحدث التطورات اللغوية بسبب الهجرات ، وكما سبق أن قلنا فإن الصراع كان مستمرا بين السكان الضعاف فى هـذه المنطقة وبين النازحين من الأقوياء .

وقد جاء اسم موريتانيا الذى عرفت به الواحات التى ذكرناها فى كتاب حنا النيقوسى كذلك جاءت الأشارة إليه فى كتاب « برنو والصحارى والسودان الذى ألفه السير ريتشارد بالمر ، حيث ذكر : أن الصحراء الواقعة شرق برفوج (برنو) تمتد إلى أثيوبيا (حوض وادى النيل الأسط) وموريتانيا شمالا وأرض المازكس (أليجا) فى الشمال الشرقى .

كذلك يذكر أيضا : أن المازيكس ثاروا سنة ٣٧٣ م ودخلوا أرض موريتانيا فأرسل الامبراطور ثيود وسيوس حملة قصد تأديبهم وهم فى أرض موريتانيا ، وقـــد وردت أسماء القبائل التى سكنت موريتانيا فى الوثيقة التى كتبت فى عهد ديوقلتنيان .

كذلك تحدث بروقيوس عن الروم الذين نزلوا فى صحراء ليبيا ، فقال : انهم اشتبكوا فى قتال مع الموريتانيين واستطاعوا اخضاعهم بعـد أن هزمهم الموريتانيون بسبب استخدامهم للجبال التى كانت سببا فى فرار خيل الروم من ميدان القتال(١)

وفى سنة ٤٣٥ م اختطف « اليحا نسطوريوس » الذى كان قد احتجز فى الواحة الخارجة فى غزوة لهم عليها وفكوا أمره قرب اخميم فى صعيد مصر .

---

(١) الشاطر بوصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط : القاهرة ١٩٧٢ : ص٣١٣ ، ٣٤١

على أن هذا البحث يهتم بمجموعة الواحات التى أصبحت تمثل الوادى الجديد وما يتبعها من الواحات الصغيرة التى ذكرتها المصادر العربية بأنها حارات .. وهذه الواحات كانت تحتل مركزا (استراتيجيا) له خطورته على الموصلات بين حوض وادى النيل وقلب القارة الافريقيــة ، حيث ارتبطت مع حوض النيل بعدد من الطرق التى كانت تسلكها القوافل ومن أهم هذه الطرق من الجنوب إلى الشمال أى من أسوان إلى شمالى أسيوط فكانت القوافل تخرج من حوض النيل فى المناطق الآتية :

١ — منطقة أسوان — دراو
٢ — من ادفو
٣ — من اسنا
٤ — من الزريقات
٥ — من فرشوط
٦ — من العلوانية
٧ — من الكوامل
٨ — من الغنائم
٩ — من الزرابى
١٠ — من أسيوط — بنى عدى

كانت هذه المسالك تتصل بدرب الأربعين الشهير الذى كان يستخدم قديما بين أسيوط ودارفور .

ولعبت هذه الطرق — بوجه عام — دورا هاما فى نقل الحضارة إلى قلب القارة وأجزائها الغربية ، كما سلكتها الهجرات المتتابعة من حوض النيل .

التطور التاريخى :

يذكر ابن حوقل أن « بجميع الواحات بيعاً قديمة أزليه معمورة ، لأن البلد كان نصرانى الأصل قديما »[١]

وتتفق المصادر التاريخية على قيام الرومان بحفر الآبار لتعمير البلاد كما أنهم شقوا الجداول المغطاة لسريان المياه إلى الأرض الخصبة ، ويرجع تغطية هذه الجداول لحفظها من الرمال ، كذلك أقاموا المعابد وأنشأوا القلاع والحصون لحماية الاقليم والقوافل .. ولوحظ أن الهجرات قد اذدادت إليها فى العهد المسيحى بسبب الاضطهاد الدينى . . وهناك مقبرة فى البجوات فى الواحة الخارجة سنتحدث عنها فيما بعد ، وكذلك فى واحة الفرافرة . ويذكر ابن حوقل (أن الغالب على أهل الفرفرون « الفرافرة » القبط النصارى)[٢] .

ونقل الأنصارى فى كتابه نخبة الدهر (أن الواحات كانت من قبل مملكة قائمة بذاتها ، ثم صارت مضافه)[٣]

ولا يعلم عن تاريخ الواحات فى العصر الإسلامى أكثر مما أشار إليه ابن حوقل ، حيث أشار إلى أن السلطنة التى كانت تتولى حكم هذه المنطقة كانت فى أيدى أسرة آل عبدون ، وذلك منـــذ الفتح الإسلامى لمصر حوالى عام ٦٤٠ م[٤]

(٢،١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض . ليدن ١٩٣٨ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

(٣) الدمشقى (٧٢٧ هـ) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أبى طالب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر : ليبزج ١٩٢٣ : ص٧١

(٤) ابن حقول (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ليدن ١٩٣٨ : ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

وجاء فى كتاب البلدان لليعقوبى : (أن الواحة الخارجة هى بلاد فيها حصون ومزارع وعيون مطمورة ومياه جارية وأصناف الشعير والكروم ومزارع أرز)(١) .

وذكر المسعودى أن بلاد الواحات وهى بين مصر والإسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحباش من النوبة وغيرهم وصاحب الواحات فى وقتنا هذا وهو (سنة ٣٣٢ هـ ، ١٩٤٣ م) عبد الملك بن مروان وهو رجل من العرابة ، إلا أنه مروانى المذهب (أى يميل إلى الحكم الأموى المروانى)،ويركب فى العرف مع الناس خيلا ورحلا وبينه وبين الأحباش « النوبه » نحو ستة أيام . . وفى أرضه خواص وعجائب ، وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا مفتقر إليه ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب ، وقد رأيت صاحب الرجل يقيم بباب الأخشيد محمد بن طفج ، وذلك سنة ٣٣٦ هـ ، وسألته عن كثير من أخبار بلده)(٢) .

وكان ابن حوقل أكثر توفيقاً من المسعودى ، حيث كتب جلة من خير رجالها وأوصافهم وأشار إلى الملك القائم بالأمر فى وقته وهو عبدون وذكر أن الملك الذى سبقه كان أسمـــه أبو الحسن بكر بن عبد الصمد ابن عبدون .

ومن منتصف القرن العاشر الميلادى لا يعلم شىء عن تاريخ هذه المملكة ، فقد ذكر الأدريسى : (الواحات الداخلة خراب الآن لا ساكن فيهـا

(١) اليعقوبى (٧٢٧ هـ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر : ليبزج ١٩٢٣ ص ١٩٧١

(٢) المسعودى (٣٤٦ هـ) على بن الحسين بن على أبو الحسن : مروج الذهب ومعادن الجوهر : القاهرة : ١٨٨٢ م : جـ ٢ ص ٢٢٣

والواحات الخارجة معمورة فيها قرى كثيرة يسكنها أخلاط من الناس ، وهى بين أرض مصر وبلاد السودان وتعرف بأرض سنتريه)(١).

وهذا يدل على أن الواحـــد الداخلة عاصمة آل عبدون قد تركت فى زمن لايزيد عن أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهل كان هذا الترك للعاصمة بسبب انقطاع القوافل إلى الغرب والشمال أم كان لغزوات من القبائل التى دخلت المنطقة من الشمال إلى الغرب ؟ .

لقد كانت هناك مجموعات من بنى هلال وبنى سليم وغيرهم ..

ويقال أن السلطان برقوق أقام مهجراً فى صعيد مصر وذلك فى سنة ١٣٨٢ م ، ومعروف أن الهوارة زحفوا جنوباً وخربوا مدينة أسوان سنة ١٤١٢ م .

وأشار ابن دقماق (أوائل القرن الخامس عشر الميلادى) أن الواحات كانت بيد أمير من طبلخانات أحدهم :العلائى والثانى أمير فرج نائب الوجه البحرى)(٢) .

نظام الحكم :

أشرنا فيما سبق إلى ماذكره ابن حوقل من أن أسرة آل عبدون هى التى كان لها الحكم والسيطرة عـــلى الواحات منذ زمن سابق على دخول

---

(١) الأدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس : ص ٤١ .

(٢) ابن قماق (٨٠٩) ابراهيم بن محمد المصرى : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، القاهرة ١٣٠٩ م : ص ٣٥ ، ٣٧

العرب إلى مصر فى عام ٦٤٠ م ، وأن الحاكم فى زمنه كان عبدون بن محمد ابن عبدون . . كذلك أشرنا إلى ماذكره المسعودى من أن صاحب الواحات فى (٣٣٠ هـ — ١٩٤١ م) كان أسمه عبد الملك مروان .. ويتضح من هذه الأقوال أن الحكم كان وراثيا ومحدداً فى أسر معينة . .

وقد أضاف ابن حوقل: (أن ملوك هذه الناحية يرجعون إلى مروءة فاشية ومظاهر بالحرية ورغبة فى القاصد بين ومحبة للمنتجعين على جميع ضروب القصد مكرمين للتجار نازلين على أحكامهم فى الأرباح ، وكان من أحرصهم على هذه الوتيرة يتقبل المحاسن ويحب حسن الأحدوثة والشكر ويرغب فى جميل الذكر أبو الحسن مكبر بن عبد الصمد بن عبدون يزيد على من سلف له من أهله فى جميع المقاصد الكريمة ، ويركب منها الطرقات الصعبة الجسيمة ، ولما مضى قام مكانه وعمر موضعه عبدون بن عبدون فى ضمن عبد له يعرف بمصبح بن ميمون مغربى الأصل ، ولد بالواحات وبلادهم كثيرة المياه والأشجار والعياض والعيون الجارية العذبة متصرفة فى نخيلهم وزرعهم وأحبيتهم وأكثر غلاتهم القمح والشعير والأرز ، ولديهم من العناب الكثير والقوة الواسعة الغزيرة ما يغدق به على الكثير من النواحى ، وهى كالناحية المعتزلة فى مركز دائرة من النيل ومن أى نحو قصدت الواحات من أنحائها كان الوصول إليها من ثلاث مراحل إلى أربع مراحل ، والناحية الخارجة منها المعروفة وببخيط «وبيريس» أقرب إلى النيل .

ولآل عبدون بالفرفرون (الفرافرة) والبهنسا قصران ومساكن : لا حرم فيها ولا ذخيرة ولكنها أعدت للنزول فيها وقت الحاجة للنزهة ويليها مساكن الأكرة بالبهنسا وببخبط وبيريس ولا يمد آل عبدون

وخدمهم أيديهم فى شىء من الجباية سوى الخراج والجزية من النصارى وليس بجميع الواحات يهودى واحد فما فوق(١).

ولم نستطع الوصول — بما أمكننا الحصول عليه من مصادر ومراجع إلى شىء مؤكد عن النهاية التى أنتهت إليها هذه الأسرة ، اللهم إلا أن هناك العديدتمن يحملون أسم «عبدون» فى مناطق الواحات والنوبة .

لقد اعتمدت هذه المملكة فى إيراداتها على جباية : الخراج والجزية إلى جانب ماكانت تعود به القوافل التى كانت تمر عبر طرقها إلى السودان وغانة والمغرب وفزان من رسوم على الخدمات التى كانت تقدم للتجار ومعروف أن آل عبدون اشتهروا بحسن معاملتهم للتجار كماذكر ابن حوقل.. ويدلنا هذا على أن هذه الدولة كانت تعتمد على عدد من الوكلاء عنها هنا وهناك فى إدارة جهازها الإدارى والمالى .

يقول المسعودى : «أنه فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة سار ملك النوبة فى جيش عظيم إلى الواحات ، فأوقع بأهلها وأسر كثيراً(٢) .

وتجدر الإشارة إلى أنه قد حـــدث نزاع بين مملكة (المقرة) دنقلة والواحات (موضوع هذا البحث) وذلك فى عام ١٦٩٠ م بسبب قيام الأخيرة بحظر سفر الأساقفة (رجال الدين المسيحى) وغيرهم عن طريق المملكة مابين الإسكندرية ودنقلة ، كما كان متبعاً من قبل .

وبوجه عام لم تكن العلاقات بين النوبة بعد انتقالهم إلى حوض النيل

---

(١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد): كتاب صورة الأرض ، ليد ١٩٣٨ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

(٢) المسعودى (٣٤٦ هـ) على بن الحسين بن على أبو الحسن : مروج الذهب ومعادن الجوهر : القاهرة : ١٨٨٢م : جـ ٢ ص ٢٢٣

وبين مملكة الواحات ، بل كانت الحروب متتابعة بينهما[١] ، ويبدو أن هذه الحروب كانت ترجع لأسباب اقتصادية وسياسية ، فقد هجم النوبة على الواحات ووقعت بينهما هدنة سنة ٩٥١ م .

الحضارة فى الواحات :

كانت تسكن الواحات — فى هـــذا العصر الذى نتحدث عنه — مجموعات من المصريين الأقباط والمسلمين إلى جانب مجموعات أخرى من البربر ، وأيضاً جماعات قليلة منها بنو هلال.

يقول ابن حوقل «أن الواحات من بنى هلال عدة غزيرة وأمة كثيرة ، وهى مصيفهم وقت الغلة وميرتهم منها ..... »[٢] .

وكان هذا الإقليم يمثل حلقة متصلة بالصحراء الكبرى فى الوقت الذى كان فيه أرضا زراعية تجرى فى وديانها المياه وتهطل عليها الأمطار وملتقى لهجرات من مصر ومن الشمال من ساحل البحر المتوسط ومن الجنوب: من السودان والأقلية الإفريقية الأخرى ، والمعروف أن مجموعة كبيرة من النوبة انتقلوا فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين إلى المنطقة الواقعة على حوض النيل جنوبى الشلال الأول استجابة لدعوة دقلديانيوس الذى أراد أن يجعل من هؤلاء حماة لحدوده الجنوبية ، وكان يدفع للنوبة إتاوة سنوية على ألا يقوموا بعمل ضد مصالح الرومان .

ومن الطبيعى أن تنقل هذه الهجرات مجموعة من الحضارات والثقافات المتباينة ومن الصعب تحديد مراحل هذه الثقافات نظراً للحاجة إلى مسح شامل

---

(١) الشاطر بوصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط : القاهرة ١٩٧٢ : ص ٣١٣ ، ٣٤١

(٢) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٧ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

فى أرجاء الأقليم يكشف به عن المدن وغيرها من الآثار التى غطتها الرمال التى تتزايد عاماً بعد عام .

ويذكر ابن حوقل : « أن غلات الواحات فوق حاجاتها وبها من القمح والتمور الجميلة الكبار الحب والعناب والقطانى إلى جميع الفاكهة والبقول مايزيد على حاجاتهم» أى حاجة سكانها « وينيف على فاقتهم وارادتهم » ...

ثم تعرض لمورد هام فى الواحات حيث قال: «وليس بجميع الواحات حمام،ولا فندق يسكنه الطارق والقادم إليها ،وإذا قدم التجار والزوار على آل عبدون أنزلوهم أين كانوا من قرارهم ودارت عليهم الضيافات إلى حين رحيلهم ، وعندهم بجميع نواحيهم المطاحن بالإبل والبقر وقلما يمطرون ومياه عيونهم حارة ، فهى تقوم لهم مقام الحمامات »(١) .

ويتضح من ذلك أنه قد بقيت فى الواحات من الآثار مايرجع إلى عهود قديمة ، كذلك يرجع أيضاً إلى مااستحدثه المسلمون وما انتقل عن طريق القوافل،استحدث المسلمون بهذه الواحات نحوا من خمسةعشر منبراً ولكل قرية من قرى هذه الواحات مساجد معمورة بالصلوات الخمس ، ويدين جميع من بها بالولاء لآل عبدون .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هناك صلة واضحة من الناحيه المعمارية بين قباب مقبرة البجوات فى الواحة الخارجة وبين قباب مقابر أسوان،وفى هذا مايؤيد وجود علاقة بين المنطقتين(٢) .

---

(١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦، ١٦١ ، ١٦٤

(٢) المقريزى (٨٤٥ هـ) تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار : بولاق ١٢٧٠ م: ج١ ص ٢٨٠ ، ٢٧٧ ، ٣٣٧

الواحة الخارجة :

تشتمل الواحة الخارجة على أربع قرى ، هى الخارجة ، وهى القاعدة » وجناح وبولاق وباريس ويوجد بهذه الواحة ٦٦٣٠ نخلة كما يقول على مبارك فى الخطط ... عليها من الخراج ٥٢٧ جنيها «فى أوائل القرن العشرين» كما يوجد ٦٥ عينا للماء تدفع كل عين خراجا سنويا مقداره ٣٥٩ قرشا ، وبذلك يكون مقدار خراج العيون ٢٣٣ جنيها ، وإلى الجنوب من الخارجة ، على مسيرة ثلاثة أيام من عين الماء المرة التى توجد جنوب بلدة باريس يوجد المكان الذى يستخرج منه معدن الشب من أقدم العصور ، فقد ورد فى خطط المقريزى : « أنه كان على الواحات فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل وأيام ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب حمل ألف قنطار من الشب كل سنة إلى القاهرة(١) .

ويقول ابن مماتى أن (الشب حجر محتاج إليه فى أشياء كثيرة أهمها الصبغ ومعادنه بصحراء الصعيد بمصر وعادة الديوان « ديوان الخراج » أن ينفق فى تحصيل كل قنطار منـــه ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك وتهبط به العرب من معدنه (موطنه) إلى ساحل قوص وإلى ساحل أخميم وأسيوط إلى البهنسا) ، ويحمل من أى ساحل كان إلى الاسكندرية أيام جرى الماء فى خليجها(٢) .

وكان طريق القوافل الآتية من دارفور بالسودان والذى كان يعرف باسم ، درب الأربعين ينتهى عند باريس ، فكان الحاكم الموفد من قبل حاكم

---

(١) المقريزى : الخطط : جـ ١ ص ٣٨٠

(١) ابن مماتى قوانين الدواوين : ص ٢١٧

جرجا يرسل عند ورد القافلة بشيرا إلى مدينة أسيوط فترسل جماعات من العسكر لتلقاها وتجرى حصر البضائع الواردة معها، ثم يؤخذ (الجمرك) عنها، «وكانت الواردات السودانية تتكون من الإبل والرقيق وسن الفيل وريش النعام وسن الخرتيت والتمر هندى والصمغ وجلود التماسيح والأفاعى»[١].

على أن الواحة الخارجة تقع غربى قناوتتصل بوادى النيل عن طريق سكة حديدية طوله ١٩٧ كيلو مترا، يبدأ من محطة مواصلات الواحات الواقعة شمالى محطة فرشوط بمركز نجع حمادى بمحافظة قنا، وقد تعطل هذا الخط أخيراً وأصبح الوصول إلى الخارجة عن طريق أسيوط.

والعيون والآبار كثيرة الانتشار فى هذه الواحة، ولكنها مع كثرتها لاتفى بالغرض المطلوب لأن مساحة الأراضى القابلة للزراعة ٣٤٠٠٠ فدانا يقع أغلبها فى المنطقة الممتدة بين بولاق، وباريس[٢]، فى سهل خصيب لا يوازيه فى خصبه غير الجزر النيلية.

---

(١) دكتورة سعاد ماهر: محافظات الجمهورية وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى: القاهرة: ١٩٥٦م: ص٢٠١،٢٠٣،٢٠٧،٢٠٨

(٢) باريس: قرية صغيرة تقع جنوبى الخارجة المدينة على مسافة ٩٠ كيلو

الواحة الداخلة :

وتقع إلى الغرب من الواحة الخارجة والمسافة بينهما تبلغ ١٨٠ كيلو مترا ، والمسافة بينها وبين وادى النيل ٣٨٠ كيلو مترا ، وقد عرفت بالداخلة لأنها متوغلة فى الصحراء ، وهى أكبر الواحات وأكثرها محصولا ، وتشتمل على عشر قرى منها : بلاط وبدخلو وأسمنت والمعصره وقلمون والهنداوى والجديدة وموط ، وهى القاعدة .

ويوجد بمعظم تلك القرى حدائق غنية بفاكهتها مثل : المشمش والبرتقال والرمان والعنب والتين والزيتون والموز والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق وغير ذلك يوجد فيها نحو ا من ٤٦٤ عينا تسبح مياهها على الأرض ، وربما اشترك جماعة فى عين فيقتسمون الماء لسقى زرعهم ونخيلهم .

ذكر على مبارك فى الخطط التوفيقية : أن الضرائب التى كانت تدفعها الواحة الداخلة ٨٤٦١١ قرشا ، وكانت الضريبة تفرض على العيون وليست على الأرض ، وكان عدد النخيل فيها ٢١٣ر٩٥٣ نخلة تحصل عليها الدولة ضريبة مقدارها ١٦٨ ، وأما أشجار الفاكهة فكانت تدفع ضريبة أخرى ، هذا عدا ما كان يدفعه أهل الواحة إلى الصيارفة ورجال الحملة الذين يأتون لحماية الصيارفة ويبلغ مجموع ما كانت تدفعه الداخلة من الضرائب ٥٤٥ جنيها وهو مبلغ لا يستهان به فى ذلك الوقت .

وهناك فى قرية «بدخلوا» طائفة تعرف بالشربجية تزعم أنها من سلالة المماليك الشراكسة ، وهى تتمتع بمركز ممتاز فى هـذه القريه ، وأفرادها يحرصون على أن يلبسوا الملابس الفاخرة .

وتتصل هـذه الواحة بمحافظة أسيوط عن الطريق المسمى بالدرب الطويل الذى يبتدىء من ناحية بنى عدى ويمر بقرية بلاط .

والعيون تكثر بالواحة الداخلة وهى :

١ — عيون جارية ينساب الماء منها إلى الزراعات فيرويها بغير آلات رافعة .

٢ — عيون غير جارية وهى التى يرفع ماؤها بالسواقى .

٣ — عيون مطمورة وهى التى جفت وردمت ولكن أصحابها لا يزالون يدعون ملكيتها ويؤدون عنها حصيلة الحكومة عن كل قيراط مما كانت تنتج خمسين قرشا، يقودهم فى ذلك الأمل إلى أنهم ربما يستطيعون إخراجها فى المستقبل .

ومما يكثر ترديده على السمع فى هذه الواحة (آبار ميهوب) وهى عبارة عن مجموعة آبار مكونة من إحدى عشر بئرا حفرت بواسطة الشيخ محمد ميهوب تلميذ السنوسى الكبير الذى كان من قبله بنشر الدعوة للمذهب السنوسى الذى يسيطر على صحراء ليبيا بين برقة وطرابلس ومصر ، وتقع هذه الآبار فى أرض منخفضة المستوى، ولذا فهى تمتاز بغزارة مائها ووفرة غلة أراضيها ، وقد ابتاعتها الحكومة المصرية بين ما ابتاعته من أملاك السنوسية فى صحراء مصر الغربية .

واحة الفرافرة :

تمثل هذه الواحة الصغيرة جزءا من الوادى الجديد موضوع هذا البحث ، وليس فى واحه الفرافرة ما يمكن الكتابة عنه غير أنها قليلة السكان ولا تتعدى قرية واحدة هى قصر الفرافرة وعيونها لا يزيد عن العشرين عينا تجرى بماء يستعمل جميعه فى الزراعة ولا يترك منه أى مقدار لكى يذهب هباء وأغلب هذه العيون تقع حول « قصر الفرافرة » وعلى بعد خمسين كيلومترا فى الشمال الغربى لقصر الفرافرة تقع عين « الدالة » فى المنخفض المسمى باسمها ، وتوجد هذه العين فى السهل على إرتفاع ١٢٠ مترا من سطح البحر ولكن هذا السهل المرتفع يعتبر منخفضا بالقياس إلى الجبال المحيطة به ، وتوجد العين فى قمة تل من الرمال مكون من ثلاث طبقات ، يبلغ إرتفاع الطبقة الأولى منه مترا عن سطح السهل الواقع فى الجهة البحرية وترتفع الثانية ثلاثة أمتار فوق الطبقة الأولى وترتفع الثالثة خمسة أمتار فوق الثانية .

والماء محاط بشجيرات الغاب ، والنبع ينخفض بمترين عن قمة الجبل الذى يكون شبه قمع حوله ويمنعه من السيلان فى غير مجراه ، وهذا الماء من حيث صلاحيته للشرب يعتبر من أجود مياه هذه الصحراء ، وتوجد عدا ذلك ينابيع كثيرة فى الصحراء ، ولكنها لا تستعمل للزراعة ولكن للشرب ذلك لأنها تقع فى بقاع مأهولة بالسكان ، غير أنها تؤدى خدمة جليلة للقوافل لوقوعها على دروبها التى تسلكها فتتزود منها أثناء السفر الطويل الشاق والذى تمنى به فى الصحراء القاحله ، ولما كانت هذه الينابيع ليست لها قيمة من الناحية الاقتصادية المباشرة ، فقد رأينا ألا يطيل الحديث عنها خصوصا وأنها لا تختلف كثيراً عما ذكرناه من الآبار .

ولا يختلف توزيع الماء فى واحة الفرافرة عنه فى الواحة البحرية ، إذ أنها «أى الفرافرة» ، تتبع البحرية وتقع إلى الجنوب منها .

الواحة البحرية :

أما الواحة البحرية فتعرف باسم واح البهنسا ، وهى تقع غربى محافظة المنيا والمسافة بينها وبين بلدة البهنسا على بحر يوسف تبلغ ٣٠٠ كيلومترا ، وتشتمل هذه الواحة — كما ورد فى الخطط التوفيقية — على خمس قرى هى : منديشة والذبو ومديشة العجوز والباويط والقصر . . يزرع فيها الشعير والأرز والبرسيم الحجازى وقليل من القمح كما يزرع بها بعض الخضر مثل : البامية والملوخية والكوسة والمقاتى والبصل وبساتينها عامرة بمختلف الفواكه وبالقرب منهما يوجد عدة أودية متسعة بها ماء ومراع ، وربما زرع بها الأرز ومن أهم هذه الوديان : وادى الحارة وهو يتبع قرية منديشة ووادى عيون بيجوم ويتبع قرية الذبو ووادى الحيوز ويتبع قرية القصر(١) .

من سكان الواحات :

قلنا فيما سبق أن الواحات كانت تسكنها مجموعات من المصريين الأقباط والمسلمين إلى جانب مجموعات أخرى من البربر ، وأيضا جماعات قبلية منها بنو هلال ، وهذه الجماعات الأخيرة كانت تتمثل فى فريقين هما :

السعادى والمرابطون :

السعادى :

هم أولاد سعــدى وقد اتفق المؤرخون على أنهم انحدروا جميعا من « أبو ذيب » وهو ينتسب إلى قريش وأن والدتهم سعدى بنت غازية الهلالية من نسل العرب الهلالية المنتسب إليها أبو زيد الهلالى . ، ويبدوا

---

(١) على مبارك : الخطط : جـ١٧ ص ٣٢

أن هذه القبائل أسمت نفسها بالسعادى لتتميز عن القبائل الأخرى من سلالة (أبو ديب) من زوجاته الأخريات ، وقد ذكر ابن خلدون : (أن هناك ، بمدينة مسراطة زعيم عربى كبير يسمى أبو ديب وأن له نفوذ عظيم فى إقليم برقة وطرابلس)(١) .

وقد أنجبت سعدى ثلاثة أولادهم : جبريل وبرغوت وعقار .

ومن ذرية جبريل : العواقير والعـــربيات والمغاربة والجوازى وفروعهم .

ومن ذرية برغوت : عبيد والعمرفة والفوائد وفروعهم .

ومن ذرية عقار : على وخديجة وبنى عونه والهسادى والحرابى وفروعهم .

أما المرابطون :

فقد اختلف الرواة فى أصلهم ، فبعضهم يرى أنهم أقدم من السعادى ، ولكنهم متفرقون وهذا هو سبب ضعفهم ولأن كل قبيلة منهم فى حماية قبيلة من السعادى وبعض الرواة يقول : أن السعادى كانوا أقوياء وجاءوا للبلاد فاتحين ، فدخلت بعض القبائل الأخرى فى حمايتها لضعفها فسموا (بالصدقان) أو الأصدقاء ، ولما كانت قبائل السعادى تقوم للغزو كانت تكلف قبائل الصدقان بالمحافظة على الحدود فى نقط معينه ترابط فيها . . ولهذا سموا بالمرابطين ، « والرباط معناه ملازمة ثغر العدو ومعناه أيضا المحافظة على أوقات الصلاة ، فقد ذهب الإمام الطرطوشى أمام هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا

---

(١) ابن خلدون : العبر وتاريخ المبتدأ والخبر : جـ ١ : ص ٢٠١ .

واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، إلى أن « رابطوا » فيه قولان : قيل : رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على إنتظام الصلوات والجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المرابطة والجهاد فى الثغر حيث ترابط خيل المقاتلة تحمى حياض المسلمين وترد عادية المعتدين »(١) .

وكان المرابطون موزعين على الآبار والزوايا فتفرغوا للمعيشة الزراعية والدينية وفقدوا الروح البدوية العسكرية فى حين أن السعادى احتفظوا بعاداتهم وهى رعى المواشى والمعيشة فى الجبال والاحتفاظ بالروح العسكرية والقتال وكل قبيلة أو عائلة من المرابطين فى حمى قبيلة السعادى وتدفع لها جعلا سنويا يسمى بالصدقة وفى مقابل ذلك تقوم قبيلة السعادى بحمايتهم من الغارات والسرقة والإهانة التى تحدث من السعادى الاخرين .

على أن المرابط ملزم فى الوقت نفسه بمساعدة السعادى فى حالات الغزو والحرب والتعدى فيحارب بجواره ويسرع لمساعدته ، وأهم قبائل المرابطين هى: المنفه والشواعر والقطعان والحوابيص والجرارة والحوتة والجبايل للقراكى والشبيبات والفواخر وترهوتة والعوامة والقدادفة والسمالوس والصريحات والفريضات وجبون الشريعات وذرياتهم .

والمرابطون فريقان :

— فريق يسكن الصحراء الغربية من حدود النيل غربا إلى بنى غازى .

— وفريق يسكن بنى غازى إلى واحة جالو الكفرة .

---

(١) د . حسن محمود : قيام دولة المرابطين : ص ٩٦

ولقد استطاعت هذه القبائل من السعادى والمرابطين أن تضع قانونا بدويا كان هو التشريع المعمول به فى هذه الصحارى والواحات .. حيث اجتمع شيوخ قبائلهم مع بعض الفقراء بالجحفة التى تقع جنوبى مدينة درنه بإقليم بنى غازى حيث تم وضع أسس القضاء البـــدوى الذى ظل معمولا به بينهم حتى أن الحكومة المصرية أقرتهم عليه بعد أن رأته مناسبا لأحوالهم .. أما الآن فقد أصبحت الواحات بسكانها تتبع القانون والقضاء المعمول بهما فى باقى أنحاء مصر »[١] .

---

(١) د . سعاد ماهر : محافظات الجمهورية وآثارها فى العصر الإسلامى ص ٢٠٣ .

أولاد «علي»

يكثر الحديث عن أولاد علي من قبائل الصحراء الغربية بوجه خاص ولما كانت الكتابة عنهم متشعبة النواحي شاملة لتاريخهم وعاداتهم وأخلاقهم ، وكانت أهم المراجع تستند أكثرها على روايات نقلية عن شيوخهم ورؤساء قبائلهم وعشائرهم وبعضها خيالي بعيد عن التصديق — مع أن معظمهم يؤيدها — فقد رأيت أن أتناولهم في بحثي هذا خصوصا وأني تحدثت قبلا عن سكان الواحات والصحاري .

قلنا فيما سبق أن من سكان الواحات فريقين هما :

السعادي والمرابطون . . وأن السعادي هم أولاد أبو ديب من سعدى الهلالية ، وكذلك قلنا أن سعدى هذه أنجبت ثلاثة أولاد هم : جبريل وبرغوت وعقار .

وقبائل «أولاد علي» من سلالة عقار بن سعدى وكان يدعى بعقار الشريف ، وقد استوطن بالجبل الأخضر قريبا من درنة بإقليم برقة وذلك حوالي القرن الخامس عشر الميلادي .

وأنجب ولدين هما : علي وحرب وبنتا أسماها خديجة ، ومن خديجة إنحدرت قبيلة الجميعات ، وبعد وفاة عقار قامت المشاحنات بين علي وحرب على الزعامة .

ولكن عليا كان أقوى جانبا وأشد بأسا مما كان له أثره في تحقيق النصر على أخيه حرب والاعتراف له بزعامة القبيلة وأيضا أداء الجزية لبضع سنوات .

وأثناء الصراع الدائر بين على وحرب أنهر العربان بانتصارات على ، فذاعت شهرته بينهم ، وانضم إليه الكثيرون منهم ووضعوا أنفسهم تحت لوائه فازداد قوة على قوته ، وقـــد عرفت هذه القبائل بعد بالصدقان أو الأصدقاء .

تزوج على بزوجتين أحداهما تدعى : سعدى الحمراء .

والأخرى : عائشة البيضاء .

وأنجب ثلاثة أولاد أكبرهم : أبو ستيته «زعيم قبائل الستيتية» ، ولما توفى على كان عمر أبو ستيتة عشر سنوات ، أما ولداه الآخران فقد ولدا بعد وفاة والدهم ، ولما كان كل واحد منهم من زوجة ، فقد حرصت كل من الزوجتين على أن تسمى ولدها باسم «عـــلى» .. .. وقد سمى العرب ابن سعدى الحمراء عليا الأحمر وابن عائشة البيضاء «عليا الأبيض» ..... لعدم الخلط بينهما .

وكانت ذرية أولاد «على» هى :

١ — أبو ستيتة ومن ذريته قبـــائل : العرارة والقطيفة والمحافيظ والعجنة .

٢ — على الأحمر ومن ذريتـه قبـائل : القتيشـات والعشـبيات والـكميلات .

٣ — على الأبيض : ومن ذريتـه قبائل : أولاد خروف والعزايم والصنافرة والأفراد .

الصراع بين ذرية على وذرية أخيه حرب :

مضت حوالى أربعة قرون بعد موت على ولكن الخصومة التى كانت بينه وبين أخيه حرب كانت لا تزال قائمة بين الأحفاد، وكان النصر لا يزال قائماً فى جانب أولاد عــلى ، واستمر الحال كذلك إلى أن ظهر فى قبيلة «الحرابى» نسبة إلى (حرب) رجل من الأذكياء يدعى: حبيب بن عبدالمولى، وقد قتل والده عبد المولى الحرباوى فى أحدى المعارك بينه وبين أولاد على، فرأى حبيب أن ينتقم لوالده ، فسافر إلى طرابلس للغرب والتمس المساعدة من الحاكم ويدعى محمود — وكان واليا عليها فى هذا الوقت — وقدم إليه هدية ثمينة عبارة عن جلد رقبه نعامة مملوءاً بالذهب .

أغرت هذه الهدية الحاكم التركى فسأل حبيباً عن حجم المساعدة التى يطلبها فذكرها له ، فرضى بها ، ثم سأله عن عدد الرجال الذين يطلبهم لمساعدته على قهر أولاد على فأجاب حبيب .

« أنه سيضع كتلة خشبية من شجر الزيتون على أحد أبواب سراى الحاكم ، تمر عليها الجنود ويدوسونها بأقدامهم حتى تنكسر وعندها يكتفى بالعدد الذى مر عليها . . . . . فوافق على ذلك وأمر جنوده بالمرور على الكتلة فمر عليها ستة آلاف جندى حتى إنكسرت وكان من العدد ٩٠٠ جندى من الخيالة .

وبهذه القوة العظيمة فاجأ حبيب أولاد على بهجوم عنيف فى الجبل الأخضر وأنتصر عليهم وطاردهم فاتجهت فلولهم شرقاً واستمرت المطاردة حوالى السبعة الأيام أعقبها صلح بينهما ، اتفقا فيه على :

أن يكون الحد الغربى جبل أبو حجاج (السلوم) هو الفاصل بين أملاك القبيلتين ، وقيل فى رواية أخرى : أنه عند رأس الملح .

وبذلك خرج أولاد على من إقليم برقـــة واستوطنوا الصحـراء الغربية .

أولا على والجمعيات :

عند نزول أولاد على بالصحراء الغربية وجدوا أن وطنهم الجديد هذا مأهول بعربان قبيلة الجمعيات (وهم ذرية خديجة أخت على وبنت عقار) وتربطهم بهم صلة القرابة فعاشت القبيلتان معاً على وئام تام .

وفى هذا الوقت كانت تسكن أقاليم «البحيرة» قبيلة الهنادى وهى إحدى القبائل القوية، وكانت قبيلة الجمعيات ضعيفة بالنسبة لها وهى مجاورة لها من جهة الغرب ، فكانت تحت حماية الهنادى، ويعاملونها بالظلم والقسوة ، فلما استوطن أولاد على الصحراء الغربية واختلطوا بالجمعيات — وكانت تربطهم صلة الرحم — رأت الجمعيات الفرصة مواتية للانضمام إلى أولاد على والتخلص من سيطرة الهنادى عليهم ، فأوفدوا زعيمهم المدعى « قوش » للاتفاق مع أولاد على على مقاتلة الهنادى بمساعدتهم للتخلص من سلطتهم وأغرى أولاد على الاستيلاء على أراضى البحيرة الخصبة التى يملكها الهنادى، ولما كانت الجمعيات على عـــلم تام بتحركات هذه القبائل وبأسرار قوتها ومحلات تجمعها بحكم نزولها على حدودها ، فقد كانت خير معين لإرشاد أولاد على على هذه المحلات، وعلى هذا تم الاتفاق سراً بين القبيلتين على أن يقوما بالغزو والقتال فى السنة التالية ليتمكن أولاد على من جمع جموعهم وأسلحتهم وخيولهم استعداداً لهذا الالتحام .

ويبدو أن الأخبار تطايرت إلى قبيلة الهنادى فحصل لها ريبة وسوء ظن من جهة الجمعيات فطالبتها بالحلف توكيداً لإخلاصها فخاف الجمعيات غشا وزورا، مؤكدين ولاءهم للهنادى ، ولـكن الهنادى لم يأمنوا ورأوا زيادة فى الحرص : أن يقيموا حدوداً معلومة بينهم وبين الجمعيات وأولاد على

(هذه الحدود هى مكان ترعة النوبارية الحالى)(١) ، وأنذروا هؤلاء : أن أى شخص أوحيوان منهما سيجتاز هذه الحدود سيكون جزاءه القتل فورا بلا انذار .

ولما مضى العام ، وحل موعد الإتفاق السرى المعقود بين الجميعات وأولاد على كان هؤلاء الأخيران قد اتفقوا نصف ثروتهم فى الإستعداد لهذا القتال وتجهيز أنفسهم بالخيــل والسلاح والذخيرة ، أصبحوا على استعداد تام لمقابلة الهنادى وشجع أولاد على على محاربة الهنادى أن الأخيرين لم يؤدوا الجزية للوالى محمد على (باشا) الذى ساعدهم على قهر الهنادى .

القتال ضد الهنادى :

لأجل أن تخلق أولادعلى وحلفاؤهم الجميعات سبباً للخصومة بينهم وبين الهنادى ، أطلقوا جملا وجعلوه يجتاز الحدود التى سبق أن حددتها الهنادى بينهما وأنذرت من يحاول أجتيازها بالقتل الفورى ، أرسلوا وراءه بعضاً من رجالهم بحجة البحث عنه،فما كان من الهنادى إلاأن قتلوا الجمل والذين أتبعوه، وعلى ذلك قام أولاد على يناصرهم الجميعات ضد الهنادى وقاتلوهم قتالا شديداً حتى قيل أن الموقعة الأولى بين الفريقين استمرت ثلاثة أيام وثلاث ليالى ، وكثر عدد القتلى من الفريقين حتى طلبا الهدنة لدفن موتاهم، وقد اتفقا بعد ذلك عــلى أن يعقب كل يوم قتال يوم هدنة لدفن القتلى واستمرت الحال هكذا حتى نهاية الحرب .

كان يتولى قيادة أولاد على — فى هذا الوقت — « حسين أبو داغمة »

---

(١) رفعت الجوهرى : أسرار من الصحراء الغربية ص ١٣١ ، ١٣٣ .

من قبيـلة أولاد خروف « من أولاد على الأبيض » ، ثم تولى القيادة بعده مطرود المطراحى » من أولاد خروف أيضاً « ثم أخيراً عبد الرحمن أبو علوة » ،

وقد استمرت الحرب ثلاثة أشهر أنتهت بهزيمة الهنادى وانسحابهم إلى وادى النيجر شرقا ، حيث أقاموا فى محافظة الشرقية ، وقد منح محمد على (باشا) أولاد على « فرمانا » بمعافاتها من الخدمة العسكرية مكافأة لهم !!

على أن المناوشات بينهما لم تنتهـــه ، بل أن الهنادى كانوا ينتهزون فرصة مرور أولاد على فى موسم الحج ليقاتلوا قوافلهم الذاهبـة إلى الحجاز .

ولما تم لأولاد على تطهير الصحراء الغربية من الهنادى استولوا على أراضيهم فى البحيرة وقسموها ، نخصهم الثلثين وخص الجمعيات الثلث الباقى ومنح أولاد على الجمعيات حقوق المحاربين « كالسعادى » تماماً بعدما كانوا معتبرين من قبائل المرابطين وعاشوا فى وئام حوالى مائة عام أخرى .

وبعد هذا التاريخ وفدت بعض القبائل من الغرب من ذرية جبريل وبرغوت أخوة عقار جد أولاد على،وهاجموا أولاد على من واحة سيوة ومن الوجه القبلى أيضاً ولكن هذا الهجوم فشل ، فقد تغلب أولاد على على هذه القبائل واضطروهم للانسحاب نهائياً إلى المغرب بعد قتال غير منتظم بينهما .

واتفق أولاد على فيما بينهم على توزيع قبائل المرابطين الذين ساعدوهم فى القتال فظلوا تحت حمايتهم والذين أنضموا تحت لوائهم فى الجبل الأخضر، فعقدوا أجتماعاً كبيراً فى مكان يقال له الجحفة قريب من طبرق وحضرت

بعض العائلات ذات الأهمية من المرابطين هذا الإجتماع، وقد منحهم أولاد على الإمتيازات الآتية :

١ ــ حق النزالة　　　　(حماية القبائل)

٢ ــ حق الفصالة　　　　(حق المضيف)

٣ ــ حق الدم بالدم .

(أن يكون الدفع فى الدية المثل بالمثل ، أى أنهم[1] مماثلين للسعادى فى الدفع .

أهم قبائل المرابطين :

الحوابيص :

قبيلة يقيم أغلبها بوادى النطرون ويشتغلون بنقل النطرون وسمار الحصير من البحيرات القريبة مثل: المغزة وغيرها، وكذلك يعملون فى نقل البلح من واحة سيوة إلى وادى النيل بطريق درب المحصحص وكرداسة (المسافة ١٣ يوماً) .

وهم مشهورون بدماثة الخلق وطيب النفس وبعدهم عن الخصام ... ولا يحملون السلاح إلا للدفاع الشخصى وحماية حيواناتهم فى المرعى، ومع أنهم معتبرون من المرابطين إلا أنهم مثل قبيلة الجميات لا يؤدون أى ضريبة للسعادى ويشاركون أولاد على فى نقل محصول البلح من الواحات البحرية فينزلون هناك بمنديشا وينزل أولاد على بالبلويطى .

---

(١) رفعت الجوهرى : مرجع سبق : ص ١٣٣

وهم سالة القدادقة :

أحدى قبائل المغرب ويروون أن نسبهم ينحدر إلى الشيخ عبد الجواد السكسار ، وأنهم نزحوا إلى مصر قادمين من جهة الساقية الحمراء بمراكش من حوالى خمسمائة سنة ، وقد قاموا بعدة خدمات جليلة لوالى مصر : محمد على « باشا » بوادى النطرون وكافأهم عليها بامتيازات عديده منحهم اياها.

ويقيم بعضهم مع أولاد على بالصحراء الغربية والبعض الآخر يفلح الأرض بمحافظات البحيرة والغربية والمنوفية والجيزة .

الجمعيات :

قد تكون هذه القبيلة من سلالة بدو مريوط ، وأن كان ابن خلدون ذكر أنها من سلالة السعادى، وأنهم من ذرية خديجة أخت على وأبنة عقار .. والجمعيات أنفسهم يقولون أنهم من سلالة أولاد سليمان والقطعان ومن سلالة كعب .

فإذا صح ذلك ، فإن الجمعيات يكن أقدم عهد من السعادى الذين منهم أولاد على ، ولكن أولاد على لا يقرون هذا ، يعتبرون الجمعيات من المرابطين ، وأن كانوا لا يؤدون أى ضريبة للسعادى .

يتضح من هذا العرض أن الجمعيات من أقدم القبائل التى سكنت هذه المناطق ويقرر شيخهم سعد « بك » المصرى : أنهم يسكنون مصر من سبعمائة سنة — لكن الشيخ علوانى سليمان — وهو من شيوخهم أيضاً — يقول : أن نسبهم — أى الجمعيات — كالاتى :

كعب بن على (من الصحابة)

نوح	شهيب	قاسم	شتور	موسى	عيسى
النواحة	الشهابيين	القواسم	الشتوريين	أولاد موسى	أولاد عيسى

والجمعيات ، النازلون بمريوط من الشتور ، أما الفروع الأخرى[1] ، فمعظهم يقيم فى محافظات البحيرة والغربية وأيضاً برمل الإسكندرية .

السمالوس :

وهم منتشرون بكثرة مع أولاد على وعلى حدود الصحراء الغربية وفى كثير من محافظات الفيوم والبحيرة والمنوفيــــة والغربية والشرقية ، أما شيخهم أبو صالح . فكان يقيم بالمنيا .. ويقرون أنهم وفدوا على مصر من نحو ٢٠٠ سنة ، كان عددهم نحواً من ٤٠ فارساً قادمين من وادى سمالوس بالجبل الأخضر ، وأن جدهم الأكبر أحمد نصر الحسانى من قبيلة بنى سليم المشهورة .

الشهيبات :

هم مجموعة من البدو ويعملون رعاة من المربطين بوادى النطرون ومنتشرون بين عائلات السعادى ، ويلاحظ عدم الخلط بينهم وبين الشهيبات من أولاد على .

---

(١) رفعت الجوهرى : أسرار من الصحراء الغربية ص١٣١ ، ١٣٣ ، ٢٠٣

أهم الاثار فى الواحات :

مقابر البجوات :

هى المدافن الأساسية فى الواحة الخارجة، وقد ظلت كذلك زمنا طويلا يمتد إلى القرن الثانى الميلادى على أقل تقدير ، يدلنا على ذلك العديد من الكنائس والأديرة التى ما تزال باقية إلى يومنا هذا .

وتعتبر هذه الأديرة سجلا غنيا لدراسة العمارة الدينية القبطية نقشت عليها أقدم رسوم الفرسكو فى مصر .

وقد استمرت البجوات حتى الفتح الإسلامى (القرن السابع الميلادى) ثم هجرت المدافن.

وفى العصور الوسطى كانت المنطقة ممرا للكثيرين من الرحالة المسلمين، وكذا الذاهبين إلى الحج من شمال افريقيا عن طريق عيذاب .. ولذا رأينا الكثير من عبارات التقدير والاعجاب التى سجلها هؤلاء وأولئك على جدران الكنائس والأديرة .... خاصة تلك التى تحتوى على رسوم بالفرسكو «فهناك أكثر من ثمانين ديرا وكنيسة تحتوى على كتابات عربية يرجع أقدمها إلى القرن التاسع[1] . وقد شملت هذه الكتابات أشعارا عن الحب والغرام، وكذا العديد من التوقيعات .

وفى القرن الخامس عشر الميلادى بنيت قرية صغيرة على بعد خمسة كيلو مترات ، من المدينة القديمة، وقد شملت هذه القرية كثيرا من المساجد التى يرجع بعضها إلى القرن الخامس عشر الميلادى أيضا .

---

(١) د . سعاد ماهر : محافظات الجمهورية : ص ٢٠٧

وقد تكون كنيسة سفر الخروج أقدم ما عثر عليه حتى الآن فى العالم المسيحى كله، اذ أنها ترجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى، ويتمثل فيها أقدم رسوم للفرسكو الموجودة بمصر، تلك الرسوم التى غطت معظم الحوائط الداخلية للكنيسة وتقول الدكتورة / سعاد ماهر : «أنه اعتمادا على هذه الرسوم استطعنا أن نرجع هذه الكنيسة إلى أوائل القرن الرابع أى قبل أن يعترف الامبراطور ثيودوس سنة ٣٩٢م بالدين المسيحى، أما الأسلوب الذى رسمت به الموضوعات التصويرية، فهو على جانب عظيم من الأهمية، إذ أننا نجد أسلوبا مخالفا تمام المخالفة للأسلوب الفنى السكندرى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت، أى فى القرن الرابع، فنلاحظ أن الرسوم الآدمية والحيوانية بعدت عن الطبيعة وأصبحت رمزية تعبيرية إلى أقصى حد مما لم يسبق له مثيل من قبل، فكثرت الزخارف الهندسية التجريدية وملأت مساحات كبيرة، ومثل هذا الأسلوب لم يكن متبعا كذلك، فإن الزخارف الهندسية كانت دائما عنصرا مساعدا للرسوم النباتية أو الحيوانية أما أن تملأ مساحات كبيرة بخطوط هندسية مجردة، فهو أسلوب جديد.

وتتابع الدكتورة : سعاد :«وهكذا نستطيع أن نقول أن طرازا فنيا جديدا ظهر فى المقابر والكنائس المسيحية الموجودة فى الصحراء الغربية بعيدا عن الحكام والرهبان، ولما كان هذا الطراز الفنى خاص بمسيحى مصر وهم الذين عرفوا بالأقباط منذ سنة ٢٨٤م — وهى سنة الشهداء — فاننا نستطيع أن نقول أن الفن القبطى نشأ فى القرن الرابع الميلادى على أقل تقدير ويمتاز هذا الأسلوب الجديد بأنه أسلوب بعدت عناصره عن محاكاة الطبيعة، اذ أنه بعد بالمادة واكتفى بالرمز اليها أو التعبير عنها بأبسط الوسائل وأقلها، بل أنه ذهب إلى أكثر من ذلك، فقد لجأ إلى تجريد المادة ورمز إليها بمجرد خطوط هندسية ملأ بها فراغات كبيرة وكان هذا الأسلوب بطبيعة الحال يلائم حالة الزهد والتقشف التى وصل اليها المسيحى بعد ما لاقى من الاضطهاد والتعذيب فى سبيل الاحتفاظ بعقيدته الجديدة.

ومن أهم الرسوم والزخارف الموجودة بكنيسة سفر الخروج التى ظهرت فيها مميزات الفن القبطى واضحا الموضوعات التصويرية التى تمثل قصص الأنبياء والقديسين الواردة فى كتاب العهد القديم وهى :

١ — قصة الخروج .

٢ — سفينة نوح .

٣ — آدم وحواء .

٤ — دنيال فى الجب مع الأسود .

٥ — الاسرائيليون الثلاثة فى النار .

٦ — عذاب بنى اسرائيل .

٧ — قصة يونس والحوت .

٨ — ريبكا وعبدها إبراهيم .

٩ — إبراهيم واسحق .

١٠ — الـــــراعى .

١١ — العـذارى السبع وغـــيرها من القصص والموضوعات الاخرى(١) .

ويبدو ضروريا فى نهاية هذا البحث أن نعرض لما جاء فى بعض المصادر العربية عن الواحات التى هى موضوع هذا البحث ...

---

(١) د . سعاد ماهر : مرجع سبق : ص ٢٠٨

١ — يقول الاصطخرى :

« أما الواحات فإنها كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والناس ، وبها إلى يومنا هذا ثمار كثيرة وغنم ، وقد توحشت فهى تتوالد والمسافة بين الواحات وبين صعيد مصر من جهة الجنوب نحو ثلاثة أيام يقطعها المسافر وتتصل الواحات بالنوبة ببرية ، فتنتهى إلى أرض السودان .

« وبلد الواحات ناحيتين ويقال لهما بالداخلة والخارجة وبين الداخلة والخارجة ثلاث مراحل وأجلهـــا الناحية الداخلية ، وهى واسطة البلد وقرار آل عبدون ملوكها وأصحابها وفيها مساكنهم وأموالهم وعدتهم وذخائرهم وهما حارتان بينهما نصف بريد وبكل حارة منهما قصر إلى جانبه الساكن لحاشية من منزلته وخاصته وأصحابه وأضيافه وفيهما حرمهم وتعرف أحدى الحارتين بالقلمون والأخرى بالقطر والناحية الخارجية تعرف بيبرس(١) ، بيخيط وهما خمسة أضعاف ويشتمل كل صقع عـــلى مقابر تتقارب فى المنزلة والحال(٢) .

ابن دقاق :

ذكر ابن دقاق أربعـة وعشرين بلداً فى مملكة الواحات . . . يقول : « واحات جميعهـا وهى الخاص والداخلة والخارجة أقربهم إلى الأعمـال البهنسائية وميرتهم أربعة وخمسون ألف دينار :

واح الخاص (ثلاثة عشر ألف دينار) ١٣٫٠٠٠ دينار

---

(١) تعرف اليوم باسم باريس

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك : ص : ١٣٠

والخارجة (أثنى عشر ألف دينار) ١٢٫٠٠٠ دينار

الداخلة (تسعة وعشرون ألف دينار) ٢٩٫٠٠٠ دينار

وهى بلاد كثيرة وبها قلعة، وبهذه البلاد من الفواكه والثمار شىء كثير وكانت فى القديم مملكة قائمة بنفسها وكان لصاحب قصر على صاحبها قطيعة، ثم صارت مضافة إلى مصر.

وهو أقليم غير متصل بغيره تحيط به المقاوز وحيزه بين مصر والإسكندرية والمغرب والصعيد والنوبة والحبشة ومسافاته من كل ناحية مقاربة للأخرى، وقيل هى ثلاث واحات:

الأولى: تسمى الخارجة وقصبتها تسمى المدينة.

الثانية: وهى الحطى وفيها مدينتان أحداهما وهى الكبرى وتسمى القصر والأخرى تسمى هندا وهما مستورتان.

الثالثة: وتسمى الداخلة وفيها مدينتان أحداهما وهى الكبرى تسمى أرنى والثانية ميمون، وبهما عيون حامضة وأهلها يشربون منها ويسقون أراضيهم ومتى شربوا من غيرها استوبأوا .....

<u>ويقال أن عدة بلاد الوحات أربعة وعشرون بلداً منها:</u>

* القصر — وبها عيون حارة مثل الحمام.
* وأفطيمة — وفيها أعناب كثيرة وأتيان.
* وشكول — وفيها أرز وعنب.

• وحافاته — وفيها أرز وكروم .

• وعين جديد القبلية — وبها كروم كثيرة ويزرع بها الأرز .

• وبرقس — وبها كروم كثيرة ويزرع بها الأرز أيضاً .

• والقلون — وهى بلد كبير كله كروم وبها كنيسة النصارى .

• والقلول — وبها كروم وتزرع الأرز .

• وعنفيش — وبها نخيل وموز كثير وكروم كثيرة ويزرع بها الأرز والجبن الذى يعمل من لبن بقرها .

• ربوط — وبها كروم ويزرع بها الأرز الهندا وينزل بها المتولى على القوم .

• وينسطر — ويزرع بها الأرز .

• وبنى يزيد — ويزرع بها الأرز أيضاً .

• وسمنت القديمة — ويزرع بها الأرز .

• وسمنت الخطا — ويزرع بها الأرز .

• والمعيصرة القريبة — ويزرع بها الأرز أيضاً .

• والقصبة — وهى بلد كبير وبه كروم ويزرع بها الأرز .

• وبلاط — ويزرع بها الأرز أيضاً .

• وبنى يزيد الشرقية — كفر صغير ويزرع بها الأرز .

• وتلميدة — بلد كبير يزرع به الأرز .

• وحاجز القصر — بها كروم ويزرع بها الأرز .

• وأقطيسة — وبها كروم ويزرع بها الأرز .

وهذه البلاد تسمى ألواح القبلية ، ويسافر إليها مزير أسيوط مسيرة ستة أيام ثم يأت المسافرون بعد ذلك إلى عين مور تحت جبل يحملون فيها الماء إلى الواح .

وفى المنتية معدن الشب الأصفر والأبيض مباع ، وبأرض الواح يزرع القطن وهى كسوة أهلها ولم يخرج منها،وفى البلد تسمى موط معدن الحوت وهى الزاج ويسمى أيضاً القلقند .

ويقال أن ببلاد الواحات عيونا حامضة تستعمل مياهها كاستعمال الخل ومنها عيون مرة،ومن قوة مائها لا يخالط شيئاً إلا مرره ، وأن العلة فى اختلاف هذه الطعوم فى المياه أن بها مواد مختلفة مثل مواضع الشب والزاج والمواضع النارية والرمادية .

وذكر الأطباء أن أعداد الطعوم ثمانية : أولها العذب والدسم والحلو والمالح والحامض والمر والقابض والحريف،والعذب نوعان بارد وساخن، أن استعمل من خارج وداخل مقيد الحاجة،فإنه ينقى الجسد وأن استعمل أكثر فإنه يرخى الأعضاء ويضعفها وأن البارود يشد الأعضاء ويدفع العطش ، وأن الزيادة منه تخدر الجسد وتميته وأن الماء الأجاج ينفع من أوجاع الصلب والعصب وماء الحديد نافع من الإسترخاء وماء النحاس نافع من الرطوبة والبله الكائنتين فى الجسد والرأس ، وماء الحسبا يشنج المعدة ويبضها ويكرشها وماء الزاج يحسن الدم وماء البحر نافع من البرص .

وقد ذكر أنه من الأخلاط الفاسدة ، إذا شرب اليسير منه مع دهن اللوز ، وله فى البصر أتعاب فظيع وأن أصح المياه للأجساد الماء الأبيض الصافى البراق الذى يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها القابل بسرعة مايرد إليه من الحر والبرد(١) .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص : ٣٧

ابن حوقل :

الواحات كالناحية المعتزلة فى مركزها دائرة من النيل ، تبعد غربا من مدينة الأقصر فى صعيد مصر بحوالى الثلاثين والمائة من الأميال . ومن أى نحو قصدت الواحات من أنحائها كان الوصول إليها من ثلاث إلى أربع مراحل والناحية الخارجة منها المعروفة بيخبط وببيرس أقرب إلى أقرب إلى النيل من قصدها من ناحية النوبة ومن اجتاز بها من أرض مصر وقصدها من اسنى (اسنا) وأرمنت تزود بماء النيل إلى ببيرس ومن قصدها من البلينا واخميم وأسيوط والأشمون من أسافل الصعيد كان وصوله إلى بيخبط وتزود بماء النيل ومن قصدها من أسوان رأعلى الصعيد اجتاز بد نقل بماء عد فى أحساء تحفر باليد وتزود بالماء إلى ببيرس رمسيرة كل طريق ممـا ذكرته ثلاث مراحل وأكثر هذه الطرق فى عقاب وأودية وجميع من قصدها من الأربع نواح يقطع الوادى المعروف بدواى واحساء بنى قصالة .

« ومن قصد الواحة الداخلة وهى دار مملـكة آل عبدون وبينها وبين الفرفرون (الفرافره) مرحلة ... »

« وقد يقصد الواحات من ناحيه المغرب ومن جزيرة فيها نخيل وسكان من البربر تعرف بسنتريه (ترجع فى أصلها إلى سنتريس وهى فى المنوفيه ، أنظر القاموس الجغـــرافى للبلاد المصرية : القسم الثانى الجزء الثانى : ص ١٦٢) فيـكون أول وصولهم منها إلى ناحية البهنسا » .

« والفرفرون قرية ذات قصور وبين بهنسة مصر وبهنسة الواح أربع مراحل وهى فى جملة الواح الداخلة وتصب الماء فى هـذا الطريق بموضع يعرف بماء النخلة » .

ويتابع ابن حوقل : « أن بالوحات عجائب شتى منها ما هو ملفوف وقائم كالعمود لا ينحل ولا يذوب ، ويقال : أنه فى بعض المدائن الداخلة مرآة يرى فيها جميع ما يسأل الإنسان عنه ، ويقال أنه صنع منها واحات دخلة وواحات باطنة يظهر فى بعض الأحيان لمن شاء له الله تمويهها وأن بعض الرجال من أهل صعيد مصر أتاه رجل وأعلمه بأنه يعرف مدينة بأرض الواحات بها كنوز عظيمة وبها أنهار وأشجار وثمار وأطيار فتزود وخرج مسافرا إليها معه فسار فى الرمل ثلاثة أيام حتى أشرفا على مدينة عظيمة وبظاهرها نهر عظيم وإلى جانبه شجرة عظيمة فأخذ الرجل من ورق تلك الشجره فدقه ولطخ بمائه ساقيها وخاص نطاق النهر فلم يتعد الماء حد ماء الورق فصعدا إلى المدينة وأخذا من الذهب الذى بها ما أرادا وأطلقا حمله وتفرقا فدخل ذلك الرجل الصعيدى لبعض ولاة الصعيد وعرفه القصة وأراه عين الذهب فأخذ منه الذهب ووجه معه جماعـــة وزودهم بزاد وجعلوا يطوفون بتلك الصحارى مدة فلم يقفوا لتلك المدينة على أثر .

وقيل : أن الواحات كانت أعمر المدن إلا أن أهلها تحاسدوا وفشت بينهم حروب كثيرة وأخرجت بلادهم فسميت بالواحات .

وتنتج هذه البلاد : التمر والزبيب والمشمش والعناب والعرقسوس والأرز وبها الموز والرمان والبرقوق والسفرجل كثيرا وبها النارنج .

وببلاد الواحات مياه مختلفة أبيض وأصفر وأخضر وغير ذلك . .
وبمغارات الواحات عرب سليم يقطعون بها الطريق على من أرادها أو من خرج منها .

وكذلك العكارمة يغزونها ، وهذه البلاد لم يزل أهلها محترزون محتفظون منهم . وبلاد الواحات الآن بيد امير بن طلباخانات : أحدهم الجناب الملائى ابن الطبلاوى والآخر أمير فرج نائب الوجة البحرى وبها جامع أمر بعمارته الوزير المأمون بن الطائجى .

« ومدينة سنتريه » فى صحراء الواحات بنيت فى زمن منقادس من أشموم وهو العاشر من ملوك مصر بعد الطوفان عمرها من حجر أبيض وجعلها مربعة على تقدير واحد وجعل فى كل حائط من حيطانها الأربعة بابا فى وسط ينتهى الحائط المحاذى له من الجهة الأخرى، وجعل فى كل شارع يمنه ويسرة أبوابها وتنتهى طرقاتها إلى داخل المدينة وجعل فى وسط هذه المدينة ملعبا يدور به من كل ناحية وعمل عليه قبه من خشب مربعة مدهونه على عمد عظيمة من رخام وفى وسطه منار من رخام عليه صنم من حيوان أسد يدور مع الشمس بدورانها وبسائر نواحى القبه صورة معلقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة ، كان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعت وحوله بنوه وقراباته وأبناء الملوك .

وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء وعلى الثالثة رؤساء الجيش وعلى الرابعة أرباب العمارات وعلى الخامسة أصحاب المهن وعلى السابعة العامة ويقال لكل صنف منهم تأديبا لهم : أنظروا من دونكم ولا تنظروا من فوقكم ، ثم أن المدينة تعاقب عليها السنون وخربت ، ثم عمل مكانها حصن وزرعوا هناك نخيلا كثير يحملون منه التمر والعجوة إلى بلاد مصر والاسكندرية والصعيد والمغرب وتمرها وعجوتها من ألذ الثمار وأحلاها ويسمى البيد ورويؤكل بالسمسم فتكون له لذة عظيمة(١) .

ياقــــوت :

جاء فى معجم البلدان : أن الواحات ثلاث كور غربى مصر ، ثم غربى الصعيد : ألواح الأول أوله مقابل الفيوم ممتد إلى أسوان وهى كورة عامرة ذات نخيل وضياع حسنه ، وبها تمر جيد أخر تمور مضر ، وهى أكبر الواحات ووراءها كورة أخرى يقال لها رواح الثانى ، وهى دون تلك

---

(١) ابن حوقل : ص ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٤

فى العمارة وكورة أخرى يقال : واح الثالثة : وهى دون الأولين فى العمارة ومدينة الواح الثالثة يقال لها : سنتريه(١) .

المسعودى :

جاء فى مروج الذهب : « أن بالواحات شجرة نارنج يقطف منها فى سنة واحدة أربعة عشر ألف حبه نارنج صفراء سوى ما يتناثر وسوى ما هو أخضر(٢) . !!

المقريزى :

جاء فى الخطط : أن الواحات منطقة وراء الوجه القبلى فى مغاربة ولا تعد فى الولايات ولا فى الأعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان ، وإنما يحكم من قبل مقطعها وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة بعضها داخل ببعض ، وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا يفتقر إلى سواه(٣) .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان : ج ٨ ص ٣٧١
(٢) المسعودى : مروج الذهب : نفس الجزء والصفحة
(٣) المقريزى الخطط : ج ١ ص ٣٣٧

أثر الغربة في شعر شوقي

بقلم

الدكتور عبد المنعم محمد يوسف



حياته قبل المنفى وظلالها فى شعره

(أحمـــد شـــوقى)

١٨٧٠ م — ١٩٣٢ م

ولد فى مدينة القاهرة بجهة الحنفى خرج إلى الوجود طفل يجمع بين السامى ، والآرى وينتهى نسبة كما يقول هو عن نفسه إلى العربية، والتركية، واليونانية ، والجركسية ، فانحدرت إليه هذه السمات عن آبائه وأمهاته ودرج إلى الحياة فى بيت موفور النعمة نازع إلى الاستقراطية الاجتماعية إذ كان بيتا مرعى الجانب محبوبا من ولاة السلطان منذ عهد محمد على الكبير وهذه الخطوة الأولى فى نشأة شوقى تبشر بنبوغ وامتياز فشوقى أمامنا مولد يرتد إلى عدة أجناس والمولدون يجمعون بين مواهب شتى من عدة شعوب فاذا تفاعلت كان فيها عبقرية فى أية ناحية واذا أردنا الاستشهاد لذلك فى تاريخ الشعر العربى وحده فانا واجدون أن (١) هؤلاء المولدين هم الذين حملوا لواء التجديد فى الشعر واخذوا على عاتقهم تحرير موضوعاته وأساليبه فكانوا معالم ممتازة فى تاريخه وانما أريد أمثال بشار بن برد وابى نواس وابن الرومى الذين أضافوا إلى الشعر العربى سمات طريقه فى الموضوعات والمعانى والأساليب لعل هذه السمات هى التى تلفت نظر مؤرخ الشعر العربى ولقد كان شوقى يحتل فى تاريخ الشعر الحديث منزلة تشبه منزلتى بشار وابى نواس فى تاريخ الشعر القديم من حيث أحياء الشعر وتحضيره والتجديد فيه وقد كلفته جدته لأمه واحبتـــه وحملته وهو فى الثالثة من عمره إلى

---

(١) يذهب إلى ذلك الرافعى ـ شعراء الوطنية نقلا عن التاريخ الثابت فى شهادة الليسانس التى نالها الفقيد من كلية الحقوق بباريس ـ ويتابعه الحوفى ـ فى وطنية شوقى ـ شوقى شاعر العصر الحديث ـ شوقى ضيف .

الخديوى اسماعيل وكان بصر هذا الطفل لا ينزل عن السماء بسبب اختلال أعصابه فطلب الخديوى بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقع الطفل أحمد شوقى على الذهب يجمعه ويلعب به وهنا قال الخديوى لجدته أصنعى معه مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت الجدة : هذا الدواء لا يخرج إلا من صيدليتك يامولاى . قال جيئنى به متى شئت ، أنى آخر من ينثر الذهب فى مصر ، وفى إجابة الجدة للخديوى اسماعيل ما يحمل أروع الدلالة على شاعرية خصبة كانت ممكنة فيها .

ويعنينا هنا أن نلاحظ هذه الارستقراطية التى بكرت إلى شوقى وهو فى المهد يلعب بالذهب هى التى طبعت أدبه فيما بعد بطابع أرستقراطى أرتفع به عن طبقات الشعب كما أرتفع هو بصياغته عن الشعر المهلهل السفساف .

وفى الرابعة عن عمره دخل مكتب الشيخ صالح حيث بدأ الدراسة والتعليم ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية فالثانوية واخيرا التحق بمدرسة الحقوق على صغر سنه ثم دخل مدرسة الترجمة وتخرج منها بعد سنتين وقد كان على عرش مصر إذ ذاك الخديوى محمد توفيق فالحقه بوظيفة بالمعية السنية فرح بها الشاب فرحا شديدا .

وهنا نقف قليلا لنلاحظ أن شاعرنا هذا قد رزق منذ نشأته قريحة وقادة وذكاء نادرا وتربية شريفة وثقافة نبيلة وأحاط بعلوم شتى ولغات عدة .

فكان واسع الثقافة والاطلاع رغيد العيش طويل الفراغ متصلا بالسياسة وخدمة الملوك متعلقا بالعرش المصرى والخلافة التركية الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية سمع شعار البارودى الذى أعاد إلى الشعر العربى رونقه القديم فأعجب به وحاول أن يظفر بمنزلته فأقبل على كتب الأدب ودواوين الشعراء وابتدأ كما قال عن نفسه بديوان البهاء زهير الشاعر المصرى فاحتذاه ثم درس ابن مطروح وابن النبيه ثم فتن بفحول السابقين أمثال

أبى نواس والبحترى وابى تمام والمتنبى والمعرى واخذ ينازعهم سلطانهم فأعجبه من أبى نواس خمرياته وغزلياته السابقة وحاكاها فقارب ورلقه من البحترى حسن ديباجته واوصافه وتشبيهاته حتى لا يظن أن أكثر ما نراه اشوقى فى وصف القصور والهياكل ومواكب الملوك مستمد منه أو محاكى به طريقته ولولا أنه سلك فى الحكمة وارسال المثل مسلك أبى تمام والمتنبى لكان خريج البحترى وحده .

ومن غير شك كان يختلط أثناء ذلك ببعض العناصر الديمقراطية من الشعب ، ولكنه كان اختلاطا محدودا ، إذ كان لا يلبث أن يعود إلى بيئته الاستقراطية فتضعف من شأن هذه الديمقراطية المكتسبة وترده إلى أرستقراطيه الأصيلة(١) .

وواضح أنه أخذ فى تعلمه الطريق المدنى ولم يأخذ الطريق الدينى ونحن نعرف أنه كان بمصر حينئذ نوعان من التعليم ،التعليم الدينى الشرقى فى الآزهر، وكان خاصا بالتراث الإسلامى و كان متأثرا بالقرون الوسطى وصورة العلوم فيها من لغة وطب وفلسفة وغير ذلك وهى شاحبة ضئيله ، والتعليم الغربى فى المدارس وهو تعليم يستمد من أوربا ومن كتب الآدب والعلم فيها ، وقد بدأ فى عصر محمد على ثم خمد فى عصر سعيد وعباس ، ثم عاد إلى النشاط والازدهار فى عهد اسماعيل .

وفى هذا الاتجاه من التعليم المدنى الأوربى سار شوقى وحينما أتم تعليمه الثانوى الحقه أبوه بمدرسة الحقوق ليدرس القانون ووصفه أحمد زكى حين دخل هذه المدرسة فقال « كان فى جميلة الوافدين سنة ١٨٨٥ فتى نحيف هزيل ضئيل قصير القامة وسيم الطلعة تقريبا فى بعيون متألقة ولكنها متنقلة كثيرا فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية ـ وإذا

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص ١١ .

تلفت صوب اليمين فيما ذاك إلا لكى يرمى ببصره نحو الشمال وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة هادىء ساكن وادع كأنما يتحدث نفسه إلى نفسه أو يتلاقى مع عالم الأرواح ما كان يلابسنا فما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا تهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما تتنفس الصعداء لانتهاء مواقيت الدراسة (١) .

والصورة التى رسمها أحمد زكى لشوقى توضح لنا معانى أخرى تتصل بشاعريته فهو يلاحظ أنه كان شعلة من الحركة المضطربة المتنافرة وهكذا هو شطحات بصرة ، أما بعد ذلك وفى أعماقه فهو ساكن وادع وهو مع هذا غافل عما يجرى مشغول بنفسه لا يلعب مع اللاعبين ولا يلقف الكرة مع اللاقفين .

هذه النشأة الأدبية الرسمية المبكرة انطقت شاعرنا بالشعر وهو طالب يدرس أولا ثم عينت اتجاه شعره وموضوعه الأول — ثانياً — فقد مدح الخديوى توفيق مرارا وهو فى المدرسة قبل أن يراه فلما اتصل بمعيته موظفاً بعثه إلى فرنسا سنة ١٨٨٧م ليدرس الآداب الفرنسية والحقوق وقد مكث هناك أربع سنين إلى سنة ١٨٩١ ثم عاد إلى مصر ولكنه لم ينس مولاه وهو يدرس فى فرنسا فأرسل إليه يهنئه بعيد الفطر ويشير إلى صلة أنفذها إليه توفيق باشا .

ونلاحظ من الناحية الفنية أن هذا الشعر بدائى تقليدى تعوزه القوة والبراعة .

عاش شوقى فى ظل توفيق نحو عشر سنين لا بد أنه قال شعراً كثيراً متصلا بالقصر أو خاصاً بحياة الشاعر وشبابه وبعضه فى الجزء الرابع من الديوان أو شىء منه فى سائر الأجزاء أو طى الكتمان لما ينشر للآن مع أنه أصدر ديوانه القديم سنة ١٩٠٠ فى عهد عباس الثانى مما يدل على أن شعر شوقى فى حاجة أشد إلى العناية بنشره من جديد .

(١) ذكرى الشاعرين (حافظ وشوقى) .

وأما عصر عباس الثانى وقد كان شاعرنا أثيراً لدى عباس وشاعره فكان أحفل العصور فى حياة شوقى بالحوادث والآثار الشاعرية وسبب ذلك تصادم التيارات السياسية العليا فى هذه البلاد بين احتلال بغيض غير مشروع وسياسة تركية يخفف من حدتها ضعف سلطانها ومايلابسها من صلة روحية بمصر، ثم استشراف مصر إلى الجلاء والاستقلال والحياة الدستورية مما جعل الوضع السياسى لمصر معقداً .

واضطر الشاعر أن يراعى التوازن فى شعره بين هذه الجوانب ومما يلاحظ أنه كان شديد الاحتفال بالأتراك فارغاً للأسرة المالكة المصرية وفقا لمطالبة النفسية واقفا لانجلترا بالمرصاد مع الخديوى وفى حدود ما يرى ، والواقع أن شعر شوقى فى هذه الفترة يعد سجلا لمواقعها الرئيسية وهو وحده ديوان أدبى لتاريخها ، ويكفى أن نشير هنا إلى بعض الأمثلة لنرسم السبيل .

أرسله عباس الثانى مندوبا للحكومة المصرية بمؤتمر المستشرقين الذى عقد بمدينة جنيف بسويسرا فى سبتمبر ١٨٩٤م فألقى هناك همزيته فى تاريخ مصر إلى عهده ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء

وحداها بمن تقل الرجاء

يقول فيها مما يتصل بحملة نابليون :

وأتى النسر ينهب الأرض نهبا

حوله قومه النسور ظماء

يشتهى النيل أن يشيد عليه

دولة عرضها الثرى والسماء

حلمت رومه بها فى الليالى ورآها القياصر الأقوياء
فأتت مصر رسلهم تتوالى وترامت سودانها العلماء
ولو استشهد الفرنسيس روما لأتتهم من روما الأنباء

ومهما يكن من قيمة هذه الهزيمة فلعل الذين يعرفون الغاية من مؤتمرات المستشرقين يدركون أن هذه القصيدة لم تكن ذات أهمية كتلك البحوث العلمية التى تتجه فى هذه المؤتمرات .

وتحدث حادثة دنشواى ويمر عليها عام والناس يلحون فى طلب العفو عن سجنائها فيقول شوقى :

يا دنشواى على رباك سلام
ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا
هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة
ومضى عليهم فى القيود العام
نوحى حمائم دنشواى وروعى
شعبا بوادى النيل ليس ينام
السوط يعمل والمشانق أربع
متوحدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر
تدمى جلود حوله وعظام

ولقد مرت بمصر حادثة فظيعة لم يقل فيها شوقى أول الأمر شيئا تلك هى حادثة دنشواى ولم ينطق إلا بعد مرور عام(١) .

---

(١) فى الأدب الحديث الجزء الثانى ص ٩٤

كان المنتظر من شوقى وأمثال شوقى أن يعبروا عن عواطف المصريين جميعا إزاء الكارثة وأن يشعلوها نارا مضطرمة الأوار متأججة السعير تحرق تلك القلوب الغليظة التى انتقمت من غير شفقة ولا رحمة من قوم عزل ضعاف مظلومين ولكن شوقيا اتبع سياسة القصر فى ذلك سياسة الحياد والمهادنة والخوف من كرومر الطاغية(١) .

بل نرى شوقى يتورط أحيانا فى مدح الإنجليز تبعا لتشكل موقفه السياسى منهم وقتئذ بموقف القصر أو تبعا لسيره حينذاك فى طريق المصلحة الشخصية ومن ذلك الشعر المتورط قصيدته التى قالها بمناسبة حفل تتويج الملك ادوارد السابع سنة ١٩٠٢ تلك القصيدة التى يقول فيها عن موكب الملك البريطانى :

إلى موكب لم تخرج الأرض مثله
ولن يتهادى فوقها من يقاربه
إذ سار فيه سادة الناس خلفه
وشدت مغاوير الملوك ركائبه

ولا شك أن حادثة دنشواى من الجروح الأليمة فى أديم مصر وفى تاريخها الحديث وقد صور شوقى لفتحها والآلام لم يبلغ فى ذلك مايجب ولعلها تستحق أن تقيم دراما مروعة ينهض بكتابتها أدباء المسرح الحديث .

ويذكر شوقى حريق ميت عمر المشهور فيتألم لهذه المدينة ويصف مآسيها الفاجعة يقول :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٦

لو أن فيرون الجـاد قواده
يدعى لمنظرها لعاف المنظرا
أو أنه ابتلى الخيل يمثلها
استغفر الرحمن ولى مدبرا

وكان شاعرنا يرقب أطوار الحياة السياسية والاجتماعية فى تركيا ، فيسجلها واحدة واحدة وشعره فى هذا الباب جيد كثير يعتمد على شعور صادق وعلى هذه الصلة بين القاهرة والاستانة وعلى أساس جنسى ودينى .

وكان شوقى على كل حال ظل عباس الثانى فى هذه المواقف وظل الرأى المصرى والإسلامى العام إلى حد كبير ففى حرب تركيا واليونان الأولى يقول بائيته التى خاطب فيها السلطان عبد الحميد :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب
وينصر دين الله أيان تضرب
نزل الهلال عن السماء فليتها
طويت وعم العالمين ظلام

ويقول فى الدستور العثمانى :

الرأى رأى أمير المؤمنين
جارت رجال وضلت فى مرائيها
وإنما هى شورى الله جاء بها
كتابه الحق يعليها ويغليها

وفى ظل الراية الإسلامية التى ترفعها تركيا وترقبها البلاد الإسلامية يغنى شوقى بميلاد الرسول والسنة الهجرية ويضفى على الوقائع التركية لونا

من الوقائع الإسلامية الأولى حتى طبع قسم كبير من شعره بهذا الطابع الإسلامي .

ومع عنايته بمصر وتركيا لم يغفل الأحداث والمسائل المالية العامة التي تستوقف نظر العالم وتستدعي عنايته سواء منها ما يتصل بالماضي وما يتصل بالحاضر فلما زار اثينا سنة ١٩١٢ لحضور مؤتمر المستشرقين قال فيها :

إن تسألي عن مصر أحواء القوى ... وقراره التاريخ والآثار
فالصبح في منف وطيبة واضح ... من ذا يلاقي الصبح بالأفكار

الحقيقة الإسلامية فى شعر شوقى

من يطلع على الشوقيات يستطيع أن يتبين الحقيقة الإسلامية إما فى قصائده التى اتجه بها نحو مدح الرسول عليه السلام وإما فى قصائده الكثيرة التى يتغنى فيها بالخليفة وبالترك وشجاعتهم وخلقهم وما ينوطهم به المسلمون من آمال تجيش فى صدورهم .

ولشوقى فى هذا الباب قصائد كثيرة وخاصة فى عهد الخليفة عبد الحميد ومن أروع مانظمه فى هذه التركيات قصيدته « صدى الحرية »

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب
وينصر دين الله أيان تضرب

وما السيف إلا آية الملك فى الورى
ولا الأمـــر إلا للذى يتغلب

والأندلس الجديدة :

يا أخت أندلس عليـــك سلام
هوت الخـلافة عنـك والاسلام

نزل الهـلال عن السماء فليتها
طويت وعم العالمين ظلام

تحية الترك :

بحمـــد الله رب العالمينا وحمـدك يا أمير المؤمنينا
لقينا فى عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا

ولا يقرأ الإنسان هذه القصائد حتى يحس عاطفة قوية ويعلل ذلك شوقى ضيف (ربما كان ذلك يرجع من بعض الوجوه إلى عنصر شوقى

التركى فكان يستشعر فى نظمه أباءه وأصوله وفى الوقت نفسه كان يريد أن يرضى سيده وكان أيضا يريد أن يرضى الشعوب الإسلامية فاجتمعت أسباب متشابكة لتضفى على تركياته جمالا وقوة)(١) .

وقصائده التى اتجه بها نحو مدح الرسول الكريم أشهرها نهج البردة والهمزية وتعدان أحفل شعره المحافظ بمظاهر التقليد فقد جرى فى نظمها على المعتاد فى جمهرة شعره وزاد فاتخذ فيهما من البوصيرى استاذا يقتبس منه ويتشبه به ثم لا يكاد يقتصر فى هذا ولا ذاك فانما يريد أن يكونه وكفى(٢) ويبدوا أن البوصيرى فى قصيدتى البردة والهمزية لم يتخذ من شاعر أماما ولا من شعر مثالا فجاءنا صورة لنفسه أو وحيا عن حسه .

والغالب أنه مع ذلك فكر فى بعض ما دحى الرسول ونظر إلى بعض مدائحهم فيه كدأب الناس كلما عالجوا امرا ذا بال ، وكان للسابقين فيه مقام وذكر ، فإذا صح هذا فكعب بن زهير على ما أرجح أحق أن يكون أسبق السابقين إليه ، وأطولهم ملازمة له . وقصيدته (بانت سعاد) أحق تبعا لذلك أن تكون أول المدائح النبوية خطورا بالبال وأوضحها تمثلا له وأشدها اثارة لا تباهه فقد ظفر كعب وقصيدته من سعة الشهرة وحفاوة الأدب بأفضل ما يظفر به منهما شاعر وقصيدة .

وكانت داعية البوصيرى قبل ذلك إلى نظم البردة تشبه داعية كعب إلى نظم بانت سعاد شبها كبيرا فكان كلاهما من الرسول عليه السلام بمقام العائذ المستشفع كربه الهم وضاقت عليه الأرض وتقطعت به الأسباب إلا أن كعبا كان يستشفع إلى الرســـول وصاحبه كان يستشفع به

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص ٢٩ للدكتور شوقى ضيف .

(٢) الدين والاخلاق فى شعر شوقى ص ٢١ على النجدى ناصف .

صلوات الله وسلامه عليه فكعب كان طريدا مشردا هجا الرسول وصد عن دعوته فسخط الرسول عليه وأهدر دمه فأشفق كعب وأيقن بالتلف ولم يدر أول الأمر ما يصنع ثم بدا له أن يعوذ الرسول ويستشفع إليه بالشعر الذى أسخطه عليه ، فنظم بانت سعاد وقصد بها إليه فأمنه إليه وعفا عنه وتقبل قصيدته وأثابه عليها بردته الشريفة الطاهرة . وأما البوصيرى فكان مريضا عاجزا ولا أمل إلا فى بركته فنظم البردة يمـــدح فيها الرسول الكريم ويستشفعه إلى الله أن يلطف به ويكشف الضر عنه ومن قوله رحمة الله فى ذلك .

« فعملتها — يعنى القصيدة ، وكررت انشادها وبكيت ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجهى بيده المباركة وألقى على بردة فانتبهت ووجدت فى نهضة فقمت(١) ولأمر ما رأى رسول الله حين رآه يلقى عليه بردة . أليس ذلك هو ما فعل النبى إذا نشده كعب (بانت سعاد) أو ليس ذلك حقيقيا بالإشارة إلى البوصيرى حين فكر فى قصيدته كان يفكر أيضا فى كعب وقصيدته وأنه كان يغبط ويود لو أدرك بالبردة مثل الذى أدرك صاحبه ببانت سعاد وللبوصيرى بعد ذلك كله مدحه نبوية على نمط بانت سعاد فى الوزن والقافيه ومطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول

وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وعجيب أن يكون البوصيرى فى قصيدتيه هاتين على ما يبدو من الاستقلال والحفاظ على الشخصية وأن كان ليعيش فى عصر اتسم بالتقليد والجمود وأن يكون شوقى على ما نرى من الاقتداء والمحاكاة وإن كان ليعيش فى عصر تهيؤ ونهوض .

---

(١) فوات الوفيات

والباعث عند شوقى أنه نظمها بمناسبة حج عباس حلمى الثانى وسار الشاعر فى طريق البوصيرى ولقد تفضل فضيلة شيخ الجامع الازهر انذاك فشرحها وربما كان اروع ما فى القصيدة التى فتنت شيخ الازهر فجعلته يشرحها المقطع الخاص بالدفاع عن غزو الرسول مما يردده المبشرون وبعض المستشرقين عن الإسلام وأنه انتشر بالسيف والدم يقول :(١)

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل احلام وسفطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

وواضح أن شوقيا يدافع عن غزو الرسول وأنه لم يغز إلا بعد الدعوة بالحسنى وعرض قرآنه على الكفار وقد أخذ يقرر أن الشر لا ينحسم إلا عن طريق السيف إلا بالشر وراح يوازن بين الإسلام والمسيحية فرآها لم تنشر إلا عن طريق السيف والقوة على نحو ما هو معروف فى عهد قسطنطين وحلفائه ثم نظر فى دولها الحاضرة والدولة الإسلامية فوجد الدول المسيحية تعد كل ما تستطيع من قوة لتحطم الاسلام والمسلمين فهى التى تستغذى السيف وتسفح الدماء(٢) .

وفى كثير من جوانب شعر شوقى يردد هذا اللحن الدينى وما يتصل به من تمجيد الإسلام ويشعر الإنسان فى غير موقف بأنه راسخ العقيدة وهو القائل :

فلم أر غير حكم الله حكما ولم أردون باب الله بابا

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث — للدكتور شوقى ضيف

(٢) شوقى شاعر العصر الحديث ص ١٣٣ للدكتور شوقى ضيف .

على أنه ينبغى أن لا نبالغ وتصور نزعته الدينية ونظنها نزعة صوفية فيه ، فقد كان يغنى الجماعة الإسلامية بهذا ونحوه .

ثم اتجه إلى حث الأمة الاسلامية على استعادة أمجادها وبعث الأمجاد العربيه ومقاومة المفاسد التى جاءت بها المدينة الغربية وكان تلك نتيجة لتطور الحقيقة الإسلامية فى شعر شوقى .

أسباب نفيه

إذا كانت سنة ١٩١٤ قامت الحرب العظمى وسافر عباس الثانى إلى تركيا ولم يعد وأعلنت الحماية الإنجليزية على مصر، وقطعت صلاتها بتركيا وتولى السلطان حسين كامل عرش البلاد فيقف شاعرنا مرتاعا لهذه الأحداث ويتعقد موقفه بين تركيته القائمة على الجنس والدين وبين انجلترا عودته بالأمس والمتسلطة عليه اليوم وبين مولاه عباس الذى حرم عرشه وبين هذا البيت العلوى الذى رعاه ويتزعمه اليوم السلطان حسين كامل فماذا يفعل بين هذه التيارات المتناقضة .

لقد حاول شوقى أن يؤلف بين هذه المتناقضات جميعاً فى لاميته التى قالها بعنوان السلطان حسين كامل :

الملك فيكم آل اسماعيلا
لا زال بيتكم يظل النيلا

هنأ السلطان وأثنى على الإنجليز وعتب على تركيا عداوتها لإنجلترا ووفى للبيت المصرى المالك وعزى المصريين ونعى عليهم اختلافهم وعطف على عباس قلب عمه السلطان حسين كامل كل ذلك فى هذه القصيدة التى تعرض خبر شعره وربما كانت فاتحة شعره التوى الجديد واورد هنا بعضها فقد قال بعد المطلع :

لطف القضاء فلم يمل بوليكم
ركنا ولم يشف الحسود غليلا

هذى أصولكم وتلك فروعكم
جاء الصميم من الصميم بديلا

ووجدت أباني على صدق الهوى
وكفى بأباء الرجـال دليـلا

وبرغم محاولته استرضاء الإنجليز لم ينجح لأن روح الحنق على الإنجليز كانت مظاهرها واضحة فى نفس القصيدة .

وانفض ملعبه وساهره على
أن الرواية لم تتم فصولا

واضطر شوقى إلى أن يرحل من مصر وترك له الإنجليز حرية أختيار البلد التى يريد أن يقيم فيه فاختار أسبانيا المحايدة وفضل ميناءها أشبيليه باعتبارها أقرب ميناء إلى مصر ونحن مضطرون أن نترك مصر معه وأن نسايره فى الأندلس نحو خمس سنين .

يراجع فى ذلك :

(١) وطنية شوقى : الحوفى .

(٢) ابن شوقى : حسن شوقى .

(٣) من نضال أحمد زكى أبو شادى مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٨٥

المنفى وحياته فيه ومشاعره

وإذا كان هذا المنفى نقمة على شوقي الرجل فقد كان نعمة على شوقي الشاعر، خرج به في الحقيقة من السجن إلى الحرية، فترك تقاليد القصر وعقد السياسة وعيون الرقباء إلى حيث يعيش حراً طليقاً فارغاً للشعر يعطيه كل مواهبه ويعطيه حقه من الإخـــلاص والعناية والتجويد ويتلقى عن وحيه ماشاء الشعر من جلال وروعة وجمال وعندي أن شاعرية شوقي الخالصة لم تنطلق من عقالها وتتخذ طريقها إلى النضج والاكتمال إلا منذ نفى، ففي المنفى توافر لشوقي مع هذه الحرية ذلك الحزن على حياته المصرية وما لابسها أخيراً من أحداث تستدعي العظة والاعتبار، ثم ما لقي في الأندلس من عنصرين يعدهما معين الشعر: الطبيعة والتاريخ فاستطاع أن يستمد منهما هناك ما شاءت له عبقريته الفذة(١).

أما طبيعة الأندلس فهي التي خرجت لنا شعر الطبيعة العزيز في الأدب الأندلسي كما نجده عند ابن حمديس، وابن هانىء وابن خفاجة.

ومن نماذج الوصف عند ابن حمديس:

وضراغم سكنت عرين رياســـة
تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشى النضار جسومها
وأذاب في أفواهها البلورا

ومن نماذج الوصف لابن خفاجة:

وأرعن طماح الذوابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بغارب

---

(١) أندلسيات شوقي: لصالح الأشتر ٦٩

يسد مهب الريح من كل وجهة
ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالى مفكر فى العواقب

وقد مر شوقى فى طريقه إلى الأندلس بقناة السويس مع أبنية فلم يمر بها ساكنا، بل أرخها أجل تاريخ أدبى سياسى، أضفى عليها من نفسه جلالا ندر أن تظفر به وذلك بقصيدته المنشورة قناة السويس : التى يقول فيها : تلك يا أبنى القناة، لقومكما فيها حياة ذكرى اسماعيل ورثاه، وعليا مفاخر دنياه، دولة الشرق المرجاه، وسلطانه الواسع الجاه طريق التجارة، والوسيلة والمنارة، ومشرع الحضارة تعبرانها اليوم على فرجاة كأنها فلك النجاة خرجت بنا بين طوفان الحوادث، وطغيان الكوارث، تفارق مغتصبه مغزى القضية قد أخذ الأهبة وأستجمع كالأسد للرثبة .

أن للنفى لروعة وأن للنأى للوعة، وقد جرت أحكام القضاء بأن تعبر هذا الماء حين الشر مضطرم واليأس محتوم، والعدو منتقم، والخصم محتكم، وحين الشامت جذلان مبتسم، يهزأ بالدمع وأن لم ينسجم نفانا حكام عجم أعوان العدوان والظلم إلى آخر القصيدة(١) .

وأخيراً نزل إلى الأندلس هذا المحراب الجديد والكعبة القدسية لهذا الحاج الراغم، فاستقبل هذه الآثار الخالدة للدولة العربية فاستخرج منها عبر التاريخ العابر ووصلها بعظات التاريخ الحاضر وكان يحسن التفكير والتصوير والتعبير حتى عدت أندلسياته صفحة خالدة للشعر والتاريخ .

ولعل أول من ذكر شوقى من الأندلسيين هو صقر قريش عبدالرحمن

---

(١) أسواق الذهب ٢٦

الداخل مؤسس مجد بن أميه هناك ومقيم هذه الدولة الأندلسية المستقلة ، ذلك الغريب العبقرى أول من يستحوذ على ذهن شاعرنا فيذكره، ويذكره بهذا الفن الأندلسى المحبوب ، التوشيح يختصه به مؤرخا دولته مشيداً بمجده الممتاز :

صحب الداخل من أخوته   حدق خاض الغمار ابن ثمان
غلب الموج على قوته   فكأن الموج من جند الزمان

ولم ينس ابن عباد ملك أشبيلية وأودية الطلح فقرن به نفسه وذكر غربته ووطنه معارضاً ابن زيدون فى قصيدته المشهورة قال شوقى يرحمه الله :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

ولو أنى طاوعت نفسى لتركت هذا الحديث العام ووقفت عنه هذه القصيدة وحدها من وطنيات شوقى حيث التقت صيحات الغرباء واحتشد الفن فى أرفع درجاته ، ومع ذلك فسأتخذها مناسبة للإشارة إلى هذه المراسلة بالشعر بين شوقى فى منفاه وبين زميلية صبرى وحافظ فى مصر ، فقد كان شوقى أرسل إلى الإستاذ داود بركات هذين البيتين من هذه النونية وطلب إليه عرضها على اسماعيل صبرى :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا
بعد الهدوء وتهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دما
هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا

ثم أرسل إلى حافظ ابراهيم هذه الأبيات :

يا ساكنى مصر أنا نزال على
عهد الوفاء ، وأن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نبل به أحشاد صادينا
كل المناهل بعد النيل آنية
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ بهذه الأبيات :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للإصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأعنه وأن فارقت شاطئه
وقد نأينا وأن كنا مقيمينا

وهكذا نجد طابع الغربة الحزينة سيطر على أندلسيات شوقى شعراً ونثراً ، فهناك نظم ديوانه : دول العرب وعظماء الإسلام : وأكثر ديوانه المنثور : أسواق الذهب : وليس ما نشر منها فيما أرى هو كل أندلسياته ولكنه ظفر فى منفاه بالشاعرية الخالدة التى أجتمعت له من روعة النفى ، وعبر الزمن ، وحرية النفس وحب الوطن ، فكان من ذلك أصفى شعره وأهم دواوينه الفنية والركن الأول فى بناء الشاعر شوقى .

ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها تنقل شاعرنا بين معالم الأندلس

وقف على قصر الحمراء بغرناطة ولعله أنفس الآثار العربية هناك وقفة البحترى على ألوان كسرى وعارض سينيته بمثلها فقال :

اختلاف النهار والليل ينسى
اذكرا لى الصبـــا وأيام أنسى
وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسى

ولو أننا فرغنا لدرس هذه السينية لاقتضتنا ساعات .

عودة الشاعر

وبعد لأى يغادر شوقى منفاه ويعود إلى مصر سنة ١٩١٩ م بعد أن أذن له الخديوى فؤاد بذلك فيفرح بعد يأسه ، وينتهى تجواله فى ربوع الأندلس ويتعجل فى مغادرة أسبانيا إلى مصر ولا ينتظر شوقى ابحـار أولى السفن الأسبانية إلى السويس فموعد مغادرتها أسبانيا بعيد .(١)

والشاعر يتحرق شوقا إلى العودة ، ولهذا يبحر مع أهله إلى جنوا ومن ثم يركبون القطار إلى البندقية ، ليلحقوا بأول سفينة تغادر ميناءها إلى مصر .

وهكذا يعود شوقى إلى وطنه شيخا فى الحادى والخمسين من عمره وقد آلام المنفى وهمومه إحساساً بشيخوخته . ولكنه ما كاد يحط أقدامه فى بلده حتى يحس بقوة الشباب تتدفق من جديد فى عروقه :

فياوطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

وعندما وصل شوقى الأسكندرية استقبله لفيف من أقاربه وآخلص أصدقائه .

أما القاهرة فقد كان استقبالها للشاعر العائد رائعاً حقاً ، فقد تجمع فى فناء محطتها آلاف الطلبة لتحيته .

وغص ميدان المحطة بجموع الشباب ، وما أن نزل شوقى من القطار حتى دوى الهتاف بحياته فى حماسة طاغية . وحمله الطلاب على أعناقهم فى عاطفة من التهليل والتصفيق حتى السيارة .

---

(١) أندلسيات شوقى : صالح الأشتر ٤٠

كان هؤلاء الطلاب الشباب جنود الميدان فى تلك الساعة . تفتحت فى نفوسهم تلك البذور التى زرعها مصطفى كامل ، ورعاها من بعده فيهم الزعيم سعد زغلول .

إنه الجيل الجديد الذى سيخط بيده تاريخ مصر الحديث . فى عيونه نظرات العزم ، وفى دمائه غليان الرجولة ، وفى أعصابه ثورة الكرامة ، إنه الشعب الذى استيقظت طليعته ، ففتحت أعينها ورأت ماتعانيه مصر المرزأة من ظلم سياسى واقتصادى .

لقى شاعرنا أوضاعاً جديدة واتجاهات مختلفة ، من ملك جليل عاهل يجلس على عرش مصر .. فؤاد الأول ، ويشرف على هذا النشاط المصرى المتعدد النواحى فى أعقاب الحرب العظمى ، ومن نهضة مصر يقودها سعد وصحبه متفقين ومختلفين وأحزاب قديمة وحديثة . وشبان متقدمون وقوداً لهذه النهضة ، ومن اقتصاد قومى فى ظل بنك مصر ومنشآته ومن يقظة اجتماعية تتناول المرأة والعامل والتقاليد ، ومن نهضة علمية عامة يسندها الأزهر والجامعة ودار العلوم وغيرها من معاهد ومسارح وكل شىء فى مصر أخذ يتحرك مجداً نشيطاً ، والحكومة تساير ذلك كله بإرشاد البرلمان

والخلافة قد بدأت تلفظ أنفاسها بعد الهزائم التى لحقت بتركيا خلال الحرب الكبرى ، ثم كانت نهايتها حين ألغاها مصطفى كمال ، وأقام فى تركيا دولة جمهوريه حديثة ، وهكذا لم تعد مصر جزءاً من الدولة العثمانية بعد زوال هذه الرابطة التى كانت تشدها إليها فيما سبق .

أما الإنجليز ، فقد عدلوا من موقفهم فى مصر تحت الضغوط التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ م فبدأوا يقنعون استعمارهم بقناع من الاستقلال الشكلى ، وراحوا يعملون على تحقيق أهدافهم بالتآمر مع القصر ، أو بتسخير بعض الزعماء المنحرفين .

وقد كان بريق الحكم قد أعشى بعض العيون فتفرق زعماء ثوره ١٩ إلى حزبين رئيسيين ، الأول حزب الوفد الذى رأسه سعد زغلول والذى كان - رغم كل مايقال - يمثل القوى الوطنية المناضلة ، وينال ثقة الغالبية العظمى من أبناء الوطن ؛ والحزب الثانى هو حزب الأحرار الدستوريين ، الذى كان رئيسه أولا عدلى يكن ثم عبدالعزيز فهمى ، والذى كان يمثل العناصر الاقطاعية والارستقراطية :

وكان إلى جانب هذين الحزبين الكبيرين عدة أحزاب أخرى لم يكن لها نفوذ الحزبين الرئيسيين .

ومن هذه الأحزاب الحزب الوطنى الذى فقد الكثير من قوته بعد انتهاء الخلافة ، وموت كبار زعمائه ، وأصبح يمثل النضال الوطنى المنشود والطموح السياسى الذى لم يكن عملياً فى نظر السياسيين فى ذلك الحين وحاول الشاعر أن يتقرب من القصر ولكنه لم ينجح فى هذه المحاولة إلا بمقدار :

ولذلك ظل موقفه الوطنى أول الأمر متأرجحاً لايجارى الشعب إلى نهاية الشوط فى حماسته الوطنية الجارفة ، ولعلنا نلمح هذا الموقف واضحاً فى القصيدة التى نظمها فى سنة ١٩٢٠ عن مشروع ملنر الذى أجمع الوطنيون على رفضه ومقاطعة اللجنة كلها مقاطعة تامة .

ومع ذلك نرى أحمد شوقى يدعو مواطنيه إلى قبوله قائلا فى هذه القصيدة :

لا تستقلوه فما دهركم بحاتم الجود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطلع على قنا الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدة عن غصبه

وقد كان لهذه القصيدة وقع سىء فى نفوس المواطنين وأحس شوقى بزلته فعدل عن روح التخاذل ، وصدر عن روح وطنية شعبية فى القصيدة التى نظمها بعد عامين عن مشروع ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وكان الانجليز قد أعلنوا به نهاية الحماية البريطانية وقيام الملكية فى مصر وتولية السلطان أحمد فؤاد ملـكا على عرشها وان كانوا قدشفعوا هذا التصريح بتحفظات أربعة وهذه التحفظات هى :—

١ — تأمين المواصلات البريطانية الامبراطورية فى مصر .

٢ — حماية مصالح الاجانب والأقلية .

٣ — الدفاع عن مصر فى حالة الاعتداء عليها سواء أكان اعتداء مباشرا أم غير مباشر .

٤ — مسألة السودان .

فرغت هذه التحفظات الاستقلال عن مضمونه الحقيقى ومن ثم لم يرق أبدا هذا التصريح فى عين أحـد من المواطنين فقد لمحوا اسم الناب الأزرق فى ثناياه .

وكانت هذه حلقة أخرى من حلقات الصراع الوطنى من أجل الحرية والاستقلال ، حلقة جديدة قـــدر لشوقى ان يعاصرها وان يعيش فى أحداثها الجليلة يوما بعد يوم ، ودقيقة بدقيقة ومن ثم كان عليه أن يدلى بدلوه فيها .

وان يعبر عن موقف البلاد إزاء تلك الاحداث التى تمر بها ثم من بعد موقفه هو أيضا . كان موقف شوقى يدل — هذه المرة على الرفض ، فهو يتحدث عن الجهاد والكفاح ، أن لا راحة الا بعد جهاد ونضال وشقاء ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل الغايات السامية والأهداف الرفيعة .

انظر الى شوقى ينطق الحكمة فى فاتحة قصيدته ٢٨ فبراير :

اعدت الراحة الكبرى لمن تعبا
وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وعلى آية حال فان المتتبع لنتاج احمد شوقى الشعرى بعد عودته من المنفى يحس فى وضوح بتطوره المستمر نحو الاقتراب من الشعب ومن قضاياه الوطنية والاجتماعيه ، ثم تطوره مع الشعب أيضا نحو الاحساس القوى بالتضامن والقومية العربية فشوقى يتابع المد الوطنى والثورى والقومى لشعبه ولامته العربيه كلها ، ويحزن عندما يدب الخلاف بين صفوف الزعماء الذين قاموا بتحدين بثورة ١٩ ، وعندما يصل هذا الخلاف الى حد تهديد قضية الوطن ذاتها يصيح الشاعر بهؤلاء الزعماء صيحته الخالدة سنة ١٩٢٤ فى القصيدة التى نظمها عندئذ بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة الزعيم مصطفى كامل ، وسماها شهيد الحق واستهلها بقول :

الام الخلف بينكم الاما — وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض — وتبدون العداوة والخصاما
واين الفوز لا مصر استقرت — على حال ولا السودان داما

ولما نجا سعد زغلول من الاعتداء عليه وهو مسافر الى انجلترا للمفاوضه مع حكومتها هناه شوقى بالنجاة بقصيدته التى يقول فيها :

نجا وتماثل ربانها — ودق البشائر ركبانها
ويا سعد انت امين البلاد — قد امتلأت منك ايمانها
ولن ترضى أن تقد القناة — ويبتر من مصر سودانها

ويفرج عن سجناء المحاكم العسكرية الانجليزية سنة ١٩٢٤ فى وزارة سعد زغلول فيقول :

يامصر اشبال العرين ترعرت ومشت اليك من السجون أسودا

طلبوا الجلاء على الجهاد يثوبه لم يطلبوا اجر الجهاد زهيدا

والله مادون الجلاء ويومه يوم تسميه الكنانة عيدا

وفى الناحية الاقتصادية تراه يقول فى الاحتفال بانشاء بنك مصر من قصيدة :

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها باجمال

يا طالبا لمعالى الملك مجتهدا خذها من العلم او خذها من المال

هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا
رأيا لرأى ومثقالا لمثقال

هذا هو الحجر الدرى بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالى

وكذلك لما وضع الحجر الاساس فى بنائه سنة ١٩٢٥م ثم يكون مشروع القرش سنة ١٩٣٢م فيشارك الشباب الاحتفال به بقصيدة لعلها آخر ما قال وهى التى تليت يوم وفاته رحمه الله :

لا يقيمن على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد

فتية الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد

هو صوت الحق لم يبلغ ولم
يحمل الحقد ولم يخف الحسد

الجانب الاجتماعى

وكانت هنا ولا تزال نهضة اجتماعية تناولت المرأة والصحافة والعمال فشارك فيها شاعرنا قال فى نقابة الصحافة :

لكل زمان مضى آيـــة وآية هـذا الزمان الصحف

ويتحدث عن دور العمال فى النهضة الاجتماعية فيقول :

أيها العمال افنوا العمر كدا واكتسابا

ويشيع انتحار الطلبة اثر سقوطهم فى الامتحان فيقطع عليهم سبيل اليأس ويبسط لهم مجال الامل بقوله :

ناشىء فى الورد من أيامه حسبه الله ، أبا لورد عثر

ويصيح فى وجه الشيوخ الذين يرغبون فى الزواج من الفتيات فيقول :

ظـلم الرجال نساءهم وتعسفوا هـل للنساء بمصر من أنصار

وتقوم معركة أدبية بين أنصار السفور وأنصار الحجاب فيقول فى ذلك قصيدة رقيقة ينصح فيها الفتاة بالاناة ويحذرها مزالق الحياة .

صداح يامـــلك الكنار ويـا أمـــير البلبـل

وقد عنى بالنهضة العلمية فحيا الجامعة والازهر ودار العلوم والمعلمين . فيقول فى الأزهر :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدران فصلتة فى مدحه خرز السماء النيرا

واذكره بعد المسجدين معظما لمساجد الله الثلاثة مكبرا

أثر الغربة فى شعره

كان شوقى فى أول حياته لا يميل إلى المديح، لأنه يفسد المواهب ولكنه بحكم صلته الوثيقة بقصر الخلافة فى تركيا والبيت الحاكم فى مصر اضطر إلى المديح، وكان يزدهيه فى مطلع شبابه أن يكون شاعر الأمير لما فى ذلك من شهادة بتفوقه وامتيازه.

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

ويرغم نفوره الطبيعى من المديح جاءت شاعريته بغرر القصائد فى مدح الخليفة، والجالسين على عرش مصر، ويرجع سبب اجادته لتلك القصائد أنه كان يصدر عن انفعال صادق، حيث يرى الخلافة الإسلامية رمز وحدة الأقطار العربية ينشب الاستعمار فيها أظفاره.

وشوقى كان يعترف بفضل اسماعيل فهو يمدح البيت الحاكم استجابة لما فى طبعه من سجية الوفاء.

أأخون اسماعيل فى أبنائه   ولقد ولدت بباب اسماعيلا

وهذا الصدق الفنى هو ما أعوز أكثر شعراء المديح حين صاغوا آيات الثناء والتمجيد فى الحكام نفاقا وتزلفا استجداء للعطاء. وتوزعت شخصية شوقى بين وفائه لارباب نعمته وولائه لفنه الشعرى ولأمته، وحاول أن يوفق بين هذا وذاك فكان يزجى النصائح للحكام، ويذكرهم بحقوق الشعب فى مهارة يبدو معها كأنه يجعل هؤلاء الحكام معقد الرجاء لرعاية هذه الحقوق وقصائد المديح — قبل المنفى مسرفة فى الثناء على ممدوحيه بما لا يستحقون ولكننا لو تعاطفنا مع قصائد المديح فى هذه الفترة لوجدنا الشاعر يرسم صورة مثالية للحاكم العادل الذى افتقدته البلاد طويلا. وبعد أن تحرر من القصر واتجه إلى الشعب والأمة العربية والإسلامية أخذ مكانه قائدا

نضاليا يدافع عن كل هذه القضايا ومن يطالع ديوان شوقى يجد أن الرثاء يشغل حيزا كبيرا منه . وهذا الرثاء أعمق من المديح لأن شوقيا فى مديحه كان يتجه نحو الحكام والولاة ، ولكن الرثاء اتسع لكل دعاة الاصلاح من مختلف الطبقات . ولقد عاب عليه بعض النقاد أسرافه فى الرثاء فرد عليهم يقول :

يقولون : يرثى الراحلين فويحهم

أأملت عند الراحلين الجوازيا

ولقد خطا شوقى بخطوة أرحب فى رثائه من البارودى فقد كان الرثاء عند البارودى مقصورا على أهله وذويه وكان يصدر عن معاناة حقيقية ، ثم جاء من بعده شوقى فانطلق به فى الاتجاه القومى العام ، ونشعر باندماجه فى الموقف الشعرى ، وقوة انفعاله به فى تمثيل المرثيه للفقيد بحيث لو حاولنا نقلها إلى فقيد آخر لما استطعنا إلى ذلك سبيلا . كقوله فى رثاء عبده الحامولى أمير الغناء فى عصره :

ساجع الليل طار عن أوكاره وتولى من على آثاره

ومنها البيت المشهور :

يسمع الليل منه فى الفجر ياليل فيصغى مستمهلا فى فراره

أحب شوقى التاريخ فى أول حياته الأدبية وازداد عشقه له بعد أن أطلع على الثقافه الأوربية وقرأ هوجو ديوانه . وشوقى ينتخب من التاريخ مايحمل العظة والعبرة فلم ينهج نهج القدماء فى سرد الأحداث وذكر الشخصيات ، وقرأ التاريخ المصرى القديم وتاريخ مصر الإسلامية وتاريخ الترك وله قصائد أربعه فى كل ذلك وهذه القصائد تحما إلى هدف وتقصد إلى غاية كما صرح بذلك فى قوله :

غال بالتاريخ وأجعل صحفه   من كتاب الله فى الاجلال قابا
قلب الأنجيل وانظر فى الهوى   تلق للتاريخ وزنا وحسابا
واطلب الخلد ورمه منزلا   تجد الخلد من التاريخ بابا
مثل القوم نسوا تاريخهم   كالقيط عى فى الناس انتسابا

وله فى البطولات الإسلامية قصائد شهيرة منها :

نهج البردة والهمزية . وقد ألم الشاعر فى هاتين القصيدتين بتاريخ الأمة العربية . ووازن بين حال الناس بعامة قبل البعثة، وحالهم بعد مجىء الهدى كقوله يناجى الرسول الكريم .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم   إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة   بكل طاغية فى الأرض محتكم

ووقف شوقى على روائع الآثار يستلهمها العظة والعبرة وقال فى الأندلس قصائد رائعة منها القصيدة السينية التى يعارض بها ابن زيدون ومطلعها :

يانائح الطلح أشباه عوادينا   نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

وسبقت الأشارة إلى دوره السياسى ، وشعره الاجتماعى يكاد يكون غرضا جديدا على الأدب العربى إذ استثنينا شعر أبى العلاء المعرى . أما كثر الشعراء فقد حصروا أنفسهم فى دائرة الملوك والأمراء ، ويندر التفاتهم إلى الطبيعة الكادحة ، ومن شعره الاجتماعى قوله فى الحث على مساعدة الهلال الأحمر :

جبريل هلل فى السماء وكبر   أكتب ثواب المحسنين وسطر
سل للفقير على تكرمه الغنى   وأطلب مزيدا فى الرخاء لموسر

وشوقى مضى بمظاهر النهضة العلميــة فى مصر حيث يقول فى إنشاء الجامعة المصرية قصيدتين رائعتين ، ويحرص على اغراء الأمة بالعلم ويجعل المعلم فى أسمى منزلة :

قم للمعـلم وفـه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

ويتغنى بتأسيس بنك مصر ، ويثنى على كل من يقـدم مكرمه لبلاده ويقول فى العمال ويحثهم على النهوض بمصر .

وقوله فى رثاء ولده على شوقى :

أنا من مات ومن مات أنا   لقى المـوت كلانـا مرتين
نحن كـنا مهجــة فى بدن   ثم صرنـا مهجة فى بدنـين
ثم عدنا مهجة فى بدن   ثم نلقى جثة فى كفنين
ثم نحيـا فى على بعـــدنا   وبه نبعث أولى البعثتـــين

ولقد أكثر شوقى من أبيات الحكمة على عادة شعراء العربية وبخاصة المتنبى ، وهذه الحكمة وليدة الثقافة والتجربة ، فلم يكن لشوقى مذهب فلسفى يصدر عنه وإنما كان مثقفا ثقافة ممتازة مطلعا على الفلسفة كثير التأمل فى أسرار الكون والحياة وما وراء الموت ووجد شوقى الحكمة أحدى الدعائم التى تبنى عليها الأمم وله أبيات شهيرة فى هذ المعنى منها قوله :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت   فأن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله :

وليس بعامـر بنيـان قوم   إذا أخلاقهم كانت خـرابا

وهذه الحكم مبثوثة فى شعره برسلها إرسالا فى يسر وسهولة وبعضها قد ألم به القدماء وصاغها شوقى صياغة جديدة وبعضها من وحى تجاربه .

ويرى بعض النقاد أن غزل شوقى متكلف لا يمثل عاطفة صادقة وهذا النقد يصدق على قصائد المرحلة التى قيده فيها القصر ، حيث أن التقاليد

كانت تحول بينه وبين لواعج عشقه ، والافصاح عن حبه وقد افتتح بعض قصائده على طريقة القدماء ، ولكن ساسه القصر طلبوا حذف النسيب والابقاء على المديح ومن ثم فترت همة الشاعر . ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر عن مواجد العشق عند أبطال مسرحياته .

المسرحيات :

أهم أعمال شوقى الجديدة فن المسرحية ، فلم يسبقه فى ذلك إلا محاولات لم تكتب لها الحياة . ومسرحياته من حيث الصياغة والنص الشعرى فى القمة لكنها من حيث الفنية المسرحية عليها مآخذ كثيرة منها أن شوقى كان يكتب مناظر الفصل فى شكل قطع غنائية بدون ملاحظة للجمهور .

وفى ذلك دليل قاطع على أن شوقيا مشتغل ، وخاصة فى مآسيه من مثل مجنون ليلى ، بالغناء عن التمثيل ، أو قل أنه تأثر الغناء إلى حد بعيد . ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أنه درس المأساة القريبة ، وأنه حاول جاهدا أن يثبت قدرته على محاكاتها وتقليدها (١) .

ينقص مسرحيات شوقى العنصر الدرامى الذى قوامـــه المفاجئات المسرحية المختلفة وطرق قيادة الأحداث إلى نتائجها النفسية والاخلاقية .

عدم انتخاب الشاعر لوزن معين فى مسرحياته حملة شديدة من النقاد على نحو مايرى القارى فى نقد العقاد لقمبيز حتى ليقول طه حسين هذه العبارة :

أما عن التمثيل فقد غنى شوقى فأطرب وأثر ولكنه لم يمثل ، لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالا ولا يهجم عليه وإنما هو فن يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة فكان تمثيله صورا تنقصها الروح ، وأن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء . (٢)

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص١٨ : شوقى ضيف .

(٢) حافظ — شوقى ص ٢٢١ .

كان اتخاذه التاريخ مادة مآسيه من الأسباب التي منعت مسرحه من أن يأتي إقبالا شعبياً كبير وذلك لأنه وإن يكن هذا التاريخ هو تاريخنا القومي إلا أن الجمهور كان يفضل بلا ريب أن يرى في ذلك المسرح مآسي حياته بدلا من مآسي التاريخ الذي بعد بها العهد والتي قد تحتاج إلى متابعتها والانفعال بها قدراً من الثقافة التاريخية .

والواقع أن النقاد قد اتخذوا من موقف شوقي إزاء التجارب التاريخية التي اختارها هدفا لنقدهم اللاذع .

فرأى بعضهم أن شوقي قد أساء الاختيار في عدة مسرحيات بل ولاحظ تناقضاً بين ما اختار والهدف الذي رمى إليـــه وأفصح عنه في النظرات التحليلية التي ذيل بها مسرحياته ، حيث تطالع في تلك النظرات أن هدفه الأساسي كان تمجيد العرب والمصريين القدماء ، بينما يلاحظ هـذا النفر وبخاصة النقاد أنه قد اختار لبعض تلك المسرحيات موضوعات وفترات من تاريخ مصر والعرب كانت من أحلك فترات التاريخ وأكثرها انحطاطاً بل وانحلالا ، مثل فترة ضعف المصريين وانحلالهم وسيطرة جنود المرتزقة على قوات الوطن الدفاعية ، كما هو الحال في مسرحية منبيز وغزو الفرس لمصر والقضاء على استقلالها الذي لم تسترده منذ ذلك الحين إلا في أيامنا الأخيرة .

ومثل مسرحية على بك الكبير التي تمثل فترة انحلال أخلاقي ووطني شديد في عصر المماليك وغدر بعضهم ببعض حتى أصبحت البلاد نهبا لأطماعهم ومرتعاً لجيشهم وتكالبهم على المغانم والشهوات .

ثم مصرع كليوباترا التي تفصل هي الأخرى أحداث انهيار مصر ووقوع مصر فريسة في يد الرومان في أعقاب انحلال أسرة البطالسة وعبث امرأة هلوك كليوباترا التي لم تكن فوق ذلك مصرية في شيء ولم يكن للشعب المصري في ذلك الحين أي وجود محسوس .

ويرد مندور على ذلك قائلا : أن عصور المجد والازدهار قد لا تتيح للكاتب المسرحى عنصر الصراع الذى تقوم عليه المآسى فى غالب الأمر، كما أن فترات المحن والكفاح الوطنى هى التى تظهر فى الغالب معدن الشعوب وصفاتها الأصلية ، وبذلك لايكون شوقى قد أخطأ من الناحية الفنية ولا من الناحية الوطنية فى اختيار موضوعات مآسيه التاريخية من فترات المحن التى مرت بالمصريين أو بالعرب(١) .

وحسب شوقى أنه أول رائد لهذا الفن فى العصر الحديث كما رأى ذلك زكى المحاسنى فى أخريات حياة شوقى ، وبعد موته عرف النقاد فى آثاره المسرحية روعتها ، ووعدها عملا أدبيا جديداً ، وأن الأدب الحديث، وإن يكن قد عرف الآثار المسرحيه عند بعض المؤلفين العرب قبل شوقى ، كالشاعر نجيب حداد ، لكن شوقياً تفرغ لهذا الفن فى الثلث الأخير من عمره فلم يغادر الحياة حتى أعطى الوجود المسرحى فى ديار العرب سبع تمثيليات فائقة .

وقد كان متأثراً فى فنه بآثار شكسبير خاصة حتى قلده فى رواية «مصرع كليوباترا »(٢).

ويذهب إلى ذلك فى مقارنة دقيقة عن تأثر شوقى بشكسبير فى رواية كليوباترا صلاح عبد الصبور (٣).

---

(١) المسرح لمندور ص٧٦

(٢) نظرات فى أدبنا المعاصر ص١٣

(٣) الهلال: عدد خاص عن شوقى ص٣٥

معانيـــه :

ينبغى أن نذكر أن الشعر كان فى عصر المماليك وفى أول النهضة ضعيفاً تافه المعانى ، فلما جاء رد البارودى قلد معانى السابقين من الشعراء المبرزين ، وبخاصة فى العصر العباسى .

وحين ظهر شوقى فى الميدان كان كثير من معانيه أضوأ وأعمق مما جاء به البارودى ، ومر ذلك أن شوقيا اطلع على الثقافة الغربية وبخاصة الفرنسية وقرأ كثيراً من كتب التاريخ وغيرها فامتد أفقه الثقافى ، وظهر فى معانيه عمق وحسن تفكير . لذلك نستطيع أن نقول أن معانيه بعضها مقبوس من القديم ولكنه طوره وأحسن عرضه ، وبعضها جديد لم يعرفه الأدب العربى من قبل وقد ظهر ابتكاره فى الأغراض الجديدة كالتاريخ ، والسياسة ، والاجتماع والمسرح وترى أثر ذلك واضحاً فى النماذج التى عرضناها عليك.

صـــوره وأخيلته

١ — يستعين الشاعر بخياله ليجعل معانيه أشد تأثيراً فى النفس ، وأعمق وصولا إلى العاطفة ، وبعض أخيلته كذلك قديم كقوله يتغزل :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وقوله ينصح :

وإذ النساء نشأن فى أميـــة
رضع الرجال جهالة وخمولا

وبعض أخيلته جديد مبتكر يبدوا فيه حسن التخيل وجمال التصوير كقوله عن الهلال الأحمر :

كأنه وردة حمراء قانيـــة
في الخلد قد فتحت في كف رضوان

وقوله في الصلة بين الوطن وأبنائه :

وطن يرف هوى إلى شبابه
كالروض رقة على ريحانه

ألفـــاظه وأساليبه

تدلك قراءتك لشعر شوقى على الخصائص التالية فى ألفاظه وأساليبه :

١ — إلمام شوقى الدقيق باللغة ، واطلاعه الواسع على أساليبها كما وردت فى أدب السابقين وفى قواميس اللغة .

٢ — حرصه على استعمال اللفظ اللغوى الصحيح وترفعه عن العامى .

٣ — قدرة ممتازة على أن يضع كل لفظ فى موضعه الملائم له ، بحيث تحس أنه ليست هناك كلمة نابعة ولا تعبير قلق ، وبذلك تبدو فى شعره موسيقى حلوة رنانة .

٤ — قدرته على أن يوزع طاقته الذهنية على اللفظ والمعنى مما يعنى بموسيقى اللفظ وإن جاءت معانيه عادية مألوفه ، وبعضهم يهتم بالمعنى الجيد وإن ضعف أسلوبة كما فى كثير مما يسمى بشعر المجددين ، أما شوقى فكان يهتم بهما معاً .

الوجود العربى فى شعر شوقى

فإذا أردنا أن نتعرف على موقف شوقى السياسى ، من خلال شعره فى الفترة الثانية وجدنا ما يلى :

فيما يتعلق بالخلافة الغاربة، راح شوقى يبكيها و يوجه التقريع إلى مصطفى كمال مسدل الستار عليها .

ومن ذلك قول الشاعر من حائيته المشهورة :

ضجت عليك مـآذن ومنابر
وبكت عليك ممـالك ونواح

ولـكن شوقياً قد أدرك أن الخلافة إذا زالت رسمياً ، فقد بقيت فكرة الارتباط بين الشعوب الإسلامية والعربية ، لا يمكن أن تزول .

ومن هنا راح الشاعر يهتم بشعره النضالى الرائع فى كل قضايا الأمم الإسلامية والعربية معتقدا أن أبناء هذه الأمم هم قومه الحقيقيون وآله الأقربون .

فحين تهب سوريا فى ثورتها ضد الاحتلال الفرنسى سنة ١٩٢٥ يذيع شوقى ثلاث قصائد حيث يقول فى الأولى مؤكداً أخوة الإسلام والعروبة ووحدة المأساة بين مصر وسوريا :

قم ناج جلق وأنشد رسم من بانوا
مشت على الأرض أحداث وأزمان

فغير المسجد المحزون واختلفت
على المنـابر أحرار وعبدان

ثم يذيع شوقى قصيدته الثانيه سنة ١٩٢٦ بمناسبة نكبة دمشق محاولا

استنهاض همم مواطنيه فى نضالهم ضد الانجليز من خلال حديثه عن نضال إخواننا السوريين :

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافى
جلال الرزء عن وصف يدق

ومنها :

نصحت ونحن مختلفون داراً
بيان غير مختلف ونطق
وللأوطان فى دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

ثم يذيع قصيدته التالية فى العام نفسه رابطها فيها معاناة قومه من أجل الحرية فى مصر ومعاناة إخوته من أجله فى سوريا ، واضحا أن الطريق الوحيد للنصر هو طريق الدم .

وفى تلك القصيدة ، يقول :

سلوا الحرية الحمراء عنا وعنكم . هل أذاقتنا الوصالا

وقريب من هذا يضع شوقى فى مؤازرة لبنان فى نكبة بيروت ومنها :

بيروت : يا راح النزيل وأنسه
يمضى الزمان على لا أسلوك

وفى مناصرة ليبيا يقول فى رثائه لعمر المختار متجها نحو الشعب الليبى:

يأيها الشعب القريب أسامع　　فأصوغ فى عمر الشهيد رثاء
أم ألجمت فاك الخطوب وحرمت　　أذنيك حين تخاطب الاصغاء
ذهب الزعيم وانت باق خالد　　فانقد رجالك واختر الزعماء
وارح شيوخك من تكاليف الوغى
وأحمل على فتيانك الأعباء

وبالبداهة لم يعد شوقى ينظم فى مشاهد الطبيعة فى الاستعانة والبوسفور وما إليها من الأراضى التركية ، بل أخذ يكتب التاريخيات والوصفيات عن مصر والبلاد العربية الأخرى متى زخرت الشوقيات بالقصائد المصرية والعربية، واقامت التوازن ، بل رجحته مع التركيات والخلافيات وبخاصة بعد أن وفق العالمان الإنجليزيان الآثريان اللورد « كارتر » والمستر « كارنرفور » إلى إكتشاف قبر توت عنخ آمون الرائع فى وادى الملوك بالأقصر .

فنظم أحمد شوقى قصيدته الرائعة « توت عنخ آمون » التى تغنى فيها بامجاد مصر القديمة وما خلفت من آثار رائعة أجل الغناء مطلعها .

قفى يا أخت يوشع خبرينا　　أحاديث القرون الغابرينا

كما نظم قصيدة أخرى بعنوان : توت عنخ آمون وحضارة عصره .

درجت على الكنز القرون　　وأتت على الدم السنون
خير السيوف مضى الزمان　　عليه فى خير الجفون

وأخذ يدرك شوقى بوعى سليم ما يشد هذه البلاد جميعا من روابط الدين واللغة والتاريخ وشتى مقومات الأمة الواحدة .

وبناء على هذا الوعى السليم لا يكاد يترك شوقى مناسبة عربية أو إسلامية دون أن يسهم فيها بشعره الإسلامى العربى ، مبشرا بأمة إسلامية قوية واحدة ، وقومية عربية متينة منتصرة .

وهذا أول ما يلاحظ على شوقى وموقفه السياسى فى هذه الفترة الثانية حيث يترك تمجيد الخلافة وتركيا ، أو حيث يقلل من ذلك تقليلا واضحا ، ليحل محل ذلك الاكثار من تمجيد الدول الإسلامية مؤازرة نضالها ، وليشيد بالعروبة والعرب والكفاح الذى يخوضه الشعب العربى من أجل حريته وكرامته مع التأكيد على أخوة تلك الشعوب واتحاد بينها الذين يجمعهم اللسان ، ويضمهم الشرق ، ويوحد بينهم الماضى والحاضر والمصير .

والملاحظة الثانية أنه أدار للقصر ظهره واتجه نحو الشعب وكان واضح الإيجابية والنضالية مع الإنجليز بعيدا عما عرف منه فى الفترة السابقة من التشكل بموقف النصر .

وموقفه من الأحزاب فى هذه الفترة موقف المحايد الذى يغنى آمال الأمة ويشدو بالقيم الكبرى التى يجمع عليها الشعب وهو بعد يقف من الزعماء موقف الداعى إلى وحدة الصف .

وهكذا يمكن أن يقال : أن الطابع الغالب على موقف شوقى السياسى فى هذه الفترة الثانية هو الطابع الحر الجرىء الإيجابى المناضل الذى أدرك به الشاعر ما فاته فى الفترة السابقة .

الروح الأندلسية فى شعر شوقى

إذ نظرنا إلى شعر شوقى فسنجد أن أول طيف للأندلس يطل علينا من وراء قافية بيت له ، من قصيدة ألقاها عام ١٨٩٤ فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف ،عرض فيها لرسالة الإسلام التى نبتت فى البيداء وأطلعت من الصحارى ، من قلب الخيام ، أسودا فتحوا الدنيا وقادوها نحو النور ، ونشروا فيها الحضارة وحكموا بعد لهم الأرض وعلى ذلك :

تشهد الصين والبحار وبغدا　　د ومصر والمغرب « والحمراء »

فهذه الحمراء رمز للحكم العربى والحضارة الإسلامية فى الأندلس وهى صورة غامضة جدا تمثل فى ذلك رصيد شوقى من « الفكرة الأندلسية » فى شعره (١) .

وتعود هذه الصورة الغامضة أيضا ، فتراها فى بيت من قصيدة شوقى التى رفعها إلى السلطان عبد الحميد ، عندما نزل فى ضيافته فى الاستانة .

وبيت الزمان (أندلسيا)　　ثم يضحى وناسه أعجام

وكأن ناشر ديوان شوقى أحسن بغموض الصورة أيضا فحاول عبثا إيضاحها حين فسر الزمان الأندلسى فى الهامش بأنه زمان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

وتظل الصورة قائمة لا يزايلها غموضها حين تعود إليها مرة ثالثة فى القصيدة التى يمجد فيها السلطان محمد رشاد الخامس ، ويخاطب فى آخرها الاستانه وبتاجيها ترى محبا هائما بها ، ينتمى إليها بصلة الدم والقربى ، من طريق أمه وأبيه فهى إذاً مهد أصوله ، وقد حركت وحى شاعريته وإطلاقته قبسا يضىء الشرق قبسا فريدا .

لم تكثر الحمراء من نظرائه　　نسلا ولا بغداد من أفعاله

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمون ص ١٢٠ .

والحمراء هنا — يحشرها فى زمرة واحدة مع بغداد والإستانة يجب أن تعكس مفهوم العاصمة الإسلامية الكبرى التى يؤمها الشعراء من كل جانب ، ويزد حم على أبوابها أصحاب المواهب فتكون لكل منهم مصدر وحيه وإلهامه .

وتعود صورة الأندلس مرة رابعة ، عندما يزور الخديوى عباس مدينة طنطا ، وللخديوى يد على هذه البلدة حين بعث الحياة والعمران فى رسمها البالى — كما تقول شوقى — وفجر فيها عيون العلم بإنشائه المعاهد والمدارس .

انظر إلى كل عال من معاهدها　　　تنظر طليلة فى عصرها الخالى

فطليلة هذه تمثل دوراً لم يكن لهم فى تاريخ الأندلس ، وصاحب هذا الدور العظيم فى حياة الأندلس هى قرطبة وجامعها الكبير ، فإلى قرطبة لا إلى طليلة كان الطلاب يفدون من الشرق والغرب لينهلو فيها العلم ، ويتزودوا من المعرفة .

ولا نقول أن الوزن الشعرى هو الذى جاء « طليلة » هنا ولم يكن قادراً على الإتيان بقرطبة، فمثل شوقى الشاعر الكبير، لا يستعبده الوزن ولا تحكمه الصنعة .

إلى هنا تظل صورة الأندلس غامضة غائمة فى شعر شوقى، ولن تفتح لأعيننا بعض الخطوط فيها إلا فى عام ١٩١٢ عندما تنهمر دموع الشاعر أثر سقوط أدرنة فى يد البلقان و وبسقوطها هوى الإسلام عن مقاطعة مقدونيا فى عين الشاعر صورة ثابتة لضياع الأندلس(١) فقد خرج المسلمون من الأندلس ، وها هم أولاء اليوم يخرجون من مقدونيا ، فمقدونيا إذا

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمين ص ١٢٠

أخت الأندلس جديدة من حق الشاعر أن يبكيها ، ويصور الجرح الذى أصاب المسلمين بسقوطها :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإسلام

وبعد أن يصف المسلمين الهاربين المهاجرين بعد سقوط مقدونيا ، يخاطب الأمة العثمانية فينعى عليها تفرقها وتخاذلها ، ويدعوها إلى الاتحاد والوئام وترك التفاخر فيقول :

وقف الزمان بكم كموقف طارق   اليأس خلف والرجاء أمام

فموقف بنى عثمان اليوم كموقف طارق فاتح الأندلس حين أحرق سفن الجيش ودعا الجند إلى الصدق والعزيمة والرجاء والصبر .

هذه الصور الحزينة الجريحة التى يرسمها شوقى لنكبة العثمانيين فى مقدونيا أضفت بألوانها على الصورة الأخرى التى أراد أن يصور فيها نكبة العرب فى الأندلس ، ليعقد بين الصورتين صلة ، ويقارن بينهما ، ولكننا إذا قنعنا بما تقدمه هذه المقارنه من الخطوط المتشابهة ، والألوان المتماثلة بين الصورتين ، قلنا إن رصيد شوقى من الفكرة الأندلسية لا يزال فقيراً .

ونحن — بعد هذا — نستطيع أن نؤكد أن رصيد شوقى من هذه الفكرة حتى عام ١٩١٢ لا يزيد عماله فى الأندلس الجديدة .

وسنجد أن الروح الأندلسية ستظهر واضحه فى شعر الشاعر المنفى ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها فى عام ١٩١٨ أصبح فى حرية له أن يسبح فى أرض أسبانيا متنقلا بين ربوعها وقد قام فعلا برحلة يروى فيها ظمأه لزيارة هذه البلاد ، وقد زار مدن طليلة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة .

وكما يقول كان البحترى رفيقه فى هذه الرحلة وكان قد أعجب بسينيته

فى وصف إيوان كسرى حتى أنه كان يتمثل قأبياتها كلها وقعت عينه على أثر من آثار العرب بهذه المدن ورأى أن البحترى اتعظ بالآثار وخلدها فى ديوان شعره فرغب فى أن يسير على خطاه فى كسب العظة والعبرة من آثار هذه المدن وتخليدها ناسجاً على منوال البحترى فألف قصيدته على وزن وروى سينية البحترى وصل شوقى المسجد فإذا هو تائه فى غابة من أشجار المرمر وتلك هى سوارى المسجد، مثل ألفات الوزير ابن مقلة المعروف بجودة خطه .

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء ألفات الوزير فى عرض طرس

ويطوف شوقى بأرجاء المسجد، حتى يصل إلى المحراب، ويرى ماعليه من بديع الخطوط فيذكر بالثناء والتقــدير بانى المسجد عبد الرحمن الداخل :

صنعة الداخل المبارك فى الغر ب وآل له مابين شمس

ويستثير عبد الرحمن الداخل إعجاب الشاعر، فصقر قريش بطل عربى غامر بنفسه ليقيم لأسرته ملكا جديداً فى الغرب، يخفق قلب الشاعر وهو يذكر أنه الآن فى الرحاب التى أسس فيها الداخل دولة الأمويين، والتى تضم أرضها عظامه .

فينطلق لسانه بالشعر يتغنى بأمجاد ذلك الصقر، ويختار شوقى هذه المرة لغنائه لحناً أندلسياً معروفا ، فيعزف لنا على قيثارته موضحة يرسم فى مقاطعها صورة البطل الأموى ، منذ قدومه من المشرق إلى تأسيس الدولة الأموية فى المغرب .

كنت صقرا فى صبا علما ماعلى الصقر إذا لم يرمى
أن تسل أين قبور العظما فعلى الأفواه أو فى الأنفس

فى هذا القصر العربى قضى شوقى فترات طويلة ، يطوف فى أبهائه وينتقل فى حجراته ، ويرى القسم الذى أضافه الاسبان إلى القصر فشوهوا بذلك جماله الخالص فبدأ خليطا من الطراز بن الشرقى والغربى كان شوقى يبحث عن الملك الشاعر المعتمد بن عباد وزوجته الشاعرة الجميلة وابنتها بثينة وجدتها العبادية . ولكنه لن يجد احدا منهم فى القصر ، فقد داهم يوسف بن تاشفين الملك العبادى ونفى الأسرة المالكة كلها عن اشبيليه إلى أغمات غير أن بحث شوقى عن أبطال روايته وأميرة الأندلس لن يضيع سدى ، فأطياف هؤلاء تعبق بها أجواء القصر الخالى ، وتموج بها ظلال الحدائق العربية القلب ، وراو القصر الحزين ، وخيال شوقى قادر على أن يلتقى بهذه الأطياف ، لتتبين ملامحها من قرب ، ويتمثل من خلالها وصفه الايام الاخيرة لحكم بن عباد فى أشبيلية ، قبل غزو المرابطين لها .

يبدو أن غرناطة كانت آخر مدينة فى الاندلس تركت فى انتاج شوقى الأندلس صورة لآثارها . كانت غرناطـــة آخر معقل للعرب فى أسبانيا وذلك بتسليم ابى عبد الله الصغير اخر ملوك بنى ــ الأحمر ، إلى فرديناند وايزابيلا مفاتيحها خرج العرب منها وخلفوا فى هـذه المدينة أضخم أثر عربى تزهو اليوم به الأندلس ، تهفوا إليه قلوب السياح من كل فى الأرض ليروا إحدى معجزات الإنسانية ، ومفخرة الحضارة العربية والفن الإسلامى فى أسبانيا إنه قصر الحمراء حصن غرناطة ودار بنى الأحمر ، ولا يزال إلى اليوم ، كما تركه بناته الامجاد ، أعجوبة تسحر الألباب ، ويفتن به الزائرون يقع قصر الحمراء فوق اكام عاليه تطل على غرناطة تحيط به جنات وارفة الظلال من حدائق القصر ، ويشرف على هذه الآكام جبل سييرا نفادا والثلوج تتألق عليه تألق الفضـة ولا تفارق قممه فى الصيف ولا فى الشتاء فهو شيب مرمرى ، كما بد العينى شوقى :

جلل الثلج دونها رأس (شيرى)

فبـــدا منـه فى عصائب برس

سرمدى شببه ، ولم أرشيبا　　قبـله يرجى، البقاء وينس

وقبل أن يصل شوقى إلى الحمراء لابد له من صعود ذلك الطريق المتحرر المظلل بأغصان الشجر الكثيف ، وإذا كانت السنون الخمسون يؤذيها مثل هـذه الصعود مشيا ، فعلى الشاعر أن يتمهل فى السير ، وأن يقف قليلا عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسة تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس ، انها فيما يقال — رمز للعقيدة الاسلامية بأركانها الخمسة .

قصر الحمراء :

ولا نحسب شوقى الآن بحاجـة إلى الدليل ، فالشاعر العربى الآن يطوف فى محراب قصر بناه أجداده ، ووضعوا فيه شيئا من روحهم ، وملأوا جدرانه بالآيات والأشعار العربية ، ومن البداهة ألا يحتاج الانسان فى بيته إلى دليل .

طاف شوقى فى غرف الحمراء وحجراته الرحبة الواسعة وكلها آية فى الروعة والجمال ، زاهية بالنقوش ، الدقيقة ووقف طويلا فى قاعة الشعراء وهى أجل غرف الحمراء وفيها ملوك بنى الاحمر يقابلون رسل ملوك الافرنج وشعراءهم وتحوى جدرانها أبدع النقوش والخطوط ، وهى تطل على حى البيازين من غرناطة من جهاتها الثلاث ، والجهة الواقعة تفضى إلى قاعة البركة ومنها إلى مساحة الريحان ، تحيط به سبعة من الاسود المرمرية وتولين ظهورها ، والماء يتدفق من أفواهاعذبا صافيا فتلقط شاعرية شوقى هذه الصورة .

مرمر قامت الاسد عليـه　　كلة الظفر لينـات المجس

تنثر الماء فى الحياض جمانـا　　تتنزى على ترائب ملس

وعندما يصل شوقى إلى فندق (واشنطون ايرفنج) حيث يقيم مع أسرته فى قلب الغابة المحيطة بالحمراء ، يقف طويلا أمام الصورة الزيتية المعلقة فى بهو الفندق ، والتى تمثل الملك العربى أبا عبد الله آخـــر ملوك غرناطة ، وهو يسلم فى خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك وتثور فى نفس شوقى العربى المسلم حسرات وآلام وهو يرى النهاية المحزنة لقصة المجد العربى فى الاندلس ، فيحمل حملة عنيفة على ذلة ابن عبد الله الصغير واستسلامه .

ومفاتيحها تقاليـــد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
رب بان لهـادم وجمـوع لمشت ومحسن لمخـس

ومن الروح الاندلسية عند شوقى قصيدته القومية التى عارض فيها ابن زيدون .

بين شوقى وابن زيدون

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي(١) ولد بقرطبة ونشأ بها ، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة ، وكانت قرطبة فى ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب ، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسير والأمثال والحكم وسائل اللغة ومباحثها ، وأخذ يعالج فنون الآدب حتى برع فيها ، فتم فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته .

واتصل بابن جهور أحد ملوك الطوائف ، فاتخذه كاتبا ومشيرا ، ثم أخذ يترقى فى دولة ابن جهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه فى السفارات بينه وبين ملوك الاندلس فلقب بذى الوزارتين وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذكائه ودهائه ، إلى أن دبت عقارب السعاية بينهما فنقم عليه ابن جهور وسجنه ولجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية سنة ٤٤٨ هـ ، فاستخلصه لنفسه ، وعول فى أموره عليه ، ثم وزر لابنه المعتمد وقضى فى اشبيلة بقية عمره .

وقد ابتلى ابن زيدون وهو فى قرطبة بحب ولادة بنت المستكفى أحد خلفاء بنى أمية ، وكانت مشهورة بالجمال والأدب ، شاعرة سافرة ، تساجل الشعراء وتجادل العلماء ، وكانت دارها ناديا من أندية قرطبة ، يغشاها الامراء والوزراء والأدباء والقادة . ومن هؤلاء ابن زيدون وكانت فيه خفة روح دعابة وبراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحلته وبادلته هى هذا الحب ، فأذكى هذا الفوز نار الحسد فى قلوب منافسيه

راجع فى هذا :

(١) الموازنة بين الشعراء : دكتور زكى مبارك ١٢

ومزاحميه فسعوا فى أفساد ذات بينهما ، واشتهر فيهم الوزير ابن عبدوس فتزلف إلى ولادة فى ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون وظفر برضاها ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرحبت به ، فكتب ابن زيدون إلى ابن زيدون إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تقريعا وسخرية ، ضمنها كثيراً من الملح فى الأدب والتاريخ(١) .

وقصيدته الحاوية لمعـــانى حبه ، المسجلة لشتى آلامه ، الممثلة لآماله فى الحب وأحلامه التى هى فى شعر الأندلس كله نجم يتألق ، وعلم يخفق ، فهى قوله يخاطب ولادة ومطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينـــا
ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى أعظم قصائد ابن زيدون حظاً من الذيوع والشهرة وبعد الصيت ، ولو لم يكن له سواها لأغنته بهذا الدوى الذى أحدثته فى البيئات الأدبية ، وتلك المدرسة التى خلقها من الشعراء الكثيرين فى كل عصر ، الذين أعجبوا بها وعارضوها قال الصفدى : « ومن ذلك قصيدته النونية التى ســـارت فى البلاد وطارت فى العباد ، وقد اشتهرت حتى صارت محدودة ، فيقال أنه ما حفظها أحد إلا مات غريباً . . وعارضها الناس فى حياته وبعد مماته ولم يقاربوها(٢) .

ومن الذين عارضوها أحمد شوقى وهو شاعر بينه وبين ابن زيدون تشابه فى النفى والمجد والحب إلا أن الحب عند ابن زيدون حب لولادة والحب عند شوقى هو حب مصر وكلاهما فجعة الحب فيمن أحب ، وكلاهما

---

(١) ابن زيدون : د. حسن جاد حسن.

(٢) أنظر شرحه لرسالة ابن زيدون ٤٠

يصور فى قصيدته عن شعور صادق ، وألم دفين ، وكلاهما يصور فيها لوعة البين ، وذل الحرمان ، ووحشة الغربة ، والحنين لمن أحب وذكرى أيام الأندلس والصفاء .

وسأبدأ بعرض النونية :

بدأها الشاعر بذكر الفراق والبين بعد طيب الوصل والتلاق ثم يصف ما ألم به من هذا التجافى .

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا
حين فقام بنا للحين ناعينا

وأخذ يصف شوقه المشتعل ودموعه الحارة .

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

ثم يمضى الشاعر ليؤكد لها العهد ، ويقسم على الوفاء ، حيث يقول :

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إذ طالما غير النأى المحبينا

وتعاود الذكرى وتتملكه الصبوة ، فيفزع إلى البرق والنسيم يبثهما شكواه ولوعته ، ويسألها ما شاء من السؤال :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حياً كان يحيينا

وكأنى بالشاعر يحاول أن يعزى نفسه ، بأن يستعرض أوصافها ، كما يتعزى الوله بصورة محبوبته .

ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاء الورى طينا

وينتقل الشاعر بين هذه الذكريات، ويؤكد لها الشاعر أنه محافظ على العهد حافظ للود، وأن الراح لا يمكن أن تلهيه عن ذكراك ، ولم ترحه من هذه اللوعة ويتوسل إليها بالحفاظ على العهد :

أما هواك ، فلم تعدل بمنهلة — شربا وإن كان يروينا فيظميبنا
لم نجب أفق جمال أنت كوكبه — سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناه عن كثب — لكن عدتنا على كره عوادينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيمى ارتياح ولا الأوتار تلهينا

شوقى :

شاعرنا يحج إلى الأندلس وينزل ضيفا على ابن زيدون ويذكر ما نزل به من بلاء ومحنة ونفى وتشريد ، فيصرح فى هذا الأفق الذى طالما صدح فيه ابن زيدون ، ويذكر قصيدته النونية ، فينظم على نهجها معارضا إياها بنونيته يقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا — نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا
قصت جناحك جالت فى حواشينا

وينتقل شوقى من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال :

واها لنا نازحى أيك بأندلس ... وإن حللنا رفيقا من روابينا

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع والإجلال يثنينا

وشوقى حريص على المعانى الشعرية ،فهو ينتقل فى الأندلس من حرم إلى حرم وهو يصور حنينه إلى مصر :

لكن مصر وأن أعضت على معة
عين من الخلد بالكافور تسقينا

ثم يصور زمان الصفو وليالى الأنس ، وعهد المسرة ، ويستطرد من ذلك إلى الفخر بمصر والمصريين بعد أن يصف نيلها وأهرامها ورمالها وكنوزها :

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا

يمكننا بعد عرض القصيدتين استخراج الأبيات المتناظرة فى معانيها أو تصويرها .

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

ولكن شوقياً يصون هو أحبابه عن هذه المناجاة ويغار منها فيفوق صاحبه :

يا من نغار عليهم من ضمائرنا
من كان صرف الهوى والود يسقينا

وهذا شعر جميل ، ولكن شوقياً يأخذ المعنى ويقلبه على وجوه كثيرة، وينتزع منه صوراً شتى .

وقال ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا

عارضة شوقى :

ويا معطرة الوادى سرت سحراً
فطاب كل طروح من مرامينا

أن ابن زيدون لم يزد على ترديد ما قاله مئات الشعراء « يا نسيم الصبا ».

أما شوقى فأخذ يوش المعنى توشية بارعة ويفتن فيه افتتانا يدل على قوة الشاعرية وبراعة الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادى ، وأنها سارت فى السحر فطاب بمسارها كل مرمى سحيق ، وأنها زكية الذيل كأنها قميص يوسف وشكر لها النعمى(١) فقال :

فلو جزيناك بالأرواح غالية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

وابن زيدون تطوف بخلده ذكرى أيام الأنس فيقول :

حالت لفقدكموا أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية قطوفه فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

---

(١) الموازنة بين الشعراء ، زكى مبارك ٣٧٦ : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

عارضه شوقى فجمع بين الأسى والفخر فقال :

سقيا لعهد كأكناف الربارقة ... أنى ذهبنا وأعطاف الصبالينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية ... والسعد حاشية والدهر ما شينا
والشمس تختال فى العقبان تحسبها
بلقيس ترفل فى وشى اليمانينا

وحين نقف أمام هاتين القطعتين لنوازن بينهما ، لا نستطيع أن نحكم أيهما أجود، ذلك لأن ابن زيدون بلغ قمة الإبداع على قصر نفسه فى هذه القطعة وبخاصة فى قوله :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا

ويتملكنا الإعجاب من قول شوقى :

سقيا لعهد كأكناف الربا رقة ... أنى ذهبنا وأعطاف الصباليىنا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحينا

ويشترك شوقى وابن زيدون فى التفجع ، يقول ابن زيدون:

ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والدهر قد غض من أجفان واشينا

وعارضة شوقى :

ويابغى كأن الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
قطوى دجاة بجرح من فراقكمو
يكاد فى غلس الأسحار يطوينا

من الأشياء التى أمتاز بها شوقى :

حسن المطلع فهو أروع من مطلع ابن زيدون .

وكان شوقى أعلى نفسا من ابن زيدون .

وانفرد بتوليد المعانى والإفتنان فى التصوير ، مع الفخر بمصر وبهذا يكون شوقى قد استطاع أن يغزو ابن زيدون فى وطنه .

ومع ذلك لا ننسى أن ابن زيدون فتح الباب لشوقى وله فضيلة السبق .

المصادر

الشوقيات

المراجع :

١ — شوقي شاعر العصر الحديث ، د. شوقي ضيف .
٢ — في الأدب الحديث أول وثان ، الأستاذ : عمر الدسوقي .
٣ — حياة شوقي ، الأستاذ : أحمد محفوظ .
٤ — أحمد شوقي شاعر الوطنية ، الأستاذ : أحمد زكي عبد الحليم .
٥ — وطنية شوقي ، د. أحمد الحوفي .
٦ — شعراء الوطنية ، الأستاذ : عبد الرحمن الرافعي .
٧ — أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، الأستاذ: أحمد تيمور
٨ — أبي شوقي ، الأستاذ : حسين شوقي .
٩ — حافظ وشوقي ، د . طه حسين .
١٠ — شعراء مصر وبيئاتهم ، الأستاذ : عباس العقاد .
١١ — الدين والأخلاق في شعر شوقي ، الأستاذ: على النجدي ناصف
١٢ — أندلسيات ، د. صالح الأشتر .
١٣ — أسبانيا كما رآها السياح المسلمون .
١٤ — فصول في النقد ، الأستاذ : عباس العقاد .
١٥ — الديوان ، الأستاذ : عباس العقاد .
١٦ — نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، الأستاذ: عز الدين الأمين.
١٧ — الشعر المعاصر على ضوء النقد الأدبي الحديث
الأستاذ : مصطفى عبد اللطيف السحرتي .
١٨ — ابن زيدون ، د. حسن جاد حسن .

١٩ — الموازنة بين الشعراء ، د. زكى مبارك .

٢٠ — آراء واتجاهات فى النقد ، د. محمد نايل أحمد .

٢١ — فن الشعر ، د. محمد مندور .

٢٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ، د. زكى المحاسنى .

٢٣ — المسرح ، د. محمد مندور .

٢٤ — مسرحيات شوقى ، د . محمد مندور .

٢٥ — رساله فى الأدب الحديث خطبة ، د. عفيفى عبد الفتاح .
بمكتبة كلية اللغة العربية ١١٥

٢٦ — مجلة : المجلة عدد ديسمبر سنة ١٩٦٨

٢٧ — الهلال عدد خاص عن شوقى .

أسلوب العدد فى القرآن الكريم
بين النحو القديم والحديث
" استقصاء وتحليل "

بقلم

الدكتور علي أحمد محمد زايد

المدرس بقسم اللغويات بالكلية

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا وإمامنا محمد ابن عبد الله وعلى صحابته ومن والاه وبعد :

فإن أحكام العدد من الأمور التى يقع فيها الخطأ كثيرا ، لأنها قد تغيب عن أذهان كثير من الناس ، فأردت أن أقدم كل ما يتصل بهذا الموضوع من أحكام فى لغة العرب مستقصيا ذلك فى أساليب القرآن الكريم ، حتى يكتسب البحث ثقة وطلاوة ونفعا من ثقة وطلاوة ونفع القرآن الكريم ، ولن أطيل عليك أيها القارىء العزيز ، وإنما أدع بين يديك بحثى للحكم له أو عليه ، وعلى كل فهو جهد المقل الذى يعشق الفصحى ، ويساهم بكل ما يملك فى إظهار دورها للناس فى عصر أصبحت فيه غريبة بين أهلها ، قاصدا وجه الله فى وضع لبنات تساعد على فهم كتاب الله ، فاللهم شد الأزر ، وسدد الخطا ، إنك سميع مجيب ، وبالإجابة جدير ،

تمهيد

بين العدد والحساب

قال ابن سيده فى المخصص(1) : «قال صاحب العين : العدد : مقدار مايعد ، والجمع أعداد . والعد : إحصاء الشيء . وتقول : عددته عــدا ، وتعداداً ، وعددته ، والمضارع أعده ... »

[ثم قبل :] والحساب عدل الأشياء ، من حسبت الشيء أحسبه حسابا وحسباناً وحسابة وحسبه ، وحسبانك على الله — أى = حسابك عليه . قال تعالى : (ولتعلموا عدد السنين والحساب)(2) وقوله عز وجل (يرزق من يشاء بغير حساب)(3) اختلف فى تفسيره ، فقال بعضهم: بغير تقدير على أحد بالنقصات وقال بعضهم : بغير محاسبة ما يخاف أحـدا أن يحاسبه عليه ... »

وقال الرضى فى شرح الكافية(4) : العدد ماوضع لكمية الشيء ، ويقصد بذلك كميه المعدود .

وقال صاحب التوضيح(5) : العدد : ما ساوى نصف مجموع حاشيتية

---

(1) انظر المخصص 17/96 .

(2) الإسراء : 12

(3) آل عمران : 37

(4) 2/145

(5) 2/269

المتقابلتين ، والمقصود بالحاشيتين المتقابلتين ، ما قبل العدد مباشرة وما بعده أيضا من الأعداد .

فمثلا العدد خمسون حسابيا يكون هذا : ٤٩ + ٥١ = ١٠٠ ونصفها يكون العدد (٥٠) .... وهكذا .

إلا إنه يلاحظ أننا حينما نتحدث بالعدد وننطق به يكون الهدف من وراء ذلك أحد المعانى الآتية :

أولا : أننا أحيانا ننطق به ونريد منه مقدار المعدود ، وهذا ما يسمى بالعدد الأصلى ، أو العدد الصريح ، وهو الذى يبين كمية المعدود مكتوبة بالرقم الحسابى أو بالحروف العربية ، وعلى كل فعند النطق بهذه الأرقام لا بد من نطقها بالفصحى من اليمين إلى اليسار ، وهو الموافق لطبيعة لغة العرب وكتابتهم ، حيث تقرأ وتكتب من اليمين إلى اليسار كما يصح أيضا أن تنطق من اليسار إلى اليمين ، حيث أجيز ذلك يحسن أيضا ، إلا إنه يلاحظ أن التمييز فيما له تمييز يكون لآخر عدد منطوق فى الحالين .

والقواعد الضابطة لذلك النطق — من صحة التراكيب للأعداد وتعريفها أو تنكيرها ..... هى ما تريد إظهارها وتوضيحها فيما سيأتى من أحكام حتى يستبين أمرها — وذلك من الأهمية بمكان أدركها المتقدمون حتى قال القلقشندى فى صبح الأعشى : « ومما يجب أن ينتفع به الكتاب النسب لكثرة استعماله فى الألقاب ونحوها ، وكذلك العدد ، فإنه مما يقع فيه اللبس على المبتدىء .... »

ثانيا : أننا أحيانا أخرى ننطق بالعدد ونتحدث به قاصدين بيان مقدار المعدود مع بيان ترتيبه فى المعدودات — وهذا يقال له العدد الترتيبى نحو : ثان وثالث ورابع ، أو الثانى والثالث والرابع وهكذا

وسيأتى تفصيل أحكامه إن شاء الله فى المكان المخصص لها من هذا البحث .

ثالثا : أننا فى أحيان ثالثة ننطق بالعدد ونتحدث به لا نقصد منه كميه المعدود ، ولابيان ترتيبه ، وإنما قد نقصد التقريب بضرب الأمثلة ، أو المبالغه والكثرة لأننا لا نقصد مجرد الأعداد التى نطقنا بها ، ولكن نقصد بها ما انضم تحتها من أجناس وأصناف وأنواع وصفات وخصال ، ولكى أقرب ذلك وأوضحه ساضرب لذلك الأمثال الشارحة والكاشفة لما أريد أن أقوله .

فمثلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « : « سبعة يظلهم الله فى ظله ... الخ الحديث »

وقوله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات .... الخ » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ..... الخ الحديث » .

فالأعداد هنا لا يقصد بها كمية المعدود بآحاده وافراده المعدودة فى الواقع الخارجى حتى يكون من النوع الأول ، ولا يقصد بها بيان ترتيبها لأنه ليس على صيغتها ، إذن فهذا نوع جديد ، وطريقة ثالثة من طرق استخدام الأعداد — ليكون المراد منها التقريب بضرب الأمثال — أو يقصد بتلك الأعداد ما انضم تحتها من أنواع وأجناس وصفات — ومن هنا قيل إن الإخبار بعدد مقصود به ذلك لا ينافى ذكر غيره بعد ذلك إذا لم يكن هناك قرينة ملزمة بذلك — وهذا معنى قولهم أيضا : إن العدد لا مفهوم له عند شرح تلك الاحاديث وبناء عليه ، فلا تنافى إطلاقا أن نجد فى أحاديث أخرى أقل أو أكثر من هذا العدد — فمثلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث ... الخ الحديث .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصا .... الخ الحديث » .

لا تعارض بينهما ، لان الفرض هنا ليس المعدود بآحاده ولا ترتيبه ، ولكن المقصود أربع خصال أو صفات أو أنواع منها وأجناس ، وهذه الخصال والصفات وأنواعها وأجناسها قد تكثر وقد تقل وما ذكر منها فهو على سبيل المثال والتقريب والتمثيل لا على سبيل التحديد والحصر .

وقيل منه قوله عز وجل : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين(١)) لانه ليس المقصود هنا — والله أعلم بمقصوده — بيان كمية الآحاد والافراد ، ولكنه تقريب بضرب مثال أو بيان لانواع وأصناف وأجناس تنضم تحت هذا العدد ، ولذا لم يذكر معدوده لتذهب النفس فيه كل مذهب ، وتفهمه بالتقريب والاحتمال ، ويعجبني ما قاله الإمام أبو السعود(٢) حيث قال بعد تلك الآية الشريفة : « هذا وعد كريم من الله تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم ثم خفف ذلك إلى الضعف في قوله تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين)(٣)

ويمكن أن نقول ذلك في قوله تعالى : (عليها تسعة عشر)(٤) أي تسعة عشر صنفا من الملائكة وبه قال المفسرون والآية تحتمل ذلك

---

(١) الانفال ٦٥

(٢) ٢٤٧/٢

(٣) الانفال ٦٦

(٤) المدثر ٣٠

حسب ما قدمنا بدليل قوله تعالى بعد ذلك : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا)(١) .

ومادامت الآية تحتمله فلا مانع من إدارة الحقيقة لان الله قادر على كل شيء ، ويحتمل أن تكون على سبيل التقريب والتمثيل والتحدى وبذلك يعلم عدم صحة ماقيل حول هذا العدد (تسعة عشر) من خرافات وترهات قالها البهائيون ومن حذا حذوهم لأن اللغة لا تعطى مفهومهم ولم يعهد عن العرب ذلك ، ولذا كان ماقالوه عن هذا ، ضرب من التخريف والتخمين لامن باب العلم(٢) .

رابعاً : أننا أحياناً ننطق بالأعداد منسوبة أو معدولة عن جهتها أومضافة ، وأحياناً قد يشتق منها أفعال ، أو يؤتى منها بالكسور والأبعاض ، كما أنه يطالعنا من كلام العرب ألفاظ دالة على العدد من غير أن ننطق بأى عدد مثل : إستار(٣) ونواة(٤) ، والأوقية ، والفرق ، والبضع ، والشيع ، والشفع والوتر .

كما أن هناك مبهمات دالة على العدد المبهم أى كمية معدود غير محدودة مثل : كم الخبرية وكم الاستفهامية ونحوهما مثــل : كيت وذيت ، وكأين ، وكذا .

---

(١) المدثر ٣١

(٢) انظر تفسير الآية فى ظلال القرآن ص ٣٧٥٧ ومابعدها ، وانظر شرح التوضيح ٢٦٩/٢ ، والنحو الوافى لعباس حسن ٥١٧/٤

(٣) كلمة فارسية بمعنى أربعة وهى معرب جهــار أنظر المعرب للجوالقى ص ٩٠

(٤) النواة : مازنته خمسة دراهم .

وبإذن الله وتوفيقه سأحاول قدر استطاعتى أن أميط اللثام عن كل ذلك جاعلا كل نوع فى باب مستقل شارحاً أحواله فى فصول تحت ذلك الباب مستقصياً كل نوع فى أساليب القرآن الكريم إن كانت فيه ، منبها على الموجود منها فيه ، وغير الموجود ، فأرجو من الله التوفيق والسداد إنه على مايشاء قدير ، وبالإجابة جدير ؟

العدد الأصلى

تمهيد فى بيان أنواع العدد الأصلى .

العدد الأصلى ويسمى أيضاً بالعدد الصريح — وهو العدد الذى ننطقه ونريد منه مقدار المعدود الحقيقى فى الواقع الخارجى .

وهذا القسم من الأعداد له خمسة أنواع :

أولها : — العدد المفرد — أى اللفظ الدال على العدد ومكون من لفظ واحد فقط وإن كان مدلوله قد يكون أكثر من واحد فنعنى بالإفراد أنه مكون من كلمة واحدة وهذا من الواحد إلى العشرة من الأعداد ، ويتبعها مائة، وألف، ومليون، ومليار .

ثانيها : العدد المركب من كلمتين مزجتا ببعضهما وارتبطتا ببعضهما أيضاً ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يفهم العدد والمعدود إلا من الكلمتين معاً ، وهو العدد : من أحد عشر إلى تسعة عشر .

ثالثها : العدد المركب من كلمتين ارتبطتا ببعضهما عن طريق العطف بحيث لا يفهم العدد والمعدود إلا من الكلمتين معاً أيضاً وهى الأعداد الواقعة أيضاً ما بين العقود وما بعد المائة والألف وغيرهما حيث تكون من الآحاد معطوفاً عليها العقد أو غيره مثل : واحد وعشرون ، وأربع وثلاثون وسبع وأربعون ، وثمان وخمسون ، وتسع وستون ، وتسع وتسعون ، ومائة وثلاثة وهكذا .

رابعها : العقود ، ويقصد بها : الأعداد(١) : عشرون ، وثلاثون

---

(١) التى تعرب إعراب جمع المذكر السالم من العقود وإلا فالعشرة عقد إلا أنها لا تعرب هذا الإعراب .

وأربعون ، وخمسون ، وستون ، وسبعون ، وثمانون ، وتسعون — وكل هذه الأعداد تسمى أعداداً صحيحة .

أما كسور الأعداد وأبعاضها فسيكون لها موضع آخر نبين فيه حكمها.

خامسها : الأعداد المعدولة عن العدد الأصلي ليقصد بها الكيفية والصفة المأخوذة من العدد مثل : جاء القوم مثنى وثلاث ورباع أى جاءوا على هيئات ثلاثة وثنائية وثلاثية ورباعية فالكيفية والصفة أخذت من العدد نفسه بغض النظر عن عدد القوم لأن الفرض لم يتعلق به . ونحن الآن مع الأعداد الصريحة والصحيحة بالأنواع التى تقدمت وسأجعل كل نوع فى فصل مستقل إن شاء الله تعالى .

أولا : (العدد : واحد معناه واستعمالاته)

الواحد : أول العدد ، وكذلك الوحد ، والأحد .

والواحد : اسم فاعل بمعنى المنفرد أى العدد المنفرد واسم المفعول : موحود، وموحد، والصفة المشبهة وَحَدووَحِد، ووحيد، وقد ورد لفظ (وحيد) فى القرآن فى آية واحدة هى قوله عز وجل : (ذرنى ومن خلقت وحيدا)(١) .

والفعل منه : وحد يحد وحداً بمعنى انفرد . ووجادة ، وحودة ، ووحودا ووحدة ، ووحدة(٢) .

وإذا تتبعنا لفظة (واحد) فى اللغة تذكيراً وتأنيثاً فستجد للمذكر واحد ، وأحد ووحد . وللمؤنث واحدة وإحدى .

وبقى أن تعلم أن واحداً مؤنثه واحدة، وأحد مؤنثه إحدى، وأما(وحد) فهو أصل (أحد) قلبت الواو ألفاً ، وإن كان إبدال المفتوحه همزة ليس بمطرد ، ومنه : امرأه أناة فى وناة(٣) .

ولعلك تتساءل ما السر فى كون المؤنت لواحد واحدة ولأحد إحدى ؟

أقول لك : إن الغالب فى واحد وواحدة أن يستعملا فى الصفات

---

(١) الآية ١١ من سورة المدثر .

(٢) انظر المخصص ٩٦/١٧ ، وانظر شرح الكافية للرضى ١٤٦/٢ ، والصبان على الأشمونى ١٧٢/٢ ، والقاموس المحيط مادة (وحد) .

(٣) انظر سيبويه ٣٣١/٤ ، ٣٣٢ حيث قال : وليس ذلك بمطرد فى المفتوحة ، وانظر العكبرى فى سورة الإخلاص .

لا فى الأسماء ، والغالب فى أحد وإحدى أن يستعملا استعمال الأسماء لا الصفات ، ولأجل ذلك جعلوا المؤنث لواحد واحدة ولأحد إحدى فرقا بين الاسم والصفة .

استخدامات واحد وواحدة لغة وقرآنا

— علمت مما سبق أن الغالب فى واحد وواحدة أن يستخدما استخدام الصفات ، وفى هذه الحالة يجريان فى التذكير والتأنيث على الموافقة لما قبلهما شأن الصفة والموصوف . فتقول : رجل واحد وامرأة واحدة — ولذا يعربان صفة للمتقدم ويتبعانه فى الإعراب والنوع والعدد .

— ويصح فى (واحد) الجمع مذكراً على واحدين ومكسرا على وحدان وأحدان والهمزة فيه بدل من الواو(١) . وعلى ذلك قول الشاعر:

وقد رجعوا كحى واحدينا

بمعنى منفردين ،

وقول الآخر :

يحمى الصريخة أحدان الرجال له
صيد ومجترىء بالليل هماس(٢)

---

(١) انظر ابن يعيش ٦/٣٢ ، والقاموس المحيط مادتى أحد ، وحد . وانظر شرح الرضى على الكافية ٢/١٤٦

(٢) البيت الأول من الوافر وقائله الكميت بن زيد وصدره :

فضم قواصى الأحياء منهم   فقد رجعوا كحى واحدينا

وهو من شواهد المخصص ١٧/٩٧ وجاء به شاهداً فى قوله : ←

— وقد يستخدمان (واحد وواحدة) استخدام الأسماء ، كقولهم: واحد ، أثنان ، واحدة أثنتان ، فهما هنا اسمان لا وصفان كما أن سائر أسماء العدد كذلك ، ولذا لا يجرى شيء منها على موصوف على حد جرى الصفة عليه ، وفى هذه الحالة لا يثنى العدوان واحد وواحدة — ولا يجمعان ، لأنهم استغنوا عن ذلك بقولهم : أثنان وثلاثة(١) .

— وقد يضاف العدد (واحد) إلى مابعده لا لإزالة الإبهام ، وإنما للتخصيص والإستحقاق كقول الشاعر :

= واحدينا حيث جمع واحد عليه لأنه وقع صفة للمعدود فى المعنى لأنه حال والحال وصف لصاحبه والمعنى : رجعوا كحى منفردين .

والبيت من شواهد اللسان مادة (وحد)وفى ديون الشاعر:١٢٢/٢ط ١٩٦٩م .

والبيت الثانى من البسيط وقائله مالك بن خويلد ، وهو فى ديوان الهذليين٣/٣وفى المخصص٩٧/١٧وجاء شاهداً على أن (أحدان جمع واحد تكسيراً حيث أريديه الصفة،لأن المعنى : أما النهار فالرجال الوحيدون له : صيد ، ومجترىء ، وهماس ، وجمع عـــلى فعلان لأن الصفة استخدمت استخدام الأسماء مبالغة فى ثبوتها لمستحقيها والبيت من شواهد اللسان مادة (وحد) وابن يعيش ٣٢/٦ وللبيت رواية أخرى :

يحمى الصريمة أحداث الرجال له — صيد ومستمع بالليل همـاس
وأنظره فى المخصص فى ٩٦/١٧

(٢) أنظر الخصائص لابن جنى٧٨/٢ ، ٢٦٢/٣ ، والمخصص لابن سيده ٩٨/١٧

إنما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعول فى الدنيا على أحد

وتقول العرب . واحد دهره ، أى : لا نظير له(١) .

— وواحد ، وواحدة . قد يستخدمان فى التنييف تركيباً وعطفاً لكن قليلا ، فيقال : واحد عشر ، وواحدة عشرة ، وواحد وعشرون وواحد وعشرون — والأخف والأكثر فى التركيب : أحدعشر وإحدى عشرة باستخدام أحد وإحدى مكاف واحد وواحدة والأكثر أيضاً فى العطف : واحد وعشرون على الأصل ، وإحدى وعشرون على المبادلة(٢) .

— ولفظة (واحد) وردت فى القرآن ثلاثين مرة ، مرفوعة فى سبع عشرة آية ، ومنصوبة فى خمس آيات، ومجرورة فى ثمانى آيات وإليك بيان ذلك بالإستقصاء والتفصيل :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم	١٦٣	البقرة
٢	) إنما الله إله واحد	١٧١	النساء
٣	) وما من إله إلا إله واحد	٧٣	المائدة
٤	) قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون	١٩	الأنعام
٥	) أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار	٣٩	يوسف
٦	) قل الله خالق كل شىء هو الواحد القهار	١٦	الرعد
٧	) وليعلموا إنما هو إله واحد	٥٢	ابراهيم

(١) أنظر مختار الصحاح مادة (وحد) .
(٢) أنظر الرضى على الكافية ٢/١٤٦ وابن يعيش ٦/٣١،٣٢ بتصرف .

م	الآية	رقمها	السورة
٨	) إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة	٢٢	النحل
٩	) وقال الله لا تتخذوا إلهين أثنين إنما هو إله واحد	٥١	النحل
١٠	) قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد	١١٠	الكهف
١١	) قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون	١٠٨	الأنبياء
١٢	) فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين	٣٤	الحج
١٣	) وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون	٤٦	العنكبوت
١٤	) إن إلهكم لواحد — رب السموات والأرض	٤	الصافات
١٥	) وما من إله إلا الله الواحد القهار	٦٥	ص
١٦	) سبحانه هو الله الواحد القهار	٤	الزمر
١٧	) قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين	٦	فصلت

ويلاحظ أن لفظة (واحد) وقعت صفة فى كل الآيات ماعدا آيتى العنكبوت والصافات فهى خبر فيهما ، وإن كان الخبر وصفاً للمبتدأ فى المعنى كما قرره علماء النحو .

— (واحد) بالجر فى ثمانى آيات هى بالإستقصاء كما يلى:

م	الآية	رقمها	السورة
١)	وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد	٦١	البقرة
٢)	ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد —	١١	النساء
٣)	وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس	١٢	النساء
٤)	لاتدخلوا من باب واحد ، وأدخلوا من أبواب متفرقة	٦٧	يوسف
٥)	يسقى بماء واحد ، وتفضل بعضها على بعض فى الأكل	٤	الرعد
٦)	وبرزوا لله الواحد القهار	١٦	الرعد
٧)	الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة	٢	النور
٨)	لمن الملك اليوم لله الواحد القهار	١٦	غافر

ويلاحظ أن لفظة (واحد) صفة لما قبلها فى كل الآيات المتقدمة ماعدا المسبوقة بـ (**كل**) فإنها اسم مضاف إليه ، وليست صفة قتنية لذلك .

— أما لفظة (واحدة) بالنصب وردت فى خمس آيات هى بالتحديد والإستقصاء فى الآيات التالية :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) قالوا تعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل إلها واحدا	١٢٣	البقرة
٢	) وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا	٣١	التوبة
٣	) لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا	١٤	الفرقان
٤	) أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب	٥	ص
٥	) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر	٢٤	القمر

— ويلاحظ أنها صفة فى كل الآيات السابقة .

— أما لفظة (واحدة) فإنها وردت فى القرآن إحدى وثلاثين مرة، مرفوعة فى خمس آيات ، ومجرورة فى سبع آيات، ومنصوبة فى تسع عشرة آية وإليك ذلك مفصلا ومستقصى فى أساليب القرآن الكريم ، (فواحدة) بالرفع وردت فى الآيات التالية :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون	١٩	الصافات
٢	) إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة واحدة	٢٣	ص
٣	) وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر	٥٠	القمر

م	الآية	رقمها	السورة
٤	) فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة	١٣	الحاقة
٥	) فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة	١٣	النازعات

ويلاحظ أنها فى الآيات الخمس السابقة صفة لما قبلها ماعدا أية القمر فإنها صفة لمحذوف .

والأمر فى الآية بمعنى الشأن — والمعنى : وما شـأننا فى الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر فى السرعة نقول الشىء كن فيكون(١) .

قال ابن كثير فى المختصر : وهذا إخبار من الله عن نفوذ مشيئته فى خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : وما أمرنا إلا واحدة أى إنما نأمر بالشىء مرة واحـدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية فيكون ذلك موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما
يقول له : كن قوله فيكون(٢)

— وواحدة — بالنصب وردت فى الأيات الآتية وعددها تسع عشرة آية وإليك ذلك بالتفصيل :

---

(١) أنظر صفوة التفاسير ص ١٤٥٤

(٢) ومنه يفهم أن الأمر هنا بمعنى المشيئة أو الإرادة أنظر مختصر ابن كثير المجلد الثانى ٤١٤

م	الآية	رقمها	السورة
١)	كان الناس أمة واحدة	٢١٣	البقرة
٢)	فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة — أى فتزوجوا واحدة	٣	النساء
٣)	وإن كانت واحدة فلها النصف	١١	النساء
٤)	ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة	١٠٢	النساء
٥)	ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم	٤٨	المائدة
٦)	وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا	١٩	يونس
٧)	ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين	١٨	هود
٨)	ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون	٩٣	النحل
٩)	إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون	٩٢	الأنبياء
١٠)	وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون	٥٢	المؤمنون
١١)	وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة	٣٢	الفرقان
١٢)	إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون .	٢٩	يس

م	الآية	رقمها	السورة
١٣)	ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون:	٤٩	يس
١٤)	إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع الدنيا محضرون	٥٣	يس
١٥)	ومايننظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق	١٥	ص
١٦)	ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة .	٨	الشورى
١٧)	ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون	٣٣	الزخرف
١٨)	إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر	٣١	القمر
١٩)	وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة	١٤	الحاقة

ويلاحظ أن لفظة (واحدة) وقعت صفة مخصصة — ومؤكدة لما قبلها فى جميع الآيات السابقة ماعدا الآية الثالثة من سورة النساء فهى مفعول لفعل محذوف كما قدرت .

أما (واحدة) بالجر فقد وردت فى سبع آيات وإليك ذلك .

م	الآية	رقمها	السورة
١)	ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة	١	النساء
٢)	وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع	٩٨	الأنعام
٣)	هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها	١٨٩	الأعراف

م	الآية	رقمها	السورة
٤	وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا .	٣١	يوسف
٥	ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير .	٢٨	لقمان
٦	قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى	٤٦	سبأ
٧	خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .	٦	الزمر

ويلاحظ أنها صفة لمجرور فى الجميع ماعدا آيتى يوسف وسبأ فهما اسمان مجروران الأولى بالإضافة والثانية بحرف الجر ويمكن أن يكون حرف الجر فى الثانية داخلا على موصوف محذوف تقديره : قل إنما أعظكم بموعظة واحدة — وعليه فتكون صفة لا اسما .

ومن كل ماتقدم من الآيات فى الرفع أو الجر أو النصب يتأكد لنا من القرآن الكريم الذى هو فى أعلى المراتب صحة من ناحية التراكيب اللغوية والنحوية وأعلاها فصاحة وبلاغة وبيانا — أن لفظى واحد وواحدة أكثر استخدامها فى الصفات ، وقد يستخدمان استخدام الأسماء ، وفرق بين الصفة والاسم حيث يجوز فى الصفة التبعية لما قبلها إعرابا ونوعا وكما . أما الاسم فليس بواجب فيه ذلك .

— هذا وقد جاء لفظ (واحد) معدولا على ثلاث صيغ هى :

١ — مفعل بفتح الأول والثالث — جاءوا موحد موحد —

٢ — فعال بضم الأول وفتح الثانى — جاءوا احاد أحاد —

٣ — فِعَال بكسر الأول وفتح الثانى — جاءوا وِحاد وِحاد .

أى فرادى — غير أن الإستعمال القرآنى جاء على فرادى فحسب وقد وردت كلمة فراوى مرتين : مرة فى قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فراوى كما خلقناكم أول مرة) الأنعام ٩٤

ومرة فى قوله تعالى : (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى) الآية ٤٦ من سورة سبأ .

استخدامات أحد ووحد وإحدى لغة وقرآنا

قد علمت مما سبق أن الألفاظ ـ أحد، ووحد، وإحدى تستعمل أسماء فى الأعداد، ولا تستعمل صفات، وسأتناول كل لفظة على حدة من ناحية إستعمالها فى اللغة والقرآن الكريم.

أولا : لفظة (أحد)

هذه الكلمة لها استخدامات فى اللغة :

١ ـ الكثير والغالب فيها أنها تستخدم لإفادة العموم، وفى هذه الحالة لا تقع إلا بعد النفى أو الاستفهام. أو شبه النفى وهو : النهى[1].

أما إذا وضعته موضع (واحد) فى العدد أى المستخدم إستخدام الأسماء لا الصفات جاز أن يستخدم فى موضع الواجب والمثبت نحو : واحد وعشرون وأحد وعشرون، قال تعالى : (قل هو الله أحد)[2].

---

(١) تقول : لا أحد، هل من أحد، ما جاءنى من أحد، أنظر سيبويه ٥٤١١ ط هارون، وأنظر الرضى على الكافية ١٤٦/٢، وابن يعيش ٣١/٦، ٣٢. وأنظر مختار الصحاح مادة (وحد)

(٢) الآية (١) من سورة الإخلاص. وأنظر إعراب (أحد) فى العكبرى فى سورة الإخلاص ٢٩٧/٢ ط الحلبى ١٩٦٩ م

وإعرابها ملخصا كالآتى :

هو : ضمير شأن مبتدأ. (الله أحد) جملة فى محل رفع خبر عن ضمير الشأن، والمعنى : الشأن والحال والواقع (الله أحد) =

— والهمزة فى (أحد) المراد بها العموم أصلية ، وفى المستخدمة فى موضع واحد بدل من الواو . وقيل أصل فيهما .

٢ — وقد تضاف كلمة (أحد) إلى ضمير المتكلمين (أحدنا) وإلى ضمير المثنى غائبا ، أو مخاطبا (أحدهما) (أحدكما) ، وإلى ضمير الجمع الغائب أو المخاطب : (أحدهم) (أحدكم) ، وقد يضاف إلى ظاهر مثنى أحد الرجلين ، أحد الفريقين .

٣ — وقد تركب مع العشرة فنقول : أحد عشر ووقد وردت بهذا التركيب فى القرآن فى آية واحدة هى قوله تعالى : (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) الآية (٤) من سورة يوسف .

٤ — وقد يعطف عليها العقد أو غيره : أحـــد وعشرون ، أحدى وثلاثون والأحسن أن يبدل هنا (واحد) مكان أحـد تخفيفا وتقول : واحد وعشرون،واحد وثلاثون إلى واحد وتسعين .

= وقيل : هو بمعنى:ربى الذى تسألون عنه،لأنهم قالوا لرسول الله ﷺ : أربك من نحاس أم ذهب ؟ فجاء الجواب :

هو : أى ربى الذى تسألون عنه (الله) . وعلى ذلك فـ (هو) مبتدأ و(الله) خبر عنه بمعنى : ربى الله : وأحد تكون على ذلك بدلا من لفظ الجلالة ، أو خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو أحد بمعنى : منفرد .

ويصح أن يكون لفظة الجلالة بدلا من الضمير ، و(أحد) هو الخبر عن الضمير الواقع مبتدأ

وعلى كل فـكلمة (أحد) هنا بمعنى واحد الواقع إسما لا صفة

٥ — ولفظة (أحد) بالتذكير وردت فى القرآن الكريم فى أربع وتسعين آية على ثلاثة أنواع :

(أ) مضافة فى إحدى وعشرين آية .

(ب) وغير مضافة فى ثنتين وخمسين آية .

(ج) ومركبة فى آية واحدة ، وقد تقدمت .

النوع الأول : (المضافة) ورد على نوعين نوع مع الجمع ، ونوع مع المثنى ،(١) والذى مع الجمع ثلاثة أنواع متكلمين ، ومخاطبين ، وغائبين فالإضافة إلى المتكلمين وردت فى آية واحدة هى قوله تعالى : قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين(٢) ، والإضافه إلى المخاطبين وردت فى سبع آيات هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١)	كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً ، الوصية	١٨٠	البقرة
٢)	أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب	٢٦٦	البقرة
٣)	يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت	١٠٦	المائدة

---

(١) وردت مضافة إلى الجمع فى خمس عشرة آية ، ومضافة إلى المثنى فى ست آيات كما فصلت فى الشرح

(٢) الآية ٧٨ من سورة يوسف ، ولفظ (أحد) فيها منصوب ، لأنه وقع مفعولا به للفعل الذى قبله ، والإضافة فيه على معنى (من)

م	الآية	رقمها	السورة
٤	حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون	٦١	الأنعام
٥	فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة	١٩	الكهف
٦	أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه	١٢	الحجرات
٧	وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت	١٠	المنافقون

ويلاحظ أن لفظة (أحد) وقعت موقع الاسم حيث وقعت فاعلا ومفعولا . ومبتدأ ، ومجرورة بالحرف أو بالإضافة فى الآيات المتقدمة والتالية بعد ذلك أيضا .

ولا يقع هذه المواقع إلا الأسماء لا الصفات

والإضافة إلى الغائبين وردت أيضا فى سبع آيات هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة	٩٦	البقرة
٢	فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به	٩١	آل عمران
٣	حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن	١٨	النساء
٤	حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون	٩٩	المؤمنون
٥	وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا	٥٨	النحل
٦	فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين	٦	النور
٧	وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم	١٧	الزخرف

أما الإضافة إلى المثنى فهى على نوعين : للمخاطب والغائب(١).

فالإضافه إلى المخاطب وردت فى آية واحدة هى قوله تعالى : (ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا)(٢).

والإضافة إلى الغائب وردت فى خمس آيات فى القرآن الكريم هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما)	٣٧	المائدة
٢	) ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا	٣٦	يوسف
٣	) وضرب الله مثلا رجلين أحدهما لا يقدر على شىء	٧٦	النحل
٤	) إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف)	٢٣	الأسراء
٥	) واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب)	٣٢	الكهف

أما غير المضافة وقد علمت أنها وردت فى القرآن الكريم فى ثنتين وخمسين آية على ثلاث صور إعرابية حيث جاءت مرفوعة فى ثلاث عشرة آية ، ومنصوبة فى عشرين آية ، ومجرورة فى تسع عشرة آية .

وعلى كل فيجب أن نعلم أن لفظة (أحد) فى غير الاضافة وردت دالة على العموم فى الآيات كلها إلا آية واحدة هى قوله تعالى : (قل هو الله أحد) فإنها دلت على الانفراد والوحدانية فى هذه الآية .

---

(١) المخاطب فى آية واحدة والغائب فى خمس آيات كما ستعرى فى الشرح

(٢) الآية ٤١ من سورة يوسف .

كما يلاحظ أيضاً أنها مسبوقة بنفى (١) دائماً عند إرادة العموم ، ولم تسبق بنفى عنـد إرادة الإنفراد والوحدانيه ، وإليك ذلك فى القرآن الكريم لتعرف أنه جاء على أعلى مستوى لغوى عرفه العرب بل تحداهم أن يأتوا بآية أو بسورة من مثله فعجزوا فيما بنا إليه لنتعلم منه .

أما (أحد) المرفوعة الداله على العموم والمسبوقة بالنفى ولو فى المعنى وقد وردت فى اثنتى عشرة آية هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحـــد مثل ما أوتيتم (١)	٧٣	آل عمران
٢	وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم	٤٣	النساء
٣	وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم	٦	المائدة
٤	وإن أحد من المشركين استجارك فأجره	٦	التوبة
٥	فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد	٨١	هود
٦	ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون	٢٥	الحجر
٧	قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا	٢٢	الجن

---

(١) ولو فى المعنى

(٢) الآية : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) فلفظ أحد وقع بعد نفى لفظى أو معنوى كما ستراه فى الشرح

م	الآية	رقمها	السورة
٨	) فيومئذ لا يعذب عذابه أحد	٢٥	الفجر
٩	) ولا يوثق وثاقه أحد	٢٦	الفجر
١٠	) أيحسب أن لن يقدر عليه أحد	٥	البلد
١١	) أيحسب أن لم يره أحد	٧	البلد
١٢	) ولم يكن له كفوا أحد	٤	الإخلاص

الملاحظات :

١ — يلاحظ أن الآية الأولى قبلها ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم — قل إن الهدى هدى الله — أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) فجملة (إن الهدى هدى الله) اعتراضية لإلزام الحجة — وأن الأمر ليس كما يقولون بل أنه من الله .

وبقية الآية — أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم — متعلقه بقوله تعالى : (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) والمعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم خشية أو مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم — أو خشية ومخافة أن يحاجوكم به عند ربكم — فلفظ (أحد) واقع بعد النفى لفظا(ولا تؤمنوا) أو معنويا مخافة أو خشية(١) .

٢ — يلاحظ أن الآيتين الثانية والثالثة فى المسلسل العام الشرط فيها حل محل النفى لأن فيه معناه، ولذا قالوا عنه: إن الشرط شبه النفى وكذلك الاستفهام .

---

(١) انظر صفوة التفاسير ١٩٤

٣ — يلاحظ أنى قلت أن عدد الآيات التى وردت فيها (أحد) مرفوعة ثلاث عشرة آية وقد تقدم من ذلك اثنتا عشرة آية والآية الثالثة عشرة وردت (أحد) فيها بعد الإيجاب لا بعد النفى وقد جاء ذلك فى آية واحدة هى قوله تعالى: (قل هو الله أحد) وقد تقدم الكلام عنها قبل ذلك.

أما (أحدا) المنصوبة والمسبوقة بالنفى أو شبهه وردت فى عشرين آية هى:

م	الآية	رقمها	السورة
١	) وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين	٢٠	المائدة
٢	) فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين	١١٥	المائدة
٣	) ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا	٤	التوبة
٤	) وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا	١٩	الكهف
٥	) فلا تمار فيهم إلا مراءاً ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا	٢٢	الكهف
٦	) ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمة أحدا	٢٦	الكهف
٧	) لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا	٣٨	الكهف
٨	) ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا	٤٢	الكهف
٩	) وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا	٤٧	الكهف
١٠	) ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا	٤٩	الكهف

م	الآية	رقمها	السورة
١١	) فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا	١١٠	الكهف
١٢	) فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما	٢٦	مريم
١٣	) فإن لم تجدوا فيها أحدا ، فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم	٢٨	النور
١٤	) ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله	٣٩	الأحزاب
١٥	) لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا	١١	الحشر
١٦	) يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا	٢	الجن
١٧	) وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا	٧	الجن
١٨	) وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا	١٨	الجن
١٩	) قل إنما أدعو ربى ، ولا أشرك به أحدا	٢٠	الجن
٢٠	) عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا	٢٦	الجن

أما (أحد) المجرورة المسبوقة بالنفى أو مشبهه مرادا بها العموم فقد وردت فى تسع عشرة آية فى أساليب القرآن الكريم هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) وما يعلمان من أحد	١٠٢	البقرة
٢	) وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله	١٠٢	البقرة

م	الآية	رقمها	السورة
٣	) لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون	١٣٦	البقرة
٤	) لا نفرق بين أحد من رسله	٢٨٥	البقرة
٥	) لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون	٨٤	آل عمران
٦	) إذ تصعدون ولا تلوون على أحد	١٥٣	آل عمران
٧	) والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم	١٥٢	النساء
٨	) أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين	٥٠	الأعراف
٩	) ولا تصل على أحد منهم مات أبدا	٨٤	التوبة
١٠	) وإذا ما انزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد	١٢٧	التوبة
١١	) وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من احد	٩٨	مريم
١٢	) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد	٢١	النور
١٣	) إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين	٢٨	العنكبوت
١٤	) يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن	٣٢	الأحزاب
١٥	) ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله	٤٠	الأحزاب

م	الآية	رقمها	السورة
١٦)	ولئن زالتا إن امسكهما من احد من بعده	٤١	فاطر
١٧)	قال رب اغفر لى ، وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى	٣٥	ص
١٨)	فما منكم من احد عنه حاجزين	٤٧	الحاقة
١٩)	وما لأحد عنده من نعمة تجزى	١٩	الليل

الملاحظات :

١ — لم ترد (أحد) مضافة إلى المثنى الظاهر فى القرآن الكريم .

٢ — يلاحظ أن (أحدا) فى الآية رقم ٣٢ من سورة الأحزاب استخدمت للمؤنث .

٣ — النفى فى الآية رقم ٤١ من سورة فاطر هو لفظة (إن) والذى يؤيد ذلك السياق والمعنى — وأيضا أن أحدا المراد بها لعموم لاتقع إلا بعد نفى أو شبهة كما تقدم ولا فرق بين النفى بالفعل أو الحرف .

٤ — (من) الداخلة على أحد تدل على أن النفى يبدأ من بداية مايقال له أحد . أى من الصفر إن صح هذا التعبير . ولا ينافى هذا قول المعربين إنها زائدة لأنهم يقصدون أن تأثيرها وإن كان موجودا لفظا فى الإعراب إلا إن مابعدها له إعراب آخر محلى فهم يقصدون بالزائد هنا أن الإعراب المحلى هـــو المعتبر لا الإعراب اللفظى فكأنه لا وجود له فى الإعراب ولا اعتبار للعمل اللفظى بل المحلى هو المعتبر .

ثانيا : لفظة (إحدى) .

وقد علمت أنها تستعمل إستعمال الأسماء لا الصفات ، وهى مؤنث (أحد) كما أن (واحدة) مؤنث (واحد) فرقا بين الصفة والاسم .

— وإحدى فى استعمالاتها كأحد — إلا إنها للمؤنث ولا تفيد العموم ولا تستعمل إلا مضافة إلى أكثر من واحد ، أو مع العقود .

فتقول : إحدانا ، وإحداكما ، وإحداهما ، وإحداكم ، وإحداهن . وإحدى عشرة ، وإحدى وعشرين ، وإحدى وتسعين .

— ولفظة (إحدى) وردت فى أساليب القرآن الكريم فى إحدى عشرة آية وكلها فى حالة الإضافة لأنها لا تستعمل إلا كذلك . وكل إضافتها فى القرآن الكريم إلى الغائب سواء أكان ظاهرا مثنى أوجمعا أو غائبا مثنى أو جمعا وإليك ذلك بالآيات مفصلة :

— وردت مضافة إلى الظاهر المثنى أو الجمع فى خمس آيات هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١)	وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم .	٧	الأنفال
٢)	هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين .	٥٢	التوبة
٣)	قال : إنى أريد أن أنكحك إحى ابنتى هاتين .	٢٧	القصص
٤)	لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم .	٤٢	فاطر
٥)	إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر .	٣٥	المدثر

— ووردت مضافة إلى ضمير المثنى الغائب فى خمس آيات أيضا هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١)	وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما	١٨٢	البقرة
٢)	فتذكر إحداهما الأخرى .	١٨٢	البقرة
٣)	فجاءته إحداهما تمشى على استحياء .	٢٥	القصص
٤)	قالت إحداهما يا أبت استأجره .	٢٦	القصص
٥)	فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله .	٩	الحجرات

— ووردت مضافة إلى الغائبات فى آية واحدة هى قوله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا)(١) .

الملاحظات :

١ — لم ترد (إحدى) فى القرآن مركبة ، ولا معطوفا عليها العقد ولا مضافة إلى المتكلمين ، ولا إلى خطاب ، بل كل الوارد فيها الإضافة إلى الغائب ، لأن الظاهر من قبيل الغائب .

٢ — يلاحظ أنها لم ترد فى اللغة العربية مستخدمة وحدها على الإطلاق قال صاحب المخصص(٢) ناقلا عن أبى عمرو بن العلاء(٣) :

(١) الآية ٢٠ من سورة النساء .

(٢) ابن سيده المتوفى ٤٥٨ هـ واسمه على بن اسماعيل . وله المخصص والمحكم ومشكل شعر المتنبى وغير ذلك .

(٣) ولد بمكة عام ٧٠ هـ وتوفى فى عام ١٥٤ هـ ، وقد نقل عنه ابن سيده فى المخصص أنظر مقدمة المخصص ١٠ — ١٤ .

« ولا يقولون : رأيته إحدى ، ولا جاء فى إحدى حتى يضم الى غيره . »(١)

وقال الرضى فى شرح الكافية : « ولا يستعمل إحدى إلا مع الإضافة أو التنييف (٢) »

وقال الزمخشرى فى المفصل : « والهمزة » فى أحد وإحدى منقلبة عن واو . ولا يستعمل أحد وإحدى فى الأعداد إلا منيفة » .

قال ابن جنى : « وأما قولنا : ما فى الدار أحد ، فهمزته عندنا أصل وليست ببدل ، ألا ترى أن معناه العموم والكثرة وليس فى معنى الانفراد فى شىء بل هو بضده »(٤) .

ثالثا : لفظة (وحد) .

وهذه ليس لها استخدام إلا مضافة إلى ضمير — وحينما تضاف تسكن الحاء حتى لا يتوالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة — فتقول : وحده — وحدها — وحدنا .

وقالت العرب : هو نسيج وحده . ونسيج وحده . وتقول : جاء وحده وقال رسول الله ﷺ : لا إله إلا الله وحــــده لاشريك له ، له الملك وله الحمد » .

---

(١) أنظر المخصص ٩٨/١٧ .

(٢) أى مع العقود مركبة أو معطوفة كما تقدم . أنظر شرح الكافية للرضى ٢ /١٤٦ .

(٣) أنظر ابن يعيش على المفصل ٣٢/٦ .

(٤) أنظر الخصائص ٧٨/٢ ، ٢٦٢/٣ .

وعلى كل فيجب أن تعلم أن لفظة (وحده) المضافة إلى الضمير تلازم النصب على الحالية لتأويلها بمشتق، لأنها بمعنى منفردا.

وقيل: نصبت على الظرفية، لأنها بمعنى: على حياله.

وقيل: نصبت على المصدر، لأنها بمعنى: خصوصا (١)

أما ورودها فى القرآن الكريم فقد وردت مضافه إلى ضمير المفرد الغائب فى ست آيات هى:

م	الآية	رقمها	السورة
١	قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا	٧٠	الأعراف
٢	وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا.	٤٦	الإسراء
٣	وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة.	٤٥	الزمر
٤	ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم.	١٢	غافر
٥	فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده.	٨٤	غافر
٦	وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده	٤	الممتحنة

وبهذا ينتهى الكلام على الألفاظ: واحد - أحد - وحد واحدة إحدى - ثم ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن العددين (اثنين واثنين).

---

(١) قال الرمانى: مذهب يونس فى مررت به وحده: أن ينصبه نصب الظرف كقولك: هو عنده — والمعنى: مررت به على حياله. =

. . . .

ومذهب الخليل: أن ينصبه نصب المصدر كقولك مررت به خصوصا .

وإنما حمله يونس على جهة الظرف لأنه رأى وحده فى هذا الموضع ناقص التمكن (أى يلازم النصب) كنقصان عنده فى التمكن فنصب كما نصب، وتلزمه الإضافة كما تلزمه، وفيه معنى على حياله . فحمله على الظرف لهذه العلة .

وقول الخليل أقوى ، لأن وحده أشبه بالمصدر فى معناه ، وحمله عليه أولى لكثرة نظيره من المصادر ، وظهور معنى الاختصاص فيه، أنظر سيبويه ٣٧٨/١ هامش (١) ط هارون .

أما سيبويه فرأيه : أنه حال بمعنى منفردا ، حيث وضعه تحت عنوان: « ما ينتصب على الحال وهو اسم جامد إلا إنه على التأويل بالمشتق أنظر سيبويه ١/ ٣٧٦ وما بعدها .

ثانيا : العددان

[اثنان واثنتان — لغة وقرآنا]

— يقال : ثنى الشيء إذا عطفه ، وبابه (رمى) .

وثناه : صار له ثانيا ، وثناه تثنية : جعله اثنين [١] .

— ولفظه (اثنان) تستخدم للمذكر رفعا ، وفى حالتى النصب والجر تستخدم (اثنين) .

— وفى التأنيث : اثنتان ، وثنتان رفعاً ، مثل : ابنتان وبنتان كما قال أبو على الفارسى ، وفى حالتى النصب والجر تستخدم اثنتين ، وثنتين .

— وإذا ركبت مع العشرة حذف منها النون فنقول فى المذكر : اثنا عشر رفعا ، واثنى عشر نصبا وجرا .

— وفى المؤنث : اثنتا عشرة ، واثنتى عشرة [٢] .

— وإذا عطف عليها العقد نقول: اثنان وعشرون رفعا، واثنين وعشرين نصبا وجرا فى حالة التذكير .

— وفى المؤنث نقول : اثنتان وعشرون ، وثنتان وعشرون رفعا ، ونقول : ثنتين وعشرين ، واثنتين وعشرين نصبا وجرا وهكذا .

---

(١) انظر القاموس المحيط ٣٩/٤ ، ومختار الصحاح مادة (ث ن ى) .

(٢) الأول رفعا ، والثانى نصبا وجرا ، ويمكن أن يقال كذلك ثنتا عشرة رفعا وثنتى عشرة نصبا وجرا .

قال أبو على الفارسى فى كتاية الإيضاح : « وقولهم : أثنان محذوف موضع اللام ، كما أن قولهم ابنان كذلك ، وللمؤنث اثنتان كما تقول : ابنتان ، وإن شئت ثنتان كما تقول : بنتان ، وقالوا فى جمع الإثنين : أثناء » (١) .

قال صاحب القاموس المحيط : « وألف اثنان للوصل وقد تقطع فى الشعر » (٢) ويقول الرضى فى شرح الكافية : « واحد واثنان للمذكر ، وواحدة ، واثنتان وثنتان للمؤنث ، ويجريان فى التأنيث والتذكير على القياس ، ذو التاء للمؤنث ، والمجرد عنها للمذكر » (٣) .

وبعد : فيجب أن تعلم أن العددين . واحدا واثنين لايحتاجان إلى تمييز فى العربية ، بل يكتفى بذكر المعدود عن العدد فتقول مثلا : رجل أو رجلان فيفيد ذلك أن العدد هو : واحد ، واثنان ، وإذا قلت : امرأة أو امرأتان أفاد أن العدد هو : واحدة واثنتان .

وبعبارة أخرى : أن المعدود هو الذى يعبر به فإن ذكر العدد بعده أعرب العدد صفة مؤكدة للمعدود ، قال تعالى : (... فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) (٤) .

أما عن استخدام القرآن الكريم لهاتين الكلمتين فقد ورد على النحو التالى :

أولا : اثنان بالرفع وردت مرة واحدة فى قوله تعالى : (يا أيها الذين

---

(١) انظر الإيضاح فى ذلك وانظر المخصص لا بن سيده : ٩٨/١٧ .
(٢) انظر القاموس المحيط ٣٩/٤ .
(٣) انظر شرح الكافية للرضى ١٤٦/٢ .
(٤) البقرة ٢٨٢ .

آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) الأنعام ١٠٦ (١) .

---

(١) شهادة بينكم يقرأ برفع الشهادة وإضافتها إلى بينكم ، والرفع على الابتداء ، والإضافة هنا من إضافة المصدر لمفعوله ، واذا حضر أحدكم الموت حين الوصية ظرفان متعلقان بالمصدر — واثنان فاعل أغنى عن الخبر ، والتقدير : يا أيها الذين آمنوا شهادة اثنين بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية .

وقيل الخبر : إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية — واثنان خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : الشاهدان اثنان ذوا عدل منكم ، وانظر العكبري ٢٢٩/١ بتصرف .

ثانياً : اثنين بالنصب وردت فى القرآن الكريم تسع مرات هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) ثمانية أزواج من الضأن اثنين(١)	١٤٣	الأنعام
٢	) ومن المعز اثنين	١٤٣	»
٣	) ومن الإبل اثنين	١٤٤	»
٤	) ومن البقر اثنين	١٤٤	»
٥	) حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور وقلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين(٢)	٤٠	هود
٦	) ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين(٣)	٣	الرعد
٧	) وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين(٤)	٥١	النحل

(١) اثنين بدل بعض من ثمانية المنصوب والباقى معطوف عليه ، والمعطوف على المنصوب منصوب . انظر العبكرى ٢٦٣/١

(٢) اثنين صفة توكيد لزوجين ، وإما مفعول له (احمل) ومن كل زوجين حال . هذا على قراءة كل بالإضافة ، وعلى قراءة كل من بالتنوين تعرب (اثنين صفة توكيد لزوجين — وهو فى حال المفعولية منصوبة وفى حال التوكيد مجرورة فتنبه لذلك . وانظر العبكرى ٣٩/٢ بتصرف.

(٣) زوجين مفعول جعل واثنين صفة توكيد له فهو منصوب مثله .

(٤) صفة مؤكدة للمفعول (إلهين) على تأويل لا تتخذوا بمعنى لا تعبدون أو مفعول ثان لاتخذ . وعلى كل فهى منصوبة .

م	الآية	رقمها	السورة
٨	) فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين(١)	٣٧	المؤمنون
٩	) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث	١٤	يس

ثالثا : قد وردت مجرورة مرة واحدة فى قوله تعالى :

إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار) ٥٠ التوبة .

والمعنى : أحد اثنين وتعرب (ثانى) حالا من الهاء فى (أخرجه) ، ويقرأ (ثانى) بسكون الياء وحقهـا التحريك — واثنين مضاف إليه)(٢) .

هذا بخلاف أوجه الجر التى سبقت فى الآيات السابقة على هذه الآية فى هذا البحث .

رابعاً : قد وردت مركبة مرفوعة فى آية واحدة هى قوله تعالى : (إن عدة الشهور عند الله اثنـا عشر شهرا فى كتاب الله)

[٣٦ — التوبة]

وردت مركبة منصوبة فى آية واحدة هى قوله تعالى : (وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) [١٣ — المائدة]

---

(١) يقال فيها ما قيل فى الآية ٤٠ من سورة هود .

(٢) انظر العبكرى ٢/١٥، وشرح التصريح ١/٢٧٦

أما لفظة اثنتان وثنتان المرفوعتان لم تردا فى القرآن الكريم فى حالة الإفراد[1] .

أما لفظة (اثنتين) نصباً وجراً فى حالة الإفراد فقد وردتا فى القرآن الكريم ، المنصوبة فى ثلاث والمجرورة فى واحدة .

اثنتين المنصوبة :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك	١٧٦	النساء
٢	) قالوا ربنا أمتنا اثنتين	١١	غافر
٣	) وأحييتنا اثنتين	١١	غافر

واثنتين المجرورة وردت فى قوله تعالى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	) فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك	١١	النساء

أما اثنتان واثنتين فى حالة التركيب مع العشرة فقد وردت ثلاث مرات .

---

(١) أما فى حالة التركيب فقد وردت فى آيتين سيأتيان بعد ذلك .

الأولى فى آيتين والثانية فى آية وإليك ذلك :

م	الآية	رقمها	السورة
١)	فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا	٦٠	البقرة
٢)	فانبجست منه اثنتا عشرة عينا	١٦٠	الأعراف
١)	وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما	١٦٠	الأعراف

ويلاحظ أنها فاعل فى الآيتين فى حالة الرفع ومفعـــول فى الآية الأخيرة فهى منصوبة .

هـذا ولم يرد لفظ (اثنان) مذكراً أو مؤنثا معطوفا عليه العقد فى القرآن الكريم .

هذا وقد ورد لفظة (اثنان) معدولا فى القرآن الكريم على صيغة مفعل فقط وجاء ذلك فى ثلاث آيات فى القرآن الكريم هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١)	فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع(١)	٣	النساء
٢)	أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا	٤٦	سبأ
٣)	جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع	١	فاطر

(١) (ما) بمعنى الذى وما بعده صلة أن فانكحوا الذى طاب لكم أو مصدرية أى فانكحوا الطيب لكم أو نكرة بمعنى فانكحوا جنسا طاب=

وجاءت أيضا كذلك فى قول رسول الله ﷺ :

« صلاة الليل مثنى مثنى »[1] أى ركعتان ركعتان بتشهد وتسليم فهى ثنائية لا رباعية .

وإلى اللقاء فى العدد القادم إن شاء الله ؟

د/ على أحمد زايد

= لكم . (من النساء) حال من فاعل (انكحوا) ، ومثنى وثلاث ورباع — نكرات لا تنصرف للعدل والوصف وهى يدل من (ما) على أنها نكرة أومصيدرية . والواو فى قوله : وثلاث ورباع — ليست للعطف الموجب وإلا لوجب أن يتزوج كل رجل بتسع نساء وهو مخالف للشرع وإنما المراد اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا . أى فانكحوا اثنتين أو ثلاثا أو أربعا وهذا أقصى ما يصل إليه الرجل فى الإسلام إذا حقق العدل بينهن فإن لم يستطع ذلك فواحدة أى فانكحوا واحدة أو فواحدة تكفى .

انظر العبكرى ١٦٦/١ — بتصرف .

(١) النهاية ٢٢٥/١

موضوع البحث :

دراسة تحليلية
لبعض الشواهد العربيّة

هذا البحث يتناول بعض الشواهد العربية قمت بدراستها دراسة تطبيقية ، وهى :

١ — وأنا الأخضر من يعرفنى
أخضر الجلدة من بيت العرب

٢ — ليث هزبر مدل عند خيسته
بالرقمتين له أجر وأعراس

٣ — حديا الناس كلهم جميعا
مقارعة بنيهم عن بنينا

د. محمد السيد متولى البغدادى

قسم اللغويات
بكلية اللغة العربية بدمنهور

البيت الأول : قول الشاعر :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب[1]

البيت للنهي وهو الفضل بن عباس بن عبيد اللهي . من بحر الرمل .

قوله: (أنا) ضمير رفع منفصل، وفى الاسم منه خلاف بين البصريين والكوفيين .

فالألف والنون هو الاسم عند البصريين ، والألف الأخيرة زائدة للوقف ، لبيان الحركة ، فهي كالهاء فى أغزه، وارمه، وإذا وصلت حذفتها كما تحذف الهاء فى الوصل .

وذهب الكوفيون إلى أنها بكمالها هو الاسم ، وذلك لثلاثة أوجه :

الأول : أن الضمير جار مجرى الحرف ، وحروف الحرف أصول .

والثانى : حكى الفراء[2] : آن فعلت ، بتقديم الألف على النون .

والثالث : ثبوتها وصلا فى قراءة نافع (قال أنا أحيي وأميت)[3] .

وأيضاً قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى حميداً قد تذريت السناما[4] .

---

(١) أنظر المقتضب (٣/٢٢٠) ، ومعجم الشعراء للرزبانى (٣٠٩) ، والمؤتلف والمختلف (٣٥) ، والحيوان للجاحظ (٣/٢٤٨) ، واللسان (خضر) والصحاح (خضر) .

(٢) أنظر شرح الكافية (٢/٩، ١٠) .

(٣) سورة البقرة آية (٢٥٨) .

(٤) البيت لحميد بن بحدل الكلبي، وهو شاعر إسلامى، وبحره الوافر. أنظر شرح الشافية (٤/٢٢٣) ، والمصنف (١/١٠) ، شرح المفصل =

ورد أبو حيان فى البحر المحيط(١) على قراءة نافع بقوله: (وقرأ نافع بإثبات ألف أنا، إذا كان بعدها همزة مفتوحة أو مضمومة، وروى أبو نشيط إثباتها مع الهمزة المكسورة، وقرأ الباقون بحذف الألف، وأجمعوا على إثباتها فى الوقف، وإثبات الألف وصلا ووقفاً لغة بنى تميم، ولغة غيرهم حذفها فى الوصل، ولا تثبت عند غير بنى تميم وصلا إلا فى ضرورة الشعر، نحو قوله:

فكيف أنا وانتحال القوافى   بعد المشيب كفى ذاك عارا.

والأحسن أن تحمل قراءة نافع على لغة بنى تميم؛ لأنه من إجراء الوصل مجرى الوقف على ما تأوله عليه بعضهم) اهـ.

ورد منهم أيضاً ابن يعيش فى شرح المفصل(٢) قال: (ولا حجة فى ذلك لقلته، ولأن الأعم الأغلب سقوطها، ومجاز البيت والقراءة على إجراء الوصل مجرى الوقف) اهـ. وقال أيضاً (أنا: الاسم فيه الألف والنون، والألف دخلت لبيان الحركة فى الوقف، يدل على ذلك أنك

= (٩٣/٣، ٨٤/٩)، الغرة لابن الدهان (٤٨٥/٢)، والخزانة الشاهد رقم (٣٧٨) و (حميداً) روى مكبراً ومصغراً، وروى أيضاً بالرفع والنصب، بالرفع على أنه بدل من قوله (سيف العشيرة)، أو على أنه خبر بعد خبر، وبالنصب على أنه بدل من الياء فى قوله (فاعرفونى)، أو منصوب على المدح بتقدير أعنى. وقوله: (تذريت السنام) بمعنى علوته، وهو من الذروة بالكسر والضم، وهو أعلى السنام. والشاهد فيه: أن الكوفيين ومنهم الفراء يزعمون أن الضمير هو كلمة (أنا) برمتها، واستدلوا بثبوتها وصلا بالبيت، إذ لو لم يكن الأمر هكذا لأسقط الألف فى حال الوصل.

(١) أنظر البحر المحيط (٢٨٨/٢).

(٢) أنظر شرح المفصل ٩٣/٣).

إذا وصلت سقطت الألف ، فتقول : أن فعلت، والوصل مما يرد الأشياء إلى أصولها فى الغالب)(١) اهـ .

وقال ابن جنى(٢): (أما الألف فى أنا فى الوقف فزائدة ليست بأصل، ولم يقض فى ذلك فيها من جهة الاشتقاق ، هذا لحال فى الأسماء المضمرة ، لأنها مبنية كالحروف ، ولكن قضينا بزيادتها من حيث كان الوصل يزيلها ويذهبها كما يذهب الهاء التى تلحق لبيان الحركة فى الوقف ، ألا ترى أنك تقول فى الوصل أنا زيد ، كما قال الله تعالى (إنى أنا ربك) تكتب بألف بعد النون ، وليست الألف فى اللفظ ، وإنما كتبت على الوقف (فصار سقوط الألف فى الوصل كسقوط الهاء التى تلحق فى الوقف لبيان الحركة فى الوصل ، وبينت الفتحة بالألف ، كما بينت بالهاء ؛ لان الهاء مجاورة الألف ، وقد قالوا فى الوقف أنه ، فبينوا الفتحة بالهاء كما بينوها بالالف، وكلتاهما ساقطة فى الوصل، فأما قول الشاعر: أبا سيف العشيرة... إلخ فإنما أجراه فى الوصل على حد ما كان عليه ، وأكثر مايجىء دلك فى الشعر) اهـ .

وقوله : (الاخضر) خبر المبتدأ ، وهو الضمير السابق ، وسيأتى المعنى .

وقوله : (من) اسم موصول بمعنى الذى ، ويجوز أن يكون موضعه جراً ، ونصباً ورفعا .

فأما الجر، فعلى إرادة اللام، وحذفها للضرورة الشعرية على حد قول الشاعر :

---

(١) المرجع السابق (٨٣/٩) .

(٢) المرجع السابق (٩٣/٢) ، والمنصف لابن جنى (١٠/١) .

رأين خليا بعد أحوى تقلبت
بفوديه سبعون السنين الكوامل(١)

قال ابن الشجرى فى أماليه(٢): (فصل : ذكر حذف الحرف: الحرف على ضربين : حرف معنى ، وحرف من نفس الكلمة ، فمن الحروف المعنوية التى وقع فيها الحذف أحرف خافضة ، منها اللام ، وحذفها مطرد مع أن المشددة وأن الخفيفة ، كقولك : ماجئتك إلا أنك كريم ، تريد إلا لأنك ، وكذلك ما أتيته إلا أن يحسن إلى ، تريد : إلا لأن يحسن ومما حذفوا منه اللام فى الشعر قول الأعشى :

أبا لموت الذى لا بد أنى ملاق لا أباك تخوفينى

والوجه لا أبالك ، كما قال زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وإنما ضعف حذف هذه اللام لأنها فى هذا الكلام معتد بها من وجه ، وإن كانت غير معتد بها من وجه آخر ، فالاعتداد بها من حيث منعت الاسم — لفصلها بينه وبين المجرور بها — أن يتعرف بإضافته إليه فيكون اسم لامعرفة ، وترك الاعتداد بها من حيث يثبت الألف فى أب ، ألا ترى أن الألف لا يثبت فى هذا الاسم إلا الإضافة ، نحو رأيت أباك وأبازيد ، فلولا أنه فى تقدير الإضافة إلى الكاف فى لا أبالك لم تثبت الألف) اهـ.

---

(١) البيت من الطويل لأبى حية النميرى ، أنظر أمالى ابن الشجرى (٣٦٤/١) وديوانه (١٦٧) ، والخليس : الشعر الأشمط ، والأحوى : الأسود ، وقوله : (بفوديه) : الفودان شعر جانبى الرأس مما يلى الأذنين ، انظر الصحاح (خلس ، فود).

(٢) أنظر أماليه (٣٦١/١ ، ٣٦٢).

وجاء حذف اللام فى النثر أيضا ، قال ابن الشجرى (١) : (ومما عدوه باللام قال ، ووزن فى نحو كلت لك قفيزين برا ، ووزنت لك منوين عسلا ، وجاء حذف هذه اللام فى كثير من كلامهم ، كقولك كلتك البر، ووزنتك العسل ، وقد يحذفون المفعول الثانى فيقولون : كلتك ، ووزنتك ، وعليه جاء قوله تعالى : (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)(٢) معناه كالوا لهم أو وزنوا لهم ، وأخطأ بعض المتأولين فى تأويل هذا اللفظ فزعم أن قوله: هم ضمير — مرفوع وكدت به الواو ، كالضمير فى قولك خرجواهم ، فهم على هذا التأويل عائد على المطففين .

ويدلك على بطلان هذا القول عدم تصوير الألف بعد الواو فى كالوهم، ووزنوهم ، ولو كان المراد ماذهب إليه هذا المتؤول لم يكن بد من إثبات ألف بعد الواو على ما اتفقت عليه خطوط المصاحف كلها فى نحو(خرجوا من ديارهم)(٣) ، (وقالوا لنبيهم) ، وإذا ثبت بهذا فساد قوله ، فالضمير الذى هو هم منصوب بوصول الفعل إليه بعد حذف اللام ، وهو عائد على الناس فى قوله تعالى:(إذا اكتالوا على الناس ، وهذا أيضاً دليل على فساد قوله إن الضمير مرفوع،ألا ترى أن المعنى إذا كالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوا للناس أووزنوا للناس يخسرون) اهـ .

ومن كلام العرب إذ أراد مفتخر منهم أن يفتخر بشهرته فى نسبه أو شجاعته،أو نحو ذلك أن يقول : أنا زيد لمن يعرفنى ، وأنازيد معروفا، فشاهد الأول قول مسكين الدارمى :

---

(١) انظر المرجع السابق (٣٦٣/١) .

(٢) سورة المطففين آية (٣)

(٣) البقرة آية (١٤٣)

أنا مسكين لمن يعرفنى
لونى السمرة ألوان العرب(١)

شاهد الثانى قوله ابن دارة :

أنا ابن دارة معروفا بها نسبى
وهل بدارة يا للناس من عار(٢)

فهذا يشهد بأن اللام فى قوله : لمن يعرفنى فى موضع الحال ، إذا كان المعنى أنا مسكين معروفا ،والتقدير أنا مسكين بينا لمن تعرفنى أو مستمراً لمن يعرفنى .

وقال بعض البصريين ومنهم أبو على الفارسى :يجوز أن تكون اللام متعلقة بما فى زيد من معنى البيان والإشتهار ، كما فى قول الشاعر :

---

(١) البيت من الرمل ، ومعناه واضح ، أنظر اللسان (حضر).

(٢) البيت من البسيط ، وقائله سالم بن دارة اليربوعى ، ودارة اسم أمه ، سميت بذلك لجمالها تشبيها بدارة القمر ، وانظر سيبويه (٢/٧٩) ، الخصائص (٢/٢٦٨) والخزانة (٣/٢٤٠) ، حاشية الصبان (٢/١٨٥)، أمالى ابن الشجرى (٢/٢٨٥) (ومعروفا) حال مؤكدة لمضمون الجملة قبله ، (وبدارة) جار ومجرور خبر مقدم (يا)حرف نداء ، والمنادى محذوف، أى ياقوم ، واللام مفتوحة للتعجب ، أو يا لمجرد التنبيه ، هذا رأى العينى، وقال البغدادى فى الخزانة : (يا للنداء لا للتنبيه ، وللناس المنادى ، لا أن المنادى محذوف تقديره قومى ،واللام للاستغاثة ، وهى تدخل على المنادى إذا استغيث نحو يا لله) اهـ .

والجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ،(وعار) مبتدأ مؤخر منع من رفعه حرف الجر الزائد.

أنا أبو المنهـال بعض الأحيان
ليس عـــلى حسبي بضؤلان(١)

فقالوا العامل فى الظرف ما فى أبى المنهال من معنى الشهوة .

قال ابن جنى(٢): (باب فى الإستخلاص من الأعلام معانى الأوصاف: من ذلك ما أنشدناه أبو على — رحمه الله — من قول الشاعر:

أنا أبو المنهال ... البيت ... أنشدنيه — رحمه الله — ونحن فى دار الملك

وسألنى عما يتعلق به الظرف الذى هو (بعض الأحيان) نخضنا فيه إلى أن برد فى اليد من جهته أنه يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون أراد أنا مثل أبى المنها ، فيعمل فى الظرف على هذا معنى التشبيه ، أى أشبه أبا المنهال فى بعض الأحيان .

والآخر : أن يكون قد عرف من أبى المنهال هذا الغناء والنجدة، فإذا ذكر فكأنه قد ذكراً فيصير معناه إلى أنه كأنه قال : أنال المغنى فى بعض

---

(١) البيت من مشطور السريع ، انظر الهمع (٢/١٠٧) ، المغنى (الباب الثالث وشبه الجملة) ، شواهد المغنى (٨٤٣) ، قوله : (مضؤلان) : جاء فى اللسان (ضأل) : (رجل ضؤلة أى نحيف ، وهو عليه بضؤلان أى كل، وحسبه ضؤلان : إذا عيب به) ا . هـ .

والمعنى : أنا أقوم بحقـــوق حسبي ، ولا آتى ما أعاب به ، وبعض فى البيت ظروف ، لأن لهـا حكم ما تضاف إليه ، وهى هنا مضافة إلى الظرف .

(٢) انظر الخصائص (٣/٢٧٠)

الأحيان ، أو أنا النجد فى بعض تلك الأحيان ، أفلا تراك كيف أنتزعت من العلم الذى هو أبو المنهال معنى الصفة والفعلية) ا . ه ،

ومثل ذلك قول الأعشى :

شـتان مايومى عـــلى كورهـا
ويوم حيـان أخى جـابر(١)

فالعامل فى قوله : (على كورها) ما فى اليوم من معنى الحدث ، لأنه لا يريد أن يومه على كورها ، وإنما يزيد حدثة من ركوبه وسيره عليها .

وعلى ذلك أجاز النحويون : زيد عمرو يوم اللقاء راكبا فى الميدان ، وأعملوا فى الحال والظرف مافى عمرو من معنى الشدة، أو مافى الكلام من معنى التشبيه : وعليه قول الشاعر:

وإنمـــا أولادنا بيننـــا
أكـبادنا تمشى عـــلى الأرض(١)

---

(١) البيت من السريع ، أنظر شرح المعضل (٣٧/٤) ، وشذور الذهب (٤٠٣) ، والتصريح (١٩٩/٢) ، (وحيان وجابر) أبنا عميرة من بنى حنيفة، وكان حيان نديما للأعشى ، والمعنى : أن يوميه لا يستويان ، بل بينهمـا افتراق ، وتخالف ، فيومه وهو راكب على كور ناقته يوم سفر ومشاق، ويومه وهو ينادم حيـان ، ويتساقيان الخمر يوم لهو وطرب ، والشاهد فى البيت : حيث إن العامل فى الجـار والمجرور فى قوله (على كورها) مافى اليوم من معنى الحدث ، أى ركوبه على كورها .

(٢) البيت من السريع لخطاب بن المعلى ، أنظر شرح ديوان الحماسة (٢٨٨/١) .

المعنى : يقول الشاعر: محل أولادنا من أنفسنا فيما بيننا محل الأكباد

فالعامل فى قوله : (بيننا) مافى الكلام من معنى التشبيه ، إذ المعنى تشبه أولادنا بيننا أكبادنا .

فقد ثبت بما قدمناه أن قوله : (من يعرفنى) فى البيت المتقدم ، إذا قدرت اللام موجودة فيه كان فى موضع الحال ، كأنه قال : أنا الأخضر بينا لمن يعرفنى أو تجعلها متعلقة بما فى الأخضر من معنى البيان والظهور ، كأنه قال : أنا البين لمن يعرفنى .

وأما جواز النصب فى من قول الشاعر : (من يعرفنى)، فبإضمار فعل دل عليه معنى الكلام المتقدم ، لأنه لما قال : وأنا الأخضر، دل على أنه يعرف نفسه ، فكأنه قال : أعرف نفسى من يعرفنى ، أى من أراد أن يعرفنى ، كما يقول القائل : قد أجزت كتابى هذا لمن يرويه عنى من غير تصحيف ولا تبديل ، أى لمن أراد أن يرويه ، ومثله قوله سبحانه وتعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله)(١) أى إذا أردت أن تقرأ فاستعذ بالله ، ومثل ذلك قول الأخطل :

وقد أراها وشعب الحى مجتمع
وأنت صب بمن علقت معتمد
أيام جمل خايلا لو يخاف لهـا
صرما لخولط منه العقل والجسد(٢)

= من الأجواف وإن كانت ماشية على الأرض ، ويقال الولد فلذة من الكبد أى قطعة منه .

(١) سورة النحل آية (٩٨) .

(٢) البيتان من البسيط، والبيت الثانى من شواهد سيبويه، ونسبه أيضاً للأخطل ، وقال الأستاذ عبد السلام هارون: (ليس فى ديوان الأخطل، لكن ورد أيضاً بهذه النسبة عند الشنتمرى) ، أنظر الكتاب(٢/٢٣٧) . =

فالناصب لقوله خليلا فعل مقدر .

ومثله قول عبد الله بن قيس الرقيات :

لن تراهـــا ولو تأملت إلا
ولهـــا فى مفارق الرأس طيباً(١)

فطيباً منصوب بفعل مقدر ، أى إلا وترى لها طيباً .

وأما الوجه الثالث فى إعراب (من) ، وهو الرفع ، فعلى أن تكون مبتدأ ، وقوله : (أخضر الجلدة) خبره ، كأنه قال : وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة مثلى فى صحة نسبه وكرم عنصره .

= اللغويات (أراها) أى قد أرى هذه الدار فى هذا الوقت ، (حبت) : الصبابة رقة الشوق وحرارته ، يقال : رجل صب أى عاشق مشتاق ، الصحاح (صبب) ، (الصوم) بالضم والفتح : القطيعة والهجران ، أو هو بالضم الاسم ، وبالفتح : المصدر ، (حوالط) أخل وتغير ، وأيام جمل : ظرف منصوب بقوله : أراها .

والناصب لقوله : (خليلا) فعل مقدر على الإختصاص والتعجب ، أى أعجب بها خليلا .

(١) البيت من الخفيف . أنظر سيبويه (١/٢٨٥)، الخصائص(٢/٤٢٩)، حاشية الدسوقى (٢/٢٣٩) ، شرح المفصل (١/١٢٥) ، ديوانه (١٧٦) ،

وقوله : (مفارق) جمع مفرق . وهو حيث يفرق الشعر ، وقوله (ولها فى مفارق) الواو للحال، والجارن والمجروران متعلقا بالفعل المقدر، وجملة الفعل المقدر حالية ، وهذه الحال مستثناة من عموم الأحوال السابقة .

وقوله: (من بيت العرب) فى موضع الصفة لأخضر الجلدة، إذ التقدير رجل أخضر الجلدة من صميم العرب، وكذلك يكون أيضاً فى الوجهين المتقدمين، ويجوز فيه وجه آخر، وهو أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه قال: أنا الأخضر من بيت العرب، ويجوز أيضاً أن يكون فى موضع الحال من الأخضر، كأنه قال: وأنا الأخضر صحيحاً نسبه، أى خالصاً ونحو ذلك.

والمعنى: أنه يريد بالخضرة سمرة اللون وسواده، إذ ذلك دليل على تمحض عربيته، ألا ترى أن العرب تصف نفسها بالسواد، وتصف العجم بالحمرة، وعلى ذلك قوله ﷺ. (بعثت إلى الأحمر والأسود).

ومثله قول معبد بن أخضر، وكان ينتسب إلى أخضر ولم يكن أباه، بل كان زوج أمه، وإنما هو معبد بن علقمة المازنى:

سأحمى دماء الأخضرين إنه
أبى الناس إلا أن يقولوا ابن أخضرا
وهل لى فى الحمر الأعاجم نسبة
فآنف مما يزعمون وأنكرا(١)

ومن ذلك قول حسان يهجو ابن عياض التيمى:

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد
أو عبد شمس أو أصحاب اللوى الصيد

(١) البيتان من الطويل، والمراد من (الأخضريين) نفسه وأخوة، (وأخضرا) هو أخضر المازنى زوج أم معبد الشاعر، فنسب إليه هو وأخوه عباد الذى قتله الخوارج، فتقدم معبد فى جماعة من بنى مازن للأخذ بثأره، وحاربوا الخوارج، أنظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (٧٥٠/٢) والكامل للمبرد (٢٥٨/٣).

أو فى السرارة من تيم رضيت بهم
أو من بنى خلف الخضر الجلاعيد(١)

وقال بعض الأدباء: المراد بالخضرة فى بيت حسان : الكرم على جهة تشبيههم بالبحر لأنه أخضر ، وهذا لا يصح فى بيت اللهبى ، لقوله أخضر الجلد ، والجلدة ليست مما توصف بالكرم.

أما قول جرير :

كسا اللؤم تيما خضرة فى جلودها
فويلا ليتم من سرابيلها الخضر(٢)

فإنه لم يرد بالخضرة هنا خضرة كرم ،ولا تصحيح نسب . وإنما أراد أنها خضرة لؤم ودنس ، أى قد حالفهم اللؤم حتى صار كاللباس عليهم .

---

(١) البيتان من البسيط ، و (الصيد) هم الملوك،(أو فى السرارة من تيم) أى فى الصميم منهم ، (الجلاعيد) جاء فى الصحاح (جلعد) ، (الجلعد : الصلب الشديد والجلاعد من الإبل : الشديد) اهـ .

أنظر ديوانه (١٣٣) .

(٢) البيت من الطويل من قصيدة لجرير يهجو بها التيم تيم عدى ، والسرابيل جمع سربال ، وهو القميص ، جعل لهم سرابيل سودا من اللؤم على عريق المثل ، لأنهم يقولون للكريم النقى العرض ، هو طاهر الثوب أبيض السربال ، ورواية الديوان :

كسا اللؤم تيما خضرة فى وجوهها
فياخزى تيم من سرابيلها الخضر

وأنظر سيبويه (٣٣٣/١)،شرح المفصل (١٢١/١)، المقتضب(٢٢٠/٣)، ديوانه (٢١٢) .

وأما قوله : الجلدة ، فإنها والجلد سواء ، وليس المراد بالجلدة هنا القطعة من الجلد .

والدليل على أن الجلدة تأتى بمعنى الجلد قول الفرزدق لما سئل عن عن نصيب : هو أشعر أهل جلدته ، وقول عمرو بن العلاء[1] وهو أحد القراء السبعة لأبي خيرة[2] الأعرابى البصرى : هيهات لانت جلدتك يا أبا خيرة .

والله أعلم

(١) أنظر بغية الوعاة (٢/٢٣١)

(٢) المرجع السابق (٣١٧/٢)

البيت الثانى قول الشاعر :

ليث هزبر مدل عنـــد خيسته
بالرقمتـين له أجـــر وأعراس (١)

البيت لمالك بن خالد الخناعى من بحر البسيط .

وفى (ليث) قولان : أحدهما أنه من اللوثة بمعنى القوة .

ومن ذلك قول ليلى الأخيلية :

غضـــوب للمهامـة ذات لوث
أمون الحلق سيرمها غلاب (٢)

فأصله : ليوت ، فقلبت الواو ياء ، لاجتماعهما ساكنا أولهما ، ثم

---

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش (٤/١٢٣ ، ٥/٢٥ ، ١٠/٢٣) ، توجيه اللمع لابن الخباز (٩) ، ديوان الهذليين (٣/٤) .

(٢) البيت من الوافر ، وتصف فيه ليلى ناقتها بالقوة والأمان ، وعدم المبالاة فى السير .

اللغويات : (غضوب) فعول صيغة مبالغة فى الغضب ، خبر لمبتدأ محذوف يعود على الناقة (للمهامة) مفردها مهمه ، وهى المغازة ، خبر مقدم

(لوث) مبتدأ مؤخر ، وفى الصحاح : (اللوثة : مس من الجنون ، ويقال أيضا ناقة ذات لوثة أى كثيرة اللحم والشحم ، واللوث ـ بالفتح ـ القوة) اهـ

(أمون الخلق) أى وثيقة الخلق ، قد أمنت العثار والإعياء ، والجمع أمن ، وهى خبر لمبتدأ محذوف يعود على الناقة أيضا . (الغلاب) المغالبة وانظر اللسان (أمن — مهمة — غلب) .

حذفت الثانية تخفيفا كميت بالسكون ، كما فى قوله تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا)(١) ، وكقول الشاعر :

ومنهل فيه الغــراب ميت
سقيت منه القوم واستقيت (٢)

وثانيهما : أنه من الليانة بمعنى الشجاعة ، وعلى ذلك قول رؤبة ابن العجاج :

وقد بلوا منك بليث أليث
أعطى أبا سارة حمض المغلث (٣)

وعلى القول الأول يكون وزن ليث : قيل ، بحذف عين الكلمة ، وعلى القول الثانى يكون الوزن : فعل ، قال ابن إياز فى المحصول شرح

---

(١) الحجرات آية رقم ١٢

(٢) البيت من الرجز ، ذكر فى الغرة لابن الدهان (٢/٤٢٧) ، والمحصول فى شرح الفصول (٢٣٦) بدون ذكر قائله .

اللغويات : (ومنهل) ماء فى القاموس (نهل) : (النهل — محركة — أول مشرب والمنهل : المشرب ، والشرب ، والموضع الذى فيه المشرب) اهـ

والشاعر يصف منهلا صادفه ، وفيه غراب ميت ، وهذا كناية عن صيغته ، ومع ذلك ارتوى منه ، وأروى غيره .

(٣) البيت من الرجز ، من قصيدة يمدح بها محمد بن الأشعث الخزاعى ، وأبا سارة هو عدوه

اللغويات : (الليث) الأسد ، والجمع ليوث (الأليث) الشجاع ، وجمعه ليث ، وهو صفة لليث ، ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل (المغلث) المقارب من الوجع ، ليس يضجع صاحبه ولا يعرق ، وانظر (ليث — حمض — غلث)

الفصول(١) : (وهنا تنبيه ، وهو أنهم حيث أعلوا العين فى هـذا بالقلب اجترؤا عليها بالحذف ، فقالوا : ميت وسيد ، وقد قرىء به ، وقال الشاعر :

ومنهل فيه الغرب ميت . . . .

فوزنه : فيل ، وبعضهم يرى أن المحذوفة الزائدة ، فالوزن عنده : فعل) اه

والظاهر أنه الصواب ، وذلك لسلامته من الحذف ، ولأنه لم يسمح فيه التثقيل :

وهو ، أى (ليث) فى البيت مرفوع على البدل من (ذوجيد) فى البيت الذى قبله ، وهو :

يامى لا يعجز الأيام ذوجيد
فى حومه الموت رزام وفراس (٢)

---

(١) انظر المحصول شرح الفصول (٢٢٦)

(٢) البيت من البسيط ، وهو من شواهد سيبويه (٢/٦٧) ، ونسبه لمالك من خالد الخناعى أيضا ، وقال الاستاذ عبد السلام هارون فى تحقيقه على الكتاب : (وذكر الشنتمرى أن الشعر يروى أيضا لأبى ذوايب . وقد أورد السكرى القصيدة مرتين ، ونسبها فى الأولى إلى أبى ذؤيب ، ثم قال : « قال أبو نصر : وإنما هى لمالك بن خالد الخناعى » وفى الثانية إلى مالك بن خالد ، ثم قال : وتنحل أبو ذؤيب قال الشنتمرى : وصف أسد ، ووقع فى إنشاد البيت غلط ، وهو قوله : ذوحيد ، والصواب : مبترك ، وهو الأسد البارك) أه

و(مى) منادى مرخم على لغة من لا ينتظر ، (وذوحيد) من وصف الوعل ، وهو تيس الجبل ، والحيد : نتوء فى قرنه ، واحدتها حيدة ، كضيع وضيعة ، (وحومة الموت) مجتمعه ، (والرزام) مبالغة من الرزم ، =

ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوف .

ويقول : (هزبر)(١) فعل ، وهو الغليظ الضخم ، صفة لليث ، ومنه الهزنبر للسيء الخلق وقيل الكيس القطن ، على وزن فعنل ، بزيادة النون ، لأنها وقعت ثالثة ساكنة ، وبعدها حرفان .

وقوله : (مدل)(٢) بكسر الميم وسكون الدال وتخفيف اللام : القليل اللحم ، وبفتح الميم : الخسيس والابن الخائر ، وبتشديد اللام كما فى البيت : المنبسط ، وهو صفة أخرى لليث .

وقوله : (عند) ظرف مكان إذا أضيف إلى مكان ، كما فى البيت ، وأما إذا أضيف إلى غيره ، يكون للزمان . وقد لزم القصب على الظرفية ، ولم يجر إلا بمن خاصة ، وفيه ثلاث لغات : كسر العين ، وضمها ، وفتحها ، وهو متعلق بقوله (مدل) أى يدل فى هذا الموضع ، ويجوز أن يكون نعتا لمدل ، ويتعلق بمحذوف ، أى مدل كائن عند خيسته ، وفيه ضمير راجع إلى الموصوف .

وقوله : (خيسته) مجرورة بإضافة عند إليه ، وهو الشجر الملتف ، جاء فى القاموس (الخيس) : (الخيس — بالكسر — الشجر الملتف ، أو ما كان حلفاء وقصبا ، وموضع الأسد كالخيسة ، والجمع ، : أخياس ، وخيس ، واللبز والدر ، يقال : أقل الله خيسه) اهـ

وقوله : (بالرقمتين) قال ابن دريد(٣) : هما روضتان إحداهما قريب من البصرة .

= وهو الصرع ، وكذا الغرس ، وهو دق العنق ، وصفة الفريسة . وهما وصفان لذوحيد .

(١) انظر القاموس المحيط (هزبر)

(٢) انظر المرجع السابق مادة (مدل)

(٣) انظر الاشتقاق لابن دريد (٧٢)

والأخرى بنجر(١) ، وقيل : بل كل روضة مزهرة رقمة .

وهو جار ومجرور ، والباء بمعنى فى ، ولا يكون ظرفاً لمدل ، مع كون عند ظرفاً له ؛ لاستحالة كون ظرفين لشيء واحد .

فإن قيل : هل يجوز أن يكون بدلا من قوله : (حيسته) ، كقولك : قعدت فى مكان زيد فى داره ؟

أجبت : لا يجوز ، لأن الرقمتين أعم من الخيسة ، ولا يبدل الأعم من الأخص ، ولكن يجوز أن يكون منصوب الموضع على الحال من الهاء فى خيسته ، أى كائناً بالرقمتين ، وقد جاء الحال من المضاف إليه فى قول تأبط شراً :

سلبت سلاحى بائساً وشتمتنى
فياخير مسلوب وياشر سالب(٢)

فبائساً حال من الياء فى سلاحى ، ومجيء الحال من المضاف إليه قليل ، لأن العامل فى الحال ينبغى أن يكون هو العامل فى صاحب الحال .

ولذلك قال ابن الشجرى(٣) : (ولست أرى أن بائساً حال من ضمير المتكلم الذى فى سلاحى ، ولكنه عندى حال من مفعول سلبت المحذوف ، والتقدير : سلبتنى بائساً سلاحى ، وجاء بالحال من المحذوف لأنه مقدر عندة منوى ، ومثل ذلك فى القرآن قوله عز وجل : (ذرنى ومن خلقت

---

(١) نجر : أرض مكة والمدينة ، ونجراء بلد باليمن . انظر القاموس (نجر) .

(٢) البيت من بحر الطويل . انظر أمالى ابن الشجرى (١/١٧، ٢/٣٢٨)

(٣) أنظر الأمالى الشجرية (١/١٧ ، ١٨) ، وخزانة الأدب ٣/١٤٧ .

وحيداً)[١] ، فوحيداً حال من الهاء العائدة فى التقدير على من ، ومثله (أهذا الذى بعث الله رسولا)[٢] ألا ترى أنك لابد أن تقدر خلقته وحيداً ، وبعثه الله رسولا ، لأن الاسم الموصول لابد له من عائد لفظاً أو تقديراً .

وإنما وجب العدول من نصب بائس على الحال من الياء التى فى سلاحى، لما ذكرته لك من عزة حال المضاف إليه ، فإذا وجدت مندوحة عنه وجب تركه . وسلب يتعدى إلى مفعولين ، يجوز الاقتصار على أحدهما ، كقولك : سلبت زيداً ثوباً ، وقالوا : سلبت زيد ثوبه بالرفع على بدل الاستمال ، وثوبه بالنصب على أنه مفعول ثان ، وفى التنزيل (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه)[٣] .

فيجوز على هذا أن تجعل بائساً مفعولا ثانياً بتقدير حذف الموصوف، أى سلبت سلاحى رجلا بائساً .

ومما جاءت فيه الحال من المضاف إليه فى القرآن قوله تعالى : (قل بل ملة إبراهيم حنيفاً)[٤] قيل : إن حنيفاً حال من إبراهيم ، وأوجه من ذلك عندى أن تجعله حالا من حالا من الملة ، وإن خالفها فى التذكير، لأن الملة فى معنى الدين، ألا ترى أنها قد أبدلت من الدين فى قوله جل وعز : (ديناً قيما ملة إبراهيم)[٥] ، فإذا جعلت حنيفاً حالا من الملة فالناصب له هو الناصب للملة ، وتقديره : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وإنما أضمر نتبع ،

---

(١) سورة المدثر آية (١١) .
(٢) سورة الفرقان آية (٤١) .
(٣) سورة الحج آية (٧٣) .
(٤) سورة البقرة آية (١٣٥) .
(٥) سورة الأنعام (١٦١) .

لأن ماحكاه الله عنهم من قولهم : (كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) معناه اتبعوا اليهودية أو النصرانية ، فقال لنبيه : (قل بل ملة إبراهيم حنيفاً) .) ا . هـ ابن الشجرى .

وقال البغدادى فى الخزانة(١): (قال أبو على فى المسائل الشيرازيات : قد جاء الحال من المضاف إليه فى نحو ما أنشده أبو زيد :

عوذ وبهثة حاشدون عليهم
حلق الحـــديد مضاعفاً يتلهب(٢)

انتهى كلامه) ا هـ . فمضاعفاً حال من الحديد ، وهو المضاف إليه .

قال ابن الشجرى فى المجلس السادس والسبعين فى أماليه : (والوجه فى هذا البيت فيما أراه أن مضاعفاً حال من الحلق لا من الحديد لأمرين : أحدهما : أنه إذا أمكن مجىء الحال من المضاف كان أولى من مجيئها من المضاف إليه ، ولا مانع فى البيت من كون مضاعفاً حالا من الحلق ، لأننا نقول : حلق محكم ومحكمة . والآخر : أن وصف الحلق بالمضاعف أشبه من وصف الحديد به ، ويجوز أن تجعل مضاعفاً حالا من المضمر فى يتلهب ،

---

(١) أنظر الخزانة (٣/٢٥٥) .

(٢) البيت من بحر الكامل لزيد الفوارس . انظر أمالى ابن الشجرى (١/١٦٧ ، ٢/٣٢٧) ، الهمع (١/٢٤٠) . اللغويات : (عوذ) أبو حى من العرب ، (بهثة) أبو حى من سليم (حاشدون) يقال : فلان جاء حاشداً ، أى مستعداً متهيئاً والحشد يكون لازماً ومتعدياً ، يقال : حشد القوم : إذا اجتمعوا ، وحشدتهم : أى جمعتهم . (حلق الحديد) الحلقة — بالتسكين — الدرع ، والجمع حلق — بالفتح — على غير قياس . أنظر الصحاح (عوذ — بهث — لهب) .

ويتلهب فى موضع الحال من الحلق ، فكأنه قال : عليهب حلق الحديد يتلهب مضاعفاً) اهـ .

وقال السيوطى فى الهمع[١] : (وحق صاحب الحال أن لا يكون مجروراً بالإضافة كما لا يكون صاحب الخبر ، لأن المضاف إليه مكمل للمضاف وواقع منه موقع التنوين ، فإن كان المضاف بمعنى الفعل حسن جعل المضاف إليه صاحب الحال ، لأنه فى المعنى فاعل أو مفعول ، نحو (إليه مرجعكم جميعاً)[٢] ، وعرفت قيـــام زيد مسرعاً ، وجوز بعض البصريين ، وصاحب البسيط جمىء الحال من المضاف إليه مطلقا وخرجوا عليه (إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين)[٣] ، وقوله (حلق الحديد مضاعفاً يتلهب) وجوزه الأخفش وابن مالك إن كان المضاف جزء ما أضيف إليه أو مثل جزئه ، نحو (ما فى صدرهم من غل إخواناً)[٤] ، (ملة إبراهيم حنيفاً) لأنه لو استغنى به عن المضاف ، وقيل : ونزعنا مافيهم إخواناً ، واتبع إبراهيم حنيفاً ، لصح) اهـ .

وقوله : (وأجر)[٥] جمع جرو ، بكسر الجيم ، وهى اللغة الفصيحة ،

---

(١) انظر الهمع (١/٢٤٠)

(٢) سورة يونس آية (٤) .

(٣) سورة الحجر آية (٦٦) .

(٤) سورة الحجر آية (٤٧) .

(٥) فى القاموس (الجرو) : (مثلثة صغير كل شىء ، حتى الحنظل والبطيخ ونحوه ، والجمع : رجر وجراء ، وولد الكلب والأسد) اهـ .

وجاء فى هامش القاموس (قوله : صغير كل شىء . قال الشارح : التثليث إنما ذكر فى ولد الكلب والسباع ، أما فى الصغير عن كل شىء ، فالمسموع الجرو . والجروة بكسرهما) اهـ .

نص على ذلك أبو على الفارسى فى الإيضاح(١): باب جمع الأسماء الثلاثية، حيث قال: (وربما كسر على أفعل، وذلك ذئب وأذؤب، وجرو وأجر، ورجل وأرجل) ا. هـ.

وأصله: أجرو، فأبدلت ضمة الراء كسرة، ثم أبدلت الواو ياء، لوقوعها طرفا وانكسار ما قبلها، فصار إلى أجرى، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والتنوين، فحذفت الياء، وعلته أنه ليس فى كلام العرب اسم متمكن آخره واو قبلها ضمة، واغتفر ذلك فى الأفعال نحو يدعو ويغزو دون الأسماء، لأن الأسماء يلحقها الجر، وياء النسب والإضافة إلى ياء المتكلم، فكان يلزم أن يقال: بأجرو، فتجتمع ضمة، وواو، وكسرة، وكذلك أجروى منسوبا، فتجتمع ضمة، وواو مكسورة، وياءان، وكذلك أجروى، مع ياء المتكلم، فتجتمع ضمة، وواو وكسرة، وياء واحدة، وذلك مستثقل، فقلبت الواو ياء، لأن الياء على كل حال أخف من الواو.

وأما الفعل فقد أمن لحاق ذلك أجمع له، مع أن واوها معرضة للحذف فى الجزم، وليست فى الأسماء كذلك.

نعم لو سميت بيغزو رجلا، وهو مجرد عن الضمير، لقلبت الضمة لقلبت الضمة كسرة، والواو ياء، فقلت: هذا يغير، ومررت بيغز، منونين فى حالتى الرفع والجر كجوار، ورأيت يغزى، غير منون فى حالة النصب كجوارى، ولو سميت به وفيه ضمير لحكيته، لأنه جملة.

قال ابن جنى فى الخصائص(٢): باب فى ملاطفة الصنعة: وذلك أن ترى العرب قد غيرت شيئاً من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب حينئذ

---

(١) انظر الإيضاح (١٣٢)

(٢) أنظر الخصائص (٢/٤٧٠).

أن تتأنى لذلك وتلاطفه، لأن تخبطه وتعسفه ، وذلك كقولنا فى قولهم فى تكسير جرو ، ودلو : أجر ، وأدل : إن أصله أجرو ، وأدلو ، فقبلوا الواو ياء ، وهو — لعمرى — كذلك ، إلا أنه يجب عليك أن تلاين الصنعة ، ولا تعاذها . فنقول : إنهم أبدلوا من ضمة العين كسرة ، فصار تقديره : أجرو ، وأدلو ، فلما أنكسر ما قبل الواو — وهى لام — قلبت ياء ، فصارت أجرى ، وأدلى .

وإنما وجب هذا العمل هذا الترتيب ، من قبل أنك لما كرهت الواو هنا، لما تتعرض له من الكسرة والياء فى أدلوى(١) ، وأدلوى(٢) لو سميت(٣) رجلا بأدلو ، ثم أضفت إليه .

فلما ثقل ذلك بدؤا بتغيير الحركة الضعيفة تغييراً عبطا وارتجالا ، فلما صارت كسرة تطرقوا بذلك إلى قلب الواو ياءاً تطرقاً صناعياً ، ولو بدأت فقلبت الواو ياء بغير آلة القلب من الكسرة قبلها ، لكنت قد استكرهت الحرف على نفسه تهالكا وتعجرفاً لا رفقاً وتلطفاً ، ولما فعلت ذلك فى الضمة، كان أسهل منه فى الواو والحرف ، لأن ابتذالك الضعيف أقرب مأخذا من إنحائك على القوى ، فاعرف ذلك أصلا فى هذا الباب) ا . هـ .

والأحسن فى رفع (أجر) فى البيت أن يكون بقوله : (له) ، لأن (له) نعت لما قبله أو حال ، والظرف أو الجار والمجرور إذا كان أحدهما كذلك

---

(١) يقصد حال إضافتها إلى ياء المتكلم .

(٢) يقصد حال النسب إليها .

(٣) شرط أن يكون أسما ،لأنه جمع فلا ينسب إليه على لفظه إلا إذا كان علما ، وإلا نسب إلى مفرده .

ارتفع به الأسم وجوبا على أنه فاعل عند الأكثرين، ويجوز الرفع على أنه مبتدأ.

قال ابن هشام فى المغنى(١) : (إذا وقع بعدهما — أى الظرف والجار والمجرور — مرفوع، فإن تقدمهما نفى أو استفهام أو موصوف أوموصول أو صاحب خبر أو حال، نحو مافى الدار أحد، وأفى الدار زيد، ومررت برجل معه صقر، وجاء الذى فى الدار أبوه، وزيد عندك أخوه، ومررت بزيد عليه جبة، ففى المرفوع ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الارجح كونه مبتدأ مخبراً عنه بالظرف أو المجرور، ويجوز كونه فاعلا.

والثانى : أن الارجح كونه فاعلا، واختاره ابن مالك، وتوجيهه أن الاصل عدم التقديم والتأخير .

والثالث : أنه يجب كونه فاعلا، نقله ابن هشام عن الاكثرين.

وحيث أعرب فاعلا، فهل عامله الفعل المحذوف، أو الظرف أو المجرور، لنيابتهما عن استقر، وقربهما من الفعل لاعتمادهما، فيه خلاف، والمذهب المختار الثانى، بدليل امتناع تقديم الحال فى نحو زيد فى الدار جالساً، ولو كان العامل الفعل لم يمتنع) ا. هـ.

ويجوز رفع (أجر) أيضاً بالرقمتين، لان الجار والمجرور فى موضع حال أو صفة، ومن رفع أجر بالإبتداء، فله الخبرة وبالرقمتين صفة لاجر فى الاصل، فلما تقدم عليه نصب على الحال.

---

(١) انظر المغنى — الباب الثالث — أحكام شبه الجملة (٢/٤٤٣)، ويراجع همع الهوامع للسيوطى (٢/١٠٧).

ويجوز أن يكون بالرقمتين خبره ، (وله) صفة تقدمت فصارت حالا .

وقوله : (وأعراس) عطف على أجر ، وهو جمع ، مفرده عرس — بالكسر — وهى إمرأة الرجل، وأيضا لبؤة الاسد(١) ، وهو المقصود فى البيت .

والله أعلم

(١) أنظر القاموس (عروس) .

البيت الثالث قول الشاعر :

حـــديا النـاس كلهم جميعـــاً
مقارعة بينهم عن بنيـــا(١)

البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة .

قوله : (حديا) من أسماء المصادر التى جاءت مصغرة ، نحو الهديا ، والحجيا للمحاجاة ، والعجيلى للإسراع ، والهوينا للرفق ، من الهون .

والدليل على أن الحديا مصدر ، إفراده فى التثنية والجمع ، كقولك : هو حدياً زيد ، وهما حدياه ، وهم حدياه ، وأنا حدياك ، ونحن حدياك ، وهى من التحدى والمباراة فى الفعل ، والمنازعة فى الغلبة ، تقول : أنا حدياك فى المبارزة فى الحرب ، وأنا حدياً بكر فى المفاخرة .

وهى من المصادر الواقعة موقع اسم الفاعل ، نحو رجل عدل ، وماء غور بمعنى عادل وغائر ، وكذلك حدياً بمعنى متحد ، وموضعه رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : نحن حدياً الناس .

وقوله : (الناس) ، قال البغدادى فى الخزانة(٢) : (وأعلم أنهم أختلفوا فى (ناس) ، فقال الجمهور : أصله أناس ، فقيل جمع إنسان ، وقيل : اسم

---

(١) البيت من الوافر ، وانظر شرح المعلقات السبع (١٥١) ، ومجالس ثعلب (٢/ ٤٦٠) .

المعنى : يقول نتحدى الناس كلهم بمثل مجدنا وشرفنا ، ونقارع أنباءهم ذابين عن أبنائنا . أى نضربهـــم بالسيوف حماية للحرية ، وذبا عن الأبنـاء .

(٢) انظر الخزانة للبغدادى (٢/٢٨٧) .

جمع له . وقال الكسائى : هو اسم تام ، وعينه واو ، من ناس ينوس إذا تحرك ، وعلى هذا فإطلاقه على الجن واضح ، قال فى القاموس : والناس يكون من الإنس والجن) ا . هـ .

واستدل الجمهور على مذهبهم بقولهم : لأنه مشتق من الأنس، والألف زائدة ، ثم حذفت الهمزة وهى الفاء تخفيفاً ، فقيل : ناس ، والوزن عال ، والنقص والإتمام فيه متساويان فى كثرة الإستعمال مادام منكوراً ، فإذا دخلت عليه الألف واللام ، والتزموا فيه الحذف ، فقال : الناس ، ولا يكادون يقولون : الأناس إلا فى الشعر ، كقوله:

إن المنـــايا يطلعـــ
ـن على الأناس الآمنيـــنا(١)

واستدل الكسائى والكوفيون على أنه من النوس، ووزنه فعل بتصغيره على نويس ، ولو كان منقوصاً من أناس لرده التصغير إلى أصله ، فقيل : أنيس .

قال ابن الشجرى فى أماليه(١) مرجحـــا رأى جمهور البصريين : (والصحيح ماذهب إليه جماعة البصريين ، ووافقهم فيه الفراء ؛ لقول العرب : أناس ، وإنما كثر حذف فائه ، وإذا دخل عليه الألف واللام ، فلا يكادون يقولون : الأناس إلا فى ضرورة الشعر كقوله :

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

---

(١) البيت من مجزوء الكامل ، وهو لذى جدن الحميرى ، أنظر شرح الشافية (٢٩٦/٤) ، والخصائص (١٥١/٣) ، أمالى ابن الشجرى (١٢٤/١)، وشرح المفصل (١٢١/٥) ، والخزانة (٢٨٢) .

(٢) انظر أمالى ابن الشجرى (١٢/٢) .

وإنما قالوا فى تحقيره : نويس ، فلم يردوا فاته ، لأن رد المحذوف إنما يلزم فى التحقير للحاجة إليه ، كقولك فى تحقير عدة ، وعبده ، ووزينة ، وفى سه ، ستيهة ، وفى أب ، وأخ : أبى وأخى ، ألا ترى أنك لو لم ترد المحذوف من عدة ، أرقعت ياء التحقير ثالثة بعد الدال ، وحركتها بالفتح لوقوع تاء التأنيث بعدها ، فصارت الكلمة إلى عديه بزنة فعلة كرطبة ، وحقيقة زنها : عليه ، لأن وزن عدة : علة ، والياء زائدة للتحقير ، فخرجت بذلك عن مثال التحقير ، ثم انقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصاوت إلى عداة ، وهذا إفساد مستحكم ، لأن ياء التحقير لا تمسها الحركة ، كما لا تحسن ألف التكسير التى فى مثال مفاعيل ، فكيف تحريكها ثم قلبها ألفا ، وكذلك لو لم ترد عين سه ، فتقل سبهة ، لزمك أن نقول : سهية مثل رطبة ، فتحرك ياء التصغير ثم تقلبها ألفا ، وهذا فساد اللام من أب وأخ ، وقعت ياء التحقير طرفا ، ولزم تحريكها بحركات الإعاب ، ثم قبلها ألفا لا نفتاح ما قبلها . فصار إلى أبا وأخا . وليس فى تحقير أناس إذا لم ترد المحذوف شىء يخرج باب التحقير عن قياسه ، لأن قولنا ناس وإن كان بوزن عال ، فإنه مماثل لباب ، وإن كان باب وزنه فعل ، فكذلك تحقيره ، وإن كان نويس وزنه : عويل وبويب وزنه فعيل) أهـ

وقال ابن يعيش فى شرح المفصل(١) : (اعلم أن الاسم إذا حذف منه شىء وبقى بعد الحذف ما يحصل به بناء التصغير ، وهو ثلاثة أحرف ، لم يرد المحذوف ، لأن الحذف لم يكن عنه علة تزول فى التصغير ، وإنما كان الحذف لغرب من التخفيف فى المكبر ، وهو أحوج إليه فى المصغر لزيادة حروفه فلذلك تقول فى ميت مخفف من ميت : ميت ، نيان واحدة بعدها ياء التصغير ، ولم ترد المحذوف ، لأن الفرض من رد المحذوف نحو أب

---

(١) انظر شرح المفصل (١٢١/٥)

وأخ تحصيل بناء التصغير ، وهو فعيل ، وذلك حاصل من ميت ، فلم يحتج إلى رد المحذوف يعتل ميت ، بثلاث ياءات ، وتقول فى تصغير ناس : نويس ، ولو رددت المحذوف لقلت : أنيس ؛ لأن أصله أناس ، فحذفت الفاء منه ، وهى الهمزة ، وصارت ألف فعال كالعوض من المحذوف) اهـ

وكلمة (الناس) مخفوضة بإضافة (حديا) إليها ، وموضعها ونصب لأنها مفعول .

وقوله : (كلهم) بالجر تأكيد على اللفظ ، ولو نصب حملا على المعنى لكان جائزا كقولك عجبت من ضرب خالد الظريف ، بخفض ونصبه على ما ذكرنا .

ولفظ (كل) لفظه مفرد ، ومعناه الجمع . فالضمير تارة تعود على لفظه مفردا كقولك : كل الرجال ضربته ، وتارة يعود على معناه مجموعا كقولك : كل الرجال ضربتهم ، ونظيره كلا ، فإنه عند البصريين(١) مفرد اللفظ ، مثنى المعنى ، فيعود الضمير إليه على ذينك الوجهين ، قال تعالى : (كلتا(٢) الجنتين آتت أكلها)

وقال الشاعر :

كلاهما حين جد الجرى بينهما
قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى (٣)

---

(١) انظر الإنصاف مسألة (٦٢)

(٢) سورة الكهف آية (٣٣)

(٣) البيت من البسيط للفرزدق ، قال الصبان فى حاشيته (٧٨/١) : إن البيت فى وصف فرسين ، وبه قال العينى أيضا . وقال محي الدين فى تحقيقه على الأشمونى (٤٥/١) : (إن البيت للفرزدق من كلمة يهجو فيها —

قال عبد القاهرة(١) : والأكثر فى **كل** : العود على المعنى ، وفى كلا : على اللفظ .

وقوله : (جميعا نصب على الحال من الناس ، وناصية : حديا .

وقوله : (مقارعة) مصدر قارع ، وهو منصوب على الحال من الضمير الذى فى حديا ، وحديا هو العامل فيها أيضا ، والتقدير : نحن نتحدى الناس مقارعين بينهم عن بنينا ، ويجوز أن يكون حالا من الناس ؛ لأنه قد عاد الضمير عليهم من قوله : بنيهم .

= جريرا ، وكان جرير قد زوج ابنته عضيرة الأبلق ، فعيره الفرزدق وهجاه ، وقبل البيت المستشهد به قوله :

ما كان ذنب التى أقبلت تقتلها
حتى اقتحمت بها أسكفة البـاب

ولما لم يقف العينى والسيوطى على أصل هـذه الكلمة زعما أن بيت الشاهد فى وصف فرسين ، وقد تبعهما على ذلك كثير من العلماء ، منهم العلامتان الأمير والصبان والضمير فى كلاهما وما بعده يعود إلى عضيده بنت جرير ، والأبلق زوجها ، أو يعود إلى جرير وابنته ، على نوع من الالتفاف ، إذا كان من حق الكلام أن يقول : كلا كما حين جد الجرى بينكما) اه

وقوله (تقتلها) مضارع عتل أى تجد بها جـذبا عنيفا ، (أسكفة الباب) — بضم الهمزة وتشديد الفاء — عتبته ، (جد الجرى) عظيم واشتد ، والإسناد فيه مجاز عقلى ، والأصل جد ا فى الجرى (أقلعا) الإقلاع عن الشىء الكف عنه وربو الأنف إرتفاعه عند التعب من جرى ونحوه .

(١) انظر المرتجل فى شرح جمل الجرجانى (٣١)

وقوله : (بنيهم) جمع ابن . وهو بالواو فى الرفع . وبالياء والنصب والجر ، ومع هذا ليس بجمع سالم مطلقا ، بل يدخله شائبة من التغيير ، فلذلك أنث الفعل المسند إليه ، كقولك : جاءت بنو زيد ، ويمتنع جاءت الزيدون .

قال الشاعر :

قالت بنو عامر خالوا بنى أسد

يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام (١)

ونونه محذوفة للإضافة ، وهو منصوب بمقارعة .

---

(١) البيت من البسيط للنابغة الذبيانى . اللغة : (خالوا) أى تاركوهم وقاطعوهم . ومنه قيل للمرأة خليه إذا طلقت . (يا بؤس للجهل) يعنى : ما أبأس الجهل على صاحبه وأضره للناس ، واللام فى (للجهل) زائدة بين المضاف والمضاف إليه ، قال سيبويه (٢/٢٧٧) : (ومثل هذا الكلام قول الشاعر إذا اضطر . للنابغة : يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام . حملوه على أن اللام لو لم تجئ لقلت : يا بؤس الجهل) اه

و (ضراراً) حال . وقد جعله المبرد من المضاف الذى هو المنادى ، والعامل فيه حرف النداء . وبين العلماء من جعل هذه الحال من المضاف إليه الذى هو الجهل ، فيكون العامل فيه هو المضاف ، لأنه هو العامل فى صاحبه ، قال الرضى فى شرح الكافيه (١/١٣٢) : (اعلم أنه قد ينصب عامل المنادى المصدر اتفاقا ، نحو يا زيد دعاء حقا . وأجاز المبرد نصبه للحال ، نحو يا زيد قائما ، إذا ناديته حال قيامه ، ومنه قوله :

يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام

والظاهر أن عامله بؤس الذى بمعنى الشدة ، وهو مضاف إلى صاحب الحال — أعنى الجهل — تقدير الزيادة اللام . فهو مثل أعجبنى مجىء زيد راكبا) اه

═

والمقارعة متعدية إلى المفعول بدليل قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب(١)

تقديره : من قراعها الكتائب .

وقوله : (عن بنينا) متعلق بمقارعة .

وقال ثعلب(٢) : المراد بالمقارعة هنا المفاخرة ، يريد أن المفاخرة

= وهكذا نرى أن الرضى بعد أن نقل مذهب المبرد ، واستظهر غيره ، ورجح البغدادى رأى المبرد ، قال فى الخزانة (١٣٠/٢) : (أقول من جعل عامل الحال النداء جعل الحال من المضاف ، وفيه مناسبة جيدة ، فإن الجهل ضار ، وبؤسه ضرار) اهـ ، وانظر فى البيت : الإنصاف (٣٣٠/١) ، شرح المفصل (٦٨/٣٠) ، أمالى ابن الشجرى (٨٠/٢) ، والخصائص (١٠٦/٣) ، ديوانه (١٠٥) .

(١) البيت من الطويل من قصيدة يمدح فيها عمرو بن الحارث الغسانى حين هرب إلى الشام . اللغة : (الفلول) جمع فل ـ بفتح الفاء ـ وهو كسر فى حد السيف ، يقال : فله فانفل ، أى كسره فانكسر ، وفللت الجيش : هزمته (القراع) والمقارعة : المضاربة . والبيت جاء على طريقة تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فإنه نفى العيب عن هؤلاء القوم على جهة الاستغراق ، ثم أثبت لهم عيباً وهو تثلم سيوفهم من مضاربة الجيوش ، وهذا ليس بعيب . بل هو غاية المدح . و (غير) منصوب على الاستثناء المنقطع ، أى ولكن سيوفهم بهن فلول ، هكذا قال سيبويه . انظر الكتاب (٣٢٦/٢) ، العمدة (٤٨/٢) ، إصلاح المنطق (٢٤) ، شواهد المغنى (٣٤٩) ، ديوانه (١١) .

(٢) انظر مجالس ثعلب (٤٦٠/٢) .

ضرب من المقارعة ، لأن كل واحد من المفاخرين يقارع صاحبه ليغلبه بالمفاخرة ، فيصير التقدير : مفاخرين أبناءهم عن أبنائنا .

ويجوز أيضاً أن يكون (حديا) حالا بعد حال من البيت الذى قبله ، وهو :

نصبنا مثل رهوة ذات حد　　محافظة وكنا السابقينا

ويكون التقدير : محافظين متحدين ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لقوله : كنا أى وكنا السابقينا ومتحدى الناس ، وكان هنا يراد بها الاستمرار فى الزمان كقول الشاعر :

وكنت امرءاً لا أسمع الدهر سبة
أسب بها إلا كشفت غطاءها(١)

ومنه قوله تعالى : (وكان الله عزيزاً حكيما)(٢) .

وكقول الآخر :

وكنت إذا غمزت قناة قوم　　كسرت كعوبها أو تستقيما(٣)

---

(١) البيت من الطويل لقيس بن الخطيم الأوسى . قال المرزوقى فى الحماسة (١٨٦/١) : (يروى : لا أسمع ، ولا أسمع) اهـ . يقول : كنت رجلا لا أعير شيئاً طوال الدهر إلا بينت للناس براءة ساحتى منه ، وحقيقة (كشفت غطاءها) أى لم أترك الشبة ملتبسة على سامعها ، فكان يتردد بين تصديقها وتكذيبها .

والشاهد هنا : مجىء (كان) فى البيت يراد بها الاستمرار فى الزمان .

(٢) سورة النساء آية رقم (١٥٨) .

(٣) البيت من الوافر ، لزياد الأعجم ، وسمى بذلك للكنة كانت =

والألف فى (بفيفا) ليست للإطلاق ، بل هى ألف الضمير المتصل بالنون فى مثل أبينا وأخينا ، وكان الأصل : عن بنيننا ، فحذفت نون الجمع للإضافة كما هو معروف . والدليل على أنه مضاف ، أنه مقابل لقوله : بينهم ، ولما كان هذا مضافاً ، كذلك يكون بفيفا ، لتحصل المقابلة .

= فى لسانه . اللغة : (الغمز) جس باليد يشبه النخس ، (القناة) الرمح (كعوبها) جمع كعب ، وهو الطرف الناشز ، والشعر فى هجاء المغيرة بن جنباء التميمى ، والمعنى : أنه أثارهم بالهجاء وأهلكهم إلا أن يتركوا سبه وهجاءه ، فإذا اشتد عليه جانب قوم رام تليينهم إلا أن يستقيموا .

وانظر فى البيت شرح المفصل (١٥/٥) ، شذور الذهب (٢٩٩) ، المغنى حرف (أو) ، سيبويه (٤٨/٣) ، شرح شواهد الإيضاح (٣٥) .

والله أعلم

مراجع البحث

١) القرآن الكريم .

٢) الإيضاح لأبى على الفارسى — مخطوطة دار الكتب .

٣) الاشتقاق لابن دريد — تحقيق عبد السلام هارون — الناشر مؤسسة الخانجى بمصر — مطبعة السنة المحمدية — ١٩٥٨ م .

٤) إصلاح المنطق لابن السكيت ـ تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ـ الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر .

٥) الأمالى الشجرية ـ لابن الشجرى ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت لبنان .

٦) الإنصاف فى مسائل الخلاف ـ لكمال الدين أبى البركات الأنبارى ـ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .

٧) البحر المحيط لأبى حيان ـ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٢٨ هـ .

٨) بغية الوعاة ـ للسيوطى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى الحلبى ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٦٤ م .

٩) التصريح على التوضيح ـ لخالد الأزهرى ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبى .

١٠) توصية اللمع لابن الخباز ـ مخطوطة مكتبة الأزهر .

١١) حاشية الدسوقى على المغنى ـ مطبعة المشهد الحسينى .

١٢) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ـ دار إحياء الكتب العربيه ـ عيسى البابى الحلبى .

١٣) الحيوان للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان .

١٤) خزانة الأدب ـ لعبد القادر البغدادى ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

١٥) الخصائص لابن جنى ـ تحقيق محمد على النجار ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية .

١٦) ديوان جرير ـ الطبعة الأولى ـ المطبعة العلمية بمصر ١٣١٣ هـ .

١٧) ديوان حسان بن ثابت ـ صححه عبد الرحمن البرقوقى ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

١٨) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٥٨ م .

١٩) ديوان الهذليين ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥م .

٢٠) شذور الذهب لابن هشام ـ تحقيق محي الدين عبدالحميد ـ الطبعة السابعة ـ ١٩٥٧ م ـ مطبعة السعادة بمصر .

٢١) شرح الأشمونى ـ تحقيق محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة مصطفى البابى الحلبي ـ ١٩٣٩ م .

٢٢) شرح ديوان الحماسة ـ للمرزوقى ـ نشر عبد السلام هارون ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنسر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٥٢ م .

٢٣) شرح شافية ابن الحاجب ـ للرضى الاستراباذى ـ مع شرح شواهده لعبد القـــادر البغدادى ـ تحقيق وضبط محي الدين عبد الحميد وآخرين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٧٥ م .

٢٤) شرح شواهد الإيضاح لابن برى ـ مخطوطة دار الكتب .

٢٥) شرح شواهد المغنى ـ للسيوطى ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

٢٦) شرح كافية ابن الحاجب ـ للرضى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٧) شرح المفصل لابن يعيش — عالم الكتب بيروت — مكتبة المتنبي — القاهرة .

٢٨) شرح المعلقات السبع للزوزنى — مطبعة محمد على صبيح وأولاده ١٩٧٨ م .

٢٩) شعر أبى حية النميرى — جمع وتحقيق يحي الجبورى — منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى — دمشق ١٩٧٥ م .

٣٠) الصحاح — للجوهرى — رواية أبى محمد إسماعيل النيسابورى .

٣١) العزة (شرح اللمع) لابن الدهان — مخطوطة دار الكتب .

٣٢) القاموس المحيط — للفيروزبادى — الطبعة الثانية — مصطفى البابى الحلبى ١٩٥٢ م .

٣٣) الكامل للمبرد — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد شحاته — دار النهضة بمصر للطبع والنشر —

٣٤) الكتاب لسيبويه — تحقيق عبد السلام هارون — الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٥) اللباب فى العروض والقافية — لكامل السيد شاهين —١٣٩٦هـ .

٣٦) لسان العرب لابن منظور .

٣٧) مجالس ثعلب — تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر .

٣٨) المحصول فى شرح الفصول لابن معطى — تأليف ابن إياز — مخطوطة دار الكتب .

٣٩) المرتجل فى شرح جمل الجرجانى — لابن الخشاب — مخطوطة مكتبة الأزهر .

٤٠) معجم الشعراء للمرزبانى — تهذيب المستشرق سالم الكرنكوى — نشر مكتبة القدس — القاهرة ١٣٥٤ هـ .

٤١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبد الباقى — دار مطابع الشعب .

٤٢) مغنى اللبيب لابن هشام — تحقيق مازن المبارك — دمشق دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٤٣) المقتضب لأبى العباس المبرد — تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — لجنة إحياء التراث العربى .

٤٤) المنصف لابن جنى على تصريف المازنى — تحقيق إبراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين — مطبعة مصطفى البابى الحلبى — الطبعة الأولى .

٤٥) همع الهوامع — للسيوطى — دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .

بقلم
الدكتور / محمد السيد متولى البغدادى
مدرس بقسم اللغويات
كلية اللغة العربية بدمنهور
فرع جامعة الأزهر

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٦/٦٩١٦ م

